تامر إبراهيم

الطبعة الثانية

صانع الظلام

الكتاب الأول

صانع الظلام

الطبعة الأولى نوفمبر ٢٠١٢

الطبعة الثانية فبراير ٢٠١٣

دار بلومزبري – مؤسسة قطر للنشر

مؤسسة قطر، فيلا رقم ٣، المدينة التعليمية

صندوق بريد ٥٨٢٥

الدوحة، دولة قطر

www.bqfp.com.qa

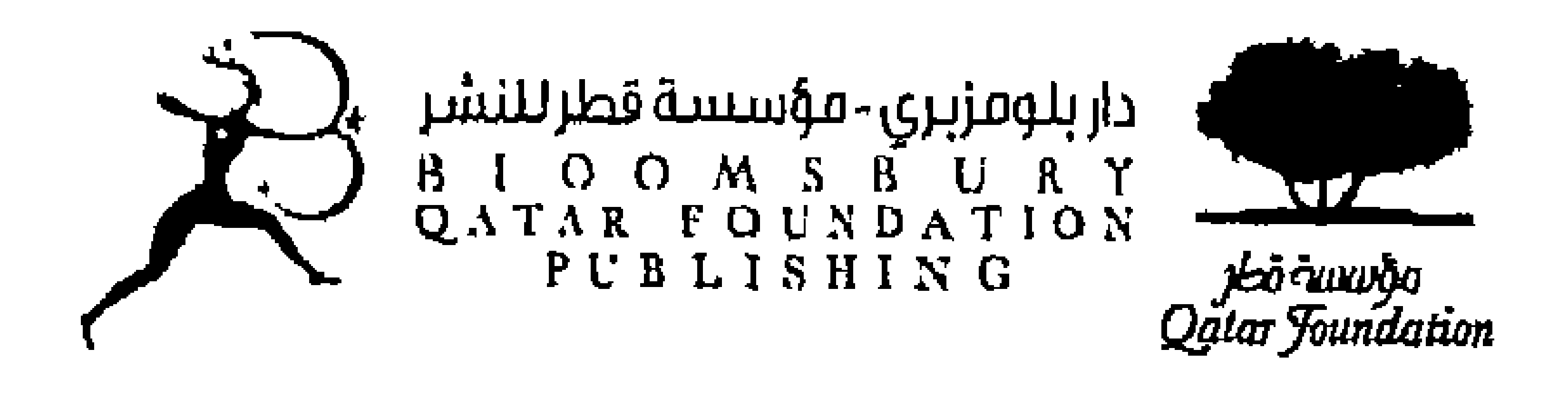
الترقيم الدولي: 9789992195758

طبع في مصر بشركة صحارا للطباعة

تامر إبراهيم

صانع الظلام

رواية



إهداء

إلى الصَّديقين، أحمد مراد، وأحمد حسب النبي، اللذَين لم يبخلا عليَّ بوقتهما أو ملاحظاتهما أو تشجيعهما طوال فترة كتابتي.

وإلى زوجتي الحبيبة رشا محمد.. لولاكِ ما كانت هذه الرواية.

١

يوسف خليل سيِّئ الحظ.

هذه الحقيقة يجب أن نتفق عليها قبل أن نبدأ حكايته، وربما لو اتفقنا على هذه الحقيقة منذ البداية لحصلنا على تفسير لا بأس به لكل ما سيصيبه لاحقًا، وإن كنت لا تعرف مَن هو يوسف خليل فلا تشغل بالك بهذه النقطة، فستعرف عنه الكثير حالًا، لكن أول ما عليك فعله الآن هو أن تصدق أنه سيِّئ الحظ حقًّا.

تريد الأسباب أولًا لتقتنع؟ هذا حقك.

لنبدأ بأن يوسف وحيد تمامًا مع أنه رجل بالغ في الرابعة والثلاثين من العمر. والوحدة في هذا العمر ليست اختيارية، صدقني. صحيح أن والديه تُوفيا في صباه، وصحيح أنهما لم يتركا له إخوة أو أقارب ـ أو ميراثًا حتى ـ لكن وحدة يوسف تشمل ما هو أكثر من هذا وأعم.. فيوسف بلا أصدقاء، كنتاج طبيعي لافتقاره لأي موهبة اجتماعية تدفع أي شخص لمصادقته. وبلا جيران، إذ إن شقته هي الشقة الوحيدة المسكونة في تلك البناية الحديثة التي انتقل للعيش فيها منذ عامين.. باقي الشقق ابتاعها ثري لأبنائه

ليتزوجوا فيها لاحقًا، حاكمًا على يوسف بالمزيد من الوحدة والخواء. بلا أعداء حتى، فالأعداء في هذا الزمن يُولِّدون أصدقاء، ويوسف لم يستطع أن يصادق شخصًا في حياته. وأخيرًا بلا زوجة، لجميع ما سبق، أو لأن سوء حظه لم يبلغ هذه الدرجة!

هكذا يستيقظ يوسف وحيدًا.. يأكل وحيدًا.. ينام وحيدًا، ولو هلك في أحد الأيام فسيهلك وحيدًا، ولن يشعر باختفائه أحد.

إذن يمكننا الآن ـ على الأقل ـ أن نتفق على أن يوسف وحيد.

لكن سوء حظه لا يتوقف عند وحدته، فجسده ذاته نموذج حي لسوء الحظ في كل تفصيلة من تفاصيله التشريحية.. إنه قصير ذلك القِصر الذي لا يدعو للاحترام أو الملاحظة.. نحيل للدرجة التي تبرز معها عظام وجهه بصورة تشعر معها أنه يحمل جمجمة فوق كتفيه لا رأسًا آدميًّا ذا ملامح.. أشعث الشعر طيلة الوقت ـ الشيء الوحيد الذي ورثه عن والده ـ وعيناه بارزتان كأنهما تحدقان بوقاحة في كل من يحيطون به، باعثةً مزيجًا من عدم الارتياح، والنفور، في نفس كل من يحدق فيهم.

أضف إلى هذا كله بعض العيوب التشريحية غير الملحوظة والمؤسفة في الوقت ذاته، نذكر منها ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ ضيق خِلقي في جيوبه الأنفية يمنحه ساعات من الصداع النصفي مرتين أو ثلاث مرات في كل شهر، والصداع النصفي لو لم تكن تعرفه هو الجحيم بعينه.. تخيل أن هناك جمرة موقدة تتقافز في رأسك محاولة الخروج، وستفهم نوعًا ما ما يعانيه يوسف بانتظام مقيت.

يمكنك هنا أن تجادل زاعمًا أن لكل منا أمراضه، وأن لكل مرض

علاجًا، لكني أخبرتك بأن يوسف سيئ الحظ، لذا تجد أن نحالته الدائمة سببها ارتجاع في المريء لم يتمكن أي خبير أجهزة هضمية من تفسير سببه، وجيوبه الأنفية مع ضيقها تعاني حساسية مزمنة من الهواء كما أخبره الدكتور أشرف أستاذ أمراض الأنف والأذن والحنجرة.

نعم.. الهواء.

الدكتور أشرف أخبره بأن جيوبه الأنفية تنتفخ مع تعرضها للهواء لتنسد تمامًا وليبدأ الصداع النصفي، والحل الوحيد أمامه هو: «أن تقلل من تعرضك للهواء». وهي الصيغة المهذبة لـ«حاول ألا تتنفس حتى تختنق وتموت».

ولكني ـ ولأنني أتمتع برحابة صدر غير عادية ـ سأسمح لك بعدم الاقتناع بسوء حظ يوسف بعد، مع كل ما أسلفت ذكره، وسأحدثك قليلًا عن حياته المهنية، لأحاول أن أؤكد لك هذه الحقيقة بطريقة مختلفة.

ولأن الحياة المهنية تبدأ بالتخرج فى الجامعة، فعلينا أن نعرف أن يوسف حصل على شهادته الجامعية من كلية الإعلام جامعة القاهرة، بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف، مَنْ بلا أصدقاء أو حياة اجتماعية ـ كما تعلم ـ يدرسون باجتهاد رغمًا عنهم. وهذا التقدير يعني أن مستقبلًا عريضًا ينتظره مع التعيين في الجامعة، ليبدأ سلسلة من الدرجات المهنية تنتهي به أستاذًا في الكلية التي تفوَّق فيها، لكن ـ ولسبب ما لم يتكرر إلا في عام تخرُّجه ـ قررت الجامعة أنها لا تحتاج إلى تعيين المزيد من المعيدين في الكلية، لتضيع على يوسف فرصته، وليتخرج فى الكلية كسائر من تخرَّجوا فيها من دون تقدير أو مستقبل.

هكذا بدأ يوسف البحث عن عمل في أي صحيفة حكومية أو خاصة، ليجد ـ وفي كل مكان يتقدم فيه ـ حسناء تبتسم له قائلة:

ـ باب تقديم الطلبات أُغلق اليوم.. تأخرت قليلًا يا عزيزي.

وذلك الرد كان ينتظره حتى لو كان أول الواصلين.

لكنه في النهاية حصل على عمل في إحدى المجلات، وقبل أن تصرخ قائلًا إن هذا دليل دامغ على حُسن حظه، اسمح لي بأن أخبرك بأن هذه المجلة اسمها «المجلة»! ولو كنت يا عزيزي ترى نجاحًا يُنتظر من مجلة اسمها «المجلة»، فلا داعي لأن أضيِّع وقتي معك في محاولة إقناعك بسوء حظ يوسف خليل.

في مجلة «المجلة» أوكلوا إليه صفحة الحوادث، ومن خلالها يحصل يوسف على راتب لو حصلت أنت عليه لظهرت صورتك في هذه الصفحة. لكن يوسف كان يدرك سوء حظه ويتعايش معه بصبر لا نهاية له؛ فلم يعترض، وإن بدا أن هذا التعايش السِّلمي سيصل إلى نهايته اليوم.

مدير تحرير المجلة طلب منه أن يمر على مكتبه في نهاية اليوم، وهذا لا يعني ـ في لغة الصحافة ـ إلا أن هناك مصيبة تنتظره، واليوم لا يشي بالسعادة منذ بدأ.

اليوم الذي تستيقظ فيه قبل الفجر على صراخ الطفل المزعج لحارس بنايتك، والذي تجد فيه أن سيارتك جثة هامدة ترفض التحرك من أمام منزلك، وأن جيوبك الأنفية تنبض في وجهك منذرة بصداع نصفي مقيت، بينما كمبيوترك في المكتب لا يستجيب لأي شيء بعد أن أصابه فيروس

لم يُصِب أي كمبيوتر آخر على كوكب الأرض، هو يوم لن ينتهي بخبر سار مهما تمنيت في أعماقك.

إن مصيبة تنتظر يوسف خليل مع نهاية اليوم، وهذه المصيبة مجرد علامة من علامات سوء حظه الذي لو اقتنعت به الآن فسيمكنك أن تواصل معي حكايته من دون مشقة.

* * *

نهاية اليوم الصحفي تعني السادسة مساءً لكل العاملين في مجلة «المجلة»، والتاسعة والنصف بالنسبة إلى يوسف خليل وحده من دون سائر المحررين، لمجرد أنه تساءل في يوم من الأيام عن سر الخصومات المنتظمة من راتبه المخجل، ليذكره مدير التحرير ببنود العقد ـ تلك البنود التي لا يقرأها أحد ولا يعمل بها عاقل ـ وليخيِّره ما بين الالتزام المُطلق بها أو الرحيل.

لماذا لم يقرأ يوسف العقد جيدًا يوم أن ذيَّله بإمضائه؟ يومها حاول يوسف أن يخفي نظراته الحادة خلف نظارة طبية عجز معها عن رؤية أي شيء أمام عينيه، ومن يومها وهو يدفع ثمن هذه المحاولة.

المشكلة أن عمله الفعلي لا يستغرق أكثر من ساعتين، فهو لا يمارس مهنة صحفي الحوادث كما تتخيلها أنت، بل هو مجرد محرر لصفحة الحوادث في مجلة اسمها «المجلة». لذا تجد أن عمله يتلخَّص في نقل أخبار الحوادث من الصحف الأخرى ومواقع الإنترنت، مع تعديل العناوين بأخرى أقل سذاجة، وإضافة بعض الصور الأرشيفية و.. ولا شيء آخر!

أي أن يوسف يصل إلى مكتبه في تمام التاسعة والنصف صباحًا..

يُنهي عمله في تمام الحادية عشرة والنصف.. ثم يجلس على كرسيِّه غير المريح لعشر ساعات متواصلة، حتى يفقد الإحساس تمامًا بنصفه السفلي، قبل أن يعود إلى منزله ليأكل.. وينام لو نام الطفل المزعج لحارس البناية، والذي لا يتوقف عن الصراخ إلا ليلتقط أنفاسه.. ليعيد هذا العذاب السيزيفي من جديد.

هذا هو روتين يومه الذي اختل اليوم حين طلب منه مدير التحرير أن يمر عليه في نهاية اليوم، ليقضي يوسف ما تبقى له من ساعات اليوم يتخيل ما سيقوله له مدير التحرير بالضبط.

من المؤكد أنه لا يحمل له أخبارًا سارة، فنظراته حين طلب منه المرور على مكتبه لم تكن نظرات شخص يعاني سعادةً مفرطةً أو يدَّخر مفاجأة سارة لآخر. وبهذا يمكنه أن يستبعد الاحتمالات المبهجة ليركز طاقته في تخيل أسوأ السيناريوهات المتوقَّعة.

قد يخصم منه المزيد من راتبه الذي يعتبر في حد ذاته نوعًا من أنواع عقاب القدر له على خطأ لم يقترفه. الاحتمال لا بأس به والأسباب عديدة.. هناك التخفيض في ميزانية المجلة بناء على طلب رئيس مجلس الإدارة.. هناك مشاكل المبيعات التي تنخفض طيلة الوقت.. هناك الخصم كنوع من الجزاء على خطأ لا وجود له على أرض الواقع لكنه وبالتأكيد اقترفه من دون أن يشعر. المهم أنه سيخصم منه، وأنه لن يجرؤ على الاعتراض، فالبديل الوحيد أمامه هو الجلوس في المنزل والتحديق في الجدار إلى أن يصاب بالجنون.

لكن مهلًا.. ماذا لو كان هذا ما سيحدث؟ ماذا لو كان ما ينتظره هو الإقالة من المجلة؟

«اجلس يا يوسف.. أريد أن أنقل إليك خبرًا مؤسفًا.. أنت تعرف مدى تقديرنا لمجهودك معنا طيلة السنوات الماضية.. إنه ليس قراري كما تعرف و... وداعًا يا عزيزي.. حظًّا أطيب في مكان آخر لو عثرت عليه!».

الإقالة ليست بعيدة بهذه الدرجة، والأسباب لن تختلف كثيرًا عن أسباب الخصم.. هناك المبيعات والإهمال، والإدارة المتعصبة ضد كل من يحملون اسم «يوسف»، والأزمة الاقتصادية العالمية، وأحداث الفاتيكان الأخيرة.. ومهما كان السبب فالنهاية واحدة؛ الجلوس في المنزل ثم الإصابة بالجنون.

إذن لدينا احتمالان حتى الآن.. الخصم أو الإقالة.. ماذا أيضًا؟ المزيد من العمل من دون مقابل.. هذا الخيار يكاد يتحول إلى أمنية في أعماق يوسف بعد الاحتمالين الأولين.. لو كلَّفه بالمزيد من العمل فسيوافق فورًا، وربما قبَّل يديه كذلك امتنانًا منه وعرفانًا بالجميل.. ومهما كان العمل الزائد فسينفذه.

لو طلب منه أن ينظف المكان، ويحمل القمامة، ويوزِّع نُسخ المجلة بنفسه على المشتركين فيها في منازلهم فسيوافق بلا جدال، وستدمع عيناه فرحًا.. هذا هو الاحتمال الثالث، لكنه ليس الأخير.

ربما طلب رؤيته لأنه اكتشف سرًّا من أسراره ويريد مواجهته به.. نعم.. يجب ألا ينسى يوسف سوء حظه، وبالتالي عليه ألا يستبعد أي كارثة قابلة للحدوث مهما ضعفت فرص حدوثها.. احتمال أن مدير التحرير اكتشف سرًّا وسيواجهه به احتمال لا بأس به على الإطلاق، وما على يوسف معرفته الآن هو: ما هذا السر؟ وما مبرره لإخفائه عن مدير التحرير طيلة هذه الفترة الماضية؟

إنه لا يدخن، ولا يدمن المخدرات، ولا يعاقر الخمر، وعلاقاته النسائية منعدمة. إنه لم يسرق، ولم يرتشِ، ولم يقتل، ولم يغتصب، ولم يزوِّر، ولم يتجاوز حتى إشارة مرور في حياته. ما السر الذي يخفيه إذن والذي اكتشفه مدير التحرير ليدمر به حياته؟

سؤال سيحتاج إلى وقت، والساعة الآن السادسة والرُّبع.. لِيَنْسَه مؤقتًا وليركِّزْ في باقي الاحتمالات قبل أن تحين ساعة الصفر.. لدينا حتى الآن الخصم أو الإقالة أو العمل الزائد أو اكتشاف سر.. ماذا أيضًا؟

الواقع أنه لم يتبقَّ سوى أن يحاول قتله أو اغتصابه أو الاثنين معًا!

ولينظمَ أفكاره بدأ يوسف كتابة الاحتمالات والتعديل عليها ودراستها واحدًا تلو الآخر، ثم رتَّبها تصاعديًّا وتنازليًّا، ثم بدأ رسم تخيلٍ كامل لما سيحدث وأين سيجدون جثته في مكتب مدير التحرير، بعد أن ينتهي من قتله واغتصابه، وكيف ستتناثر دماؤه على الجدران، وكيف سيصنعون له صفحة «كلنا يوسف خليل» على الفيس بوك و... و...

وفي تمام الثامنة وعشر دقائق تعالى رنين تلفون مكتبه، فانتفض وجال في خاطره أن يسرع هاربًا من المكان بدلًا من أن يعرف ما سيحدث له لو ظل، لكنه وبصورة لا إرادية تمامًا التقط السماعة ليجيب:

ـ سيادة المدير...

ـ أريدك في مكتبي.. الآن.

ثم انتهت المكالمة وانتهت معها فُرص يوسف في تخمين أي مصيبة تنتظره.

أعاد السماعة.. أحكم ربطة عنقه.. وقف في بطء وألقى نظرة وداع على مكتبه، ثم اتجه إلى مكتب مدير التحرير.

وفي منتصف الطريق جالت في رأسه فكرة أن يحمل له مدير التحرير خبرًا سارًّا على الرغم من كل الساعات التي أضاعها في تخمين الأسوأ.. قد يفعلها سوء حظه ويخيِّب ظنه بعد ساعات من الترقُّب المرير، لكن لو فعلها..

لو جرؤ مدير التحرير وأخبره بأي شيء مبهج أو سار..

سيقتله!

* * *

وفي تمام الحادية عشرة مساءً دخل يوسف السجن.

لا لم يقتل مدير التحرير، بالطبع لا تكن سخيفًا.. إنه هنا الآن في مهمة صحفية بحتة، هي الأولى منذ أن تولّى منصبه كمحرر صفحة الحوادث في مجلة «المجلة»، أرسله فيها مدير التحرير الذي استقبله في مكتبه ليبادره:

ـ يوسف.. هل ذهبت إلى السجن من قبل؟

فبُوغت يوسف بالسؤال وأوشك على الاعتراف، مع أنه لم يره من قريب حتى، لولا أن واصل المدير:

ـ أريدك أن تذهب إلى هناك الليلة.. ستُجري حوارًا مع محكوم عليه بالإعدام.

قالها لتتلاشى التساؤلات القديمة من رأس يوسف، وتحل تساؤلات أخرى جديدة بدلًا منها، بدأ المدير في الإجابة عنها من تلقاء نفسه، شارحًا:

ـ أنت تذكر تلك الجريمة التي حدثت في العام الماضي، والتي نشرنا

تفاصيلها في المجلة.. أستاذ التاريخ الذي قتل ابنه.. لقد كانت جريمة بشعة حقًّا.. الرجل هشم رأس طفله وهو نائم بمِطرقة، واعترف بجريمته ليُحكم عليه بالإعدام، الذي سينفذ فيه خلال أيام، لكنه لا يعرف هذا بعد.. صديقي في مصلحة السجون أخبرني بهذا، ولهذا عليك أن تُسرع.. أريدك أن تلتقيه وأن تُجري معه حوارًا قبل أن يتدلى من حبل المشنقة.. أريدك أن تعرف منه ما أخفاه طيلة الفترة الماضية.

ومال عليه المدير ليردف بخطورة لا داعي لها:

ـ أريدك أن تعرف لماذا قتل ابنه.

ثم شرح له مدير التحرير ما عليه فعله بالضبط.. سينطلق الآن إلى السجن وسيطلب لقاء اللواء حمدي، مدير مصلحة السجون هناك، والرجل سيمنحه غرفة مُغلقة، وساعة كاملة مع أستاذ التاريخ الذي قتل ابنه.. ساعة تكفي لإجراء حوار كامل مع الرجل، لكن عليه أن يضع في حسابه أنه رفض التحدث مع الجميع طيلة العام الماضي، وحتى من حققوا معه فشلوا في معرفة سبب قتله ابنه بهذه الطريقة الوحشية.

لكن الليلة على يوسف، وخلال ساعة واحدة لا أكثر، أن يقنعه بتغيير رأيه قبل فوات الأوان ليجيب له عن سؤال مدير التحرير: لماذا قتل ابنه؟

هكذا وافق يوسف ـ بالطبع ـ وهكذا كان يعبر بوابة السجن الداخلية في تمام الحادية عشرة مساءً، ليقتاده الحرس إلى مكتب اللواء حمدي، الذي استقبله بفتور مَن يستقبل صحفيًّا في مثل هذه الساعة المتأخرة، قبل أن يقتادوه من جديد إلى غرفة صغيرة احتوت على طاولة ومقعدين، طالبين منه أن ينتظر حتى يأتوا له بأستاذ التاريخ قاتل ابنه.

في الغرفة جلس يوسف، وعلى الطاولة جهز أوراقه وقلمه وجهاز تسجيل صغيرًا ـ أتى به من باب الاحترافية لا أكثر ـ ثم بدأ تصفح عدد المجلة الذي نُشرت فيه تفاصيل الجريمة، فهو ـ وعلى عكس ما يظن مدير التحرير ـ لم يكن يذكر أي شيء عنها.. لقد نقلها من أحد المواقع أو إحدى الصحف ونشرها، لكنه لم يقرأها حتى، والآن عليه أن يعرف كل المتاح عن هذه الجريمة قبل أن يلتقي مرتكبها ليحاوره.

الخبر كان صغيرًا يحتل الرُّبع السفلي من صفحة الحوادث، ترافقه صورة قديمة لأستاذ التاريخ، بدا فيها أنيقًا واثقًا في نفسه ومكانته العلمية، وكان العنوان يقول باقتضاب «أستاذ تاريخ في كلية الآداب بجامعة عين شمس يهشم رأس ابنه بمِطرقة»، وفي الأسطر القليلة التالية قرأ يوسف أن أستاذ التاريخ هذا اسمه مجدي الرفاعي، وأنه أرمل، في أواخر الخمسينيات، مشهود له بالنبوغ والاحترام بين زملائه في الجامعة، وأنه كان يعيش حياة طبيعية تمامًا حتى أتت الليلة التي قرر فيها أن يبتاع مِطرقة ثقيلة.. يدخل غرفة ابنه ذي السنوات العشر.. ينهال بالمطرقة على رأسه الصغير حتى حوَّله إلى فتات تناثر في كل أركان الغرفة.

هكذا، ومن دون سبب أو مبرر!

الشهود، وهم من الجيران، قالوا إنهم سمعوا صوت ضربات ثقيلة قادمة من شقته أعقبتها ضحكات الدكتور مجدي المجنونة، قبل أن يبدأ الصراخ فجأة ليقتحموا عليه شقته ويجدوه غارقًا في دماء ابنه الذي لم يعد لديه رأس ثلاثي الأبعاد.

في البداية صُدموا، ثم أبلغوا الشرطة التي جاءت وألقت القبض على مجدي، فلم يقاومهم أو يعترض. اعترف بجريمته، ثم لاذ بعدها بصمت

ثقيل راسخ لم يتزحزح حتى حين نطق القاضي حكمه بإحالة أوراقه إلى فضيلة المفتي.

مجرد جريمة بشعة من الجرائم التي طالما نشرتها صفحات الحوادث، لكن هذه المرة كان التساؤل المسيطر على الجميع هو: لماذا؟

لماذا قرر أستاذ تاريخ أن يُنهي حياته وحياة ابنه الطفل بهذه الطريقة البشعة؟

الكشف الطبي عليه أثبت عدم جنونه، ولو كانت النتيجة عكسية لأراح الجميع من حيرتهم، لكنه فعلها بكامل وعيه وإرادته. ابتاع المِطرقة.. تأكد من ثقلها.. تسلل إلى غرفة طفله الغافي في فراشه، فلم يشعر تجاهه بذرة حنان أو إشفاق، بل رفع المِطرقة بيده ثم...

ثم أتى تقرير الطبيب الشرعي ليعلن أنهم لم يعثروا على عظمة واحدة سليمة في جمجمة ابنه الصغيرة.

الطفل دُفن بعدها في مقبرة العائلة من دون رأس، ومجدي أستاذ التاريخ أودع هذا السجن، حيث قضى أشهُر مدته صامتًا لا يستجيب لأي ضغط أو إغراء تعرَّض له ليخرجه من صمته هذا.. واليوم على يوسف، وخلال ساعة واحدة فقط ـ لسوء حظه ـ أن يحل عقدة لسانه، وأن يحصل منه على إجابة وإلَّا...

تعالَى صوت خطوات تقترب، فأعاد يوسف نسخة المجلة إلى حقيبته، واعتدل على مقعده وقد بدأ قلبه يخفق بقوة وبصوت أعلى من صوت الخطوات التي بلغت الباب أخيرًا. يدخل أحد حراس السجن يقتاد مجدي الرفاعي الذي ارتدى «بدلة الإعدام» ذات اللون الأحمر، فلم يستطع يوسف

إخفاء ذهوله، وهو يقارن في خياله ما بين صورة الدكتور مجدي التي رآها في المجلة، وبين شبحه الذي يقف أمامه الآن.

في الصورة كان الدكتور مجدي رجلًا في الخمسينيات من عمره، لكنه يبدو أصغر قليلًا مع شعره المصفف بعناية، والصحة البادية عليه، وابتسامته الواثقة المُرحبة، أما من وقف أمامه الآن فكان عجوزًا يبدو كأنه تجاوز السبعين من عمره بسنوات عديدة، وقد نحل جسده وزاغت عيناه بصورة شعر معها يوسف ولأول مرَّة في حياته بالوسامة!

ـ أمامك ساعة واحدة.

قالها الحارس بلامبالاة، ثم خرج وأغلق الباب عليهما، فلم يتحرك يوسف من مكانه، بل ظل مكانه يُحدق ذاهلًا في مجدي الذي بدا كأنه لا يراه حتى، وعيناه ترمقان اللاشيء بثبات. وبعد لحظات، احتاج إليها يوسف ليتمالك نفسه، وقف ليقول بصوت حاول أن يجعله هادئًا مرحبًا، فخرج من فمه مرتعشًا متخاذلًا:

ـ أنا.. أنا يوسف خليل.. من مجلة «المجلة».

قالها ومدَّ يده ليصافح مجدي الذي لم يبدُ عليه أنه سمعه حتى.. فقط ظل واقفًا مكانه تاركًا يوسف يصافح هواء الغرفة، قبل أن يستعيد يده ليشير بها، طالبًا:

ـ اجلس من فضلك!

رفع إليه مجدي عينيه ليراه لأول مرَّة، قبل أن يجلس على المقعد المواجه له ببطء، ليعود بعدها إلى التحديق في اللاشيء، فجلس يوسف

أمامه وهو يفكر في بداية مناسبة تليق بمثل هذا الموقف، وقد أيقن في أعماقه أنه لن يحصل من هذا الرجل على شيء.

مَن يجلس أمامه الآن هو بقايا رجل يعرف أن ساعاته في هذه الدنيا معدودة، ولن يضيع منها ساعة مع يوسف ليفتح له قلبه فيها وليجيب فيها عن أسئلته قبل أن يبكي على كتفه، لكن على يوسف أن يحاول رغم كل شيء:

ـ أنا هنا لأتحدث معك قليلًا.. إذا سمحت لي.

لم يجبه مجدي، تمامًا كما توقع. لكن يوسف قرر مواصلة دوره بصورة ميكانيكية بحتة، ليضغط زر التسجيل وليمسك بقلم يعرف أنه لن يخط به حرفًا واحدًا على الأوراق أمامه، قبل أن يقول:

ـ أريد أن أعرف منك ما الذي حدث في تلك الليلة بالضبط.

قالها من دون ذرة شك في مدى سخافة ما قاله، لكنها البداية الوحيدة التي تكرَّم بها عقله عليه، فلم يتراجع وواصل قائلًا:

ـ هل قتلت ابنك بالفعل؟

وهو لم يكن في حاجة لإجابة عن هذا السؤال، لكنه افترض أن سؤالًا منطقيًّا كهذا قد يشجِّع مجدي على التحدث، وهو افتراض أثبت مجدي خطأه حين استمر في تحديقه الصامت للفراغ.. وفي أعماق يوسف تعالى صوت سوء حظه يردد ضاحكًا:

ـ أنت تضيِّع وقتك هنا.. هذا الرجل لن يتحدث مهما حاولت.

لكنه تجاهل هذه الحقيقة، وجلس ينتظر أي علامة من مجدي تدل

على أنه لا يزال على قيد الحياة.. مرت دقيقة.. دقيقتان.. عشر دقائق، تثاءب بعدها سوء حظ يوسف في رأسه، وأعلن:

ـ *أمامك ساعة إلا الربع.. والرجل لن يتحدث.*

فهمس يوسف لنفسه: أعرف.. لكني مضطر!

ـ *يوجد حل واحد.. لكن.. هل ستجرؤ؟*

قالها سوء حظه في رأسه، فأدرك يوسف ما يقصده، لكنه قرر تجاهله بالطبع مقرًا أنه ليس بحل ـ أو فلنقل ليس بحل يعتمد على الأمانة الصحفية التي يجب أن يتحلى بها أي صحفي يعمل في مجلة «المجلة» ـ ولذا كرر:

ـ دكتور مجدي.. هل قتلت ابنك؟

فلم يجبه مجدي، وقد أخذت الساعة إلا الربع المتبقية من عمر الحوار في التآكل.. أربعون دقيقة وسيأخذونه من الغرفة وسيعود يوسف بخُفَّي حنين إلى مدير التحرير، الذي سيتهمه بالإهمال ويخصم من راتبه أو يقيله أو يغتصبه ويقتله.

ـ دكتور مجدي.. هل تسمعني؟

فأجابه سوء حظه في رأسه:

ـ *بالطبع يسمعك.. إنه يجلس أمامك مباشرة أيها الأحمق!*

لكن مجدي كان يجلس وكأنّ صوت يوسف لا يعرف لأذنيه طريقًا.. الدقائق الأربعون تتناقص لتصبح ثلاثين.. وبصبر وأمل وتوسل يكرر يوسف:

ـ دكتور مجدي.. أرجوك أجب عن سؤالي.. هل.. قتلت.. ابنك؟

وهذه المرَّة انتظر حتى تناقصت الدقائق الثلاثون إلى خمس وعشرين، قبل أن يقرر أن الحل الذي اقترحه سوء حظه عليه ليس بهذا السوء.

إنه الحل ـ مهما كانت درجة عدم أمانته ـ الوحيد.

لكنه فضَّل الانتظار خمس دقائق إضافية، قبل أن يعلن هذا الحل قائلًا:

ـ سأحدثك بصراحة.. أنا هنا لأُجري حوارًا معك لأنني كُلِّفت به.. أنت لن تتحدث، وأنا لن أرحل من دونه، لذا سأوفر عليك المجهود، وكل المطلوب منك هو التصحيح لي إذا أخطأت.. اتفقنا؟

فلم يُجب مجدي ولم يَبدُ عليه حتى أنه فهم ما يقصده يوسف، الذي بدأ يكتب مستسلمًا لاقتراح سوء حظه وهو يقرأ ما يكتبه بصوت عالٍ:

ـ أولًا.. هل ارتكبت جريمتك بكامل وعيك وإرادتك؟ الإجابة هي: نعم، لقد كنت أعرف ما أفعله جيدًا.

ثم رفع عينيه إلى مجدي متوقعًا أن يعترض أو يستنكر، لكن مجدي كان معه بجسده فقط.. عظيم.. على الأقل لن يعترض.. استرخى يوسف وواصل:

ـ إذن.. لماذا ارتكبت جريمتك؟ لأنني كنت أريد التخلص منه.. بعد أن تُوفيت زوجتي تحمَّلت مسؤولية ابني بمفردي لأطول وقت ممكن، لكني.. وفي النهاية.. لم أعد أتحمَّل.. يأسي وحزني لفراق زوجتي دفعاني لارتكاب الجريمة.

نظرة أخرى إلى مجدي الذي منحه موافقته بصمته، ثم واصل وقد بدأ يشعر بالفخر بموهبته في تأليف الحوارات، والتي اكتشفها لتوِّه:

ـ هل يمكنك أن تحكيَ لي ما حدث ليلتها؟ سأجيب عن هذه النقطة بما قرأته عن الجريمة، ولو نسيت أي تفاصيل فسأكون شاكرًا لو ذكرتها وأنا أكتب.. الإجابة ستكون: نعم، ليلتها ترددت طويلًا قبل ارتكاب جريمتي، لكني كنت أعرف أنني سأفعلها.. كنت أعرف أنني سأتخلص منه حتى لو كلفني هذا حياتي.. هكذا أحضرت المطرقة الثقيلة التي ابتعتها خصيصًا لأنفذ بها جريمتي.. تسللت إلى غرفته لأجده على فراشه يغط في نوم عميق.. ألقيت عليه نظرة وداع، ثم رفعت المطرقة وهويت بها على رأسه.. لا أعرف إن كان قد استيقظ أم لا بعد الضربة الأولى، لكنني سأكتب أنه لم يفعل.. القراء لن يتحملوا فكرة أن يكون ابنك قد استيقظ وظل على قيد الحياة بعد الضربة الأولى.. مجرد فكرة أنه فتح عينين مذعورتين ونظر إليك والدماء تتفجر من رأسه من دون أن يجبرك هذا على التوقف؛ مثيرة للغثيان حقًّا.. لقد مات مع الضربة الأولى لكنك واصلت ضربه و...

هنا قاطعه مجدي للمرَّة الأولى بصوت لم يُستخدم منذ عام أو أكثر:

ـ لكنه لم يمت.

ـ ماذا؟!

قالها يوسف وقد بُوغت بما سمعه، ليحدق في مجدي ذاهلًا، لكن مجدي ظل ينظر إلى الفراغ وهو يواصل:

ـ هشمت رأسه بالمِطرقة.. لكنه.. لم يمت!

فتضاعف ذهول يوسف مرات ومرات، واحتاج إلى دقيقة كاملة ليتمالك نفسه ويسأل:

ـ ما الذي تقوله؟

فأجابه مجدي بأن مدَّ يديه ليأخذ القلم من يد يوسف المأخوذ.. تأمله للحظة.. وفي اللحظة التالية غرسه في عنقه قبل أن يجد يوسف فرصة للفهم أو الاعتراض!

غرسه حتى نهايته فشهق يوسف متراجعًا في مقعده، لكن مجدي نظر إليه والقلم يتدلَّى من عنقه ليهمس بما تبقى له من صوت:

ـ ابحث عنه.. ولو عثرت عليه.. فاقتله.

قالها وانتزع القلم من عنقه بحركة سريعة انفجرت معها الدماء من شرايينه التي تمزَّقت، وارتطمت بوجه يوسف كصفعة، فهبَّ من مكانه صارخًا وقد استبد به الرُّعب.. أما الدكتور مجدي فتهاوى على الأرض أمامه ودماء الحياة تهرب من جسده صانعة بركة صغيرة أسفل جسده النحيل.

وعلى الرغم من أن خمس عشرة دقيقة أو أكثر تبقَّت من الساعة التي حصل عليها يوسف معه، فإنه اندفع خارجًا من المكان وهو يصرخ مناديًا على الجميع بكلمات اختلطت حتى فقدت معناها، لتتكفل دماء الدكتور مجدي على وجهه وملابسه بالشرح.

وحين وصل اللواء حمدي أخيرًا، مع من وصلوا لإسعاف مجدي، كان السؤال الوحيد الذي سأله بكل ذهول الدنيا هو:

ـ ما الذي حدث هنا؟!

وهذه المرَّة كان يوسف هو من أجاب بالصمت التام.

٢

على أحد المقاعد في ممر مستشفى السجن جلس يوسف ينتظر وصول مدير التحرير.

كان جسده يرتعش بلا توقُّف، فلم يعرف يوسف ليلتها إن كان يرتعش مما رآه أم مما سمعه. لكنه كان يرتعش بصورة جذبت إليه أنظار كل الممرضات اللاتي مررن به، واللاتي لم تكد واحدة منهن تتجه إليه لترى إن كان في حاجة إلى مساعدة حتى تستوقفها نظرات عينيه الحادة التي لا ذنب له فيها.. فقط كان الطبيب مَن جرؤ على الاقتراب منه ليعلن:

ـ إنه لم يمت.

فأجاب يوسف على الفور:

ـ هذا ما أخبرني به.

ـ ماذا؟

ليفهم يوسف أنه يتحدث عن مجدي، لا عن ابنه الذي قتله، وليقول بوجوم:

ـ لا شيء.

تركه الطبيب، وعاد يوسف إلى ارتعاشه يحاول السيطرة عليه وعلى أفكاره المتواثبة في عقله، مسترجعًا كل ما مرَّ به في هذه الليلة السوداء.. الدكتور مجدي تحدَّث لأول مرَّة معه بعد صمت دام لعام أو أكثر.. لسوء حظه تحدَّث، ليكون كل ما قاله له هو أن ابنه لم يمت.. لم يمت وعلى يوسف أن يبحث عنه ويقتله!

التفسير الوحيد المنطقي لما قاله هو أنه جُنَّ.. الدكتور مجدي فقد عقله وبدأ يهذي.. هذا هو التفسير الوحيد المنطقي لما حدث الليلة، وهو تفسير يتناسب أيضًا مع محاولة مجدي الخرقاء إنهاء حياته، لكن.. لكن المشكلة أنه وفي أعماقه يدرك أن هذا التفسير ـ مهما كان منطقيًّا ـ غير صحيح.

ربما هو الصدق في صوت مجدي حين قال ما قاله.. ربما لأن نظراته لم تكن نظرات رجل فقد عقله بقدر ما هي نظرات رجل يائس يشعر بالخوف.. وربما لأنه سوء حظ يوسف لا أكثر.. المهم أن نظرية جنون الدكتور مجدي لا تبدو كافية، وأن استبعادها يفتح الباب لأسئلة لا يتمنى يوسف محاولة الإجابة عنها حتى.

هل لم يقتل مجدي ابنه حقًّا؟ أيعني هذا وجود قاتل آخر، أم أن ابنه لم يمت حقًّا كما قال؟ وإن كان لا يزال حيًّا فكيف دفنوه؟ وكيف يظل طفل تهشم رأسه بمِطرقة حديدية على قيد الحياة أصلًا؟!

لكن لا بأس.. لا بأس.

إنه غير مضطر للإجابة عن هذه الأسئلة، فمهمته هنا انتهت.. لقد التقى الدكتور مجدي وحصل منه على حوار ـ حتى لو كان هو مؤلفه.

صحيح أن ما كتبه تلوَّث بدماء الدكتور مجدي، لكنه لا يزال قابلًا للقراءة أو للتأليف من جديد.

لا بأس.

سيُنهي الحوار.. سيُسلمه لمدير التحرير الذي سينشره في العدد القادم.. وستنتهي القصة بالنسبة إلى يوسف عند هذا الحد.. نعم ستنتهي، فالدكتور مجدي لن يقرأ الحوار حين يُنشر، ولن يعترض عليه.. ما ينتظره هو أن يُنقذوا حياته الليلة ليعدموه ما إن يسترد صحته!

القصة انتهت، ولا داعي للقلق ولا للإصغاء لصوت سوء حظه في رأسه، والذي يردد بلا توقف:

ـ *لا لم تنتهِ بعد.. بل بدأت.*

ـ لا، بل انتهت. هذه المرَّة أنت مُخطئ.

ـ *عزيزي.. هل أخطأت معك من قبل؟*

يتساءل سوء حظه، فيرتجف جسده أكثر مجيبًا عن السؤال: إن سوء حظه لم يُخطئ معه من قبل، لكنه سيتمنى أن تكون هذه مرَّته الأولى.. فقط عليه أن يصمد حتى تنتهي هذه الليلة.

وصل مدير التحرير إلى المستشفى أخيرًا ليبحث عنه بعينيه، قبل أن يُسرع له وقد بدت عليه لهفة الدنيا، ليبادره:

ـ ما الذي حدث؟

فأجاب يوسف على الفور وعلى نحو غريزي تمامًا:

ـ أخبرني بأن ابنه لم يمت.

قالها ليشعر بالندم على الفور، وليتنهد سوء حظه في رأسه كمن توقع هذا، لكن مدير التحرير قال بحماس أصاب يوسف بالذهول:

ـ عظيم.. هذا مثير.. يعتقد أنه لم يقتل ابنه وحاول الانتحار.. هذا أفضل مما توقعت.. المهم.. هل أنقذوه أم لا؟

ـ أنقذوه... لكن... ما...

ـ رااااائع.. القصة لم تنتهِ إذن.. بل بدأت.

قالها فأدرك يوسف على الفور ما سيقوله بعدها، لكنه لم يستطع مقاطعة مدير التحرير الذي واصل بحماس:

ـ هكذا استعادت القضية إثارتها، وسيكون السبق لنا.. ملف القضية بالكامل معي في سيارتي، سأعطيه لك لتأخذه معك قبل أن ترحل.. أريدك أن تتفرغ تمامًا لهذه القضية.. أريد أسرارًا.. مفاجآت.. أريد ملفًّا كاملًا لأنشره عن القضية، وأريده بسرعة.. أتفهم؟

ـ لكن...

ـ يوسف، إنها فرصتك لتصبح ذا فائدة في هذه المجلة.. نفِّذ ما طلبته منك، وكما أريد تمامًا، وإلا فسأجد من ينفِّذه وفي هذه الحالة...

لم يكمل ولم يحتجْ يوسف لسماع ما سيحدث في هذه الحالة.. إنه الخصم أو الإقالة أو القتل والاغتصاب.. لذا هزَّ رأسه باستسلام تام، معلنًا الموافقة، فابتسم مدير التحرير بارتياح، ليقول:

ـ عظيم.. إنها فرصتك يا عزيزي.

قالها مدير التحرير ليلتها، فانفجر سوء حظ يوسف ضاحكًا في رأسه بسخرية.

ولو كان سوء حظه يعرف ما سيحدث له بعدها.. لو كان لديه أدنى تصور للأهوال التي سيمر بها يوسف.. لما فعل!

* * *

لم ينم يوسف ليلتها بالطبع.

على فراشه جلس وأمامه ملف قضية الدكتور مجدي يرقد يحدق فيه بصرامة، ينتظر أن يفتحه يوسف ليبدأ القراءة فيه، لكن يوسف أخذ يتحاشى النظر إليه، محاولًا تجاهل حقيقة أن دماء الدكتور مجدي لا تزال تلوث وجهه وملابسه.. وكان الارتعاش قد تخلَّى عن جسده أخيرًا ليتركه للإرهاق الذي استسلم له يوسف تمامًا، وإن لم يَكفِه لينام مع كل القرارات المتضاربة التي بدأت تتصارع في رأسه.

يمكنه الآن أن يفتح الملف ويبدأ العمل.. ويمكنه أيضًا أن يتصل بمدير التحرير ليخبره برفضه العمل في هذا التحقيق.. يمكنه أيضًا لو فعلها أن يستقيل قبل أن يقيله، بل يمكنه أن يخبره بكل ما كبحه طيلة سنوات عمله معه قبل أن يستقيل.

يمكنه أن يرغم نفسه على النوم لتصفو أفكاره، ويمكنه أن يأكل أولًا.. إنه لم يذق شيئًا طوال اليوم ـ هذا لو تجاهلنا بعض دماء مجدي التي تسللت إلى فمه مخلفة طعمًا صدِئًا فيه ـ ووجبة ثقيلة ستخرس أنين معدته، وستساعده على النوم، لكنه ـ ولسوء حظه ـ نسي أن يبتاع ما يصلح للأكل وهو في طريقه إلى المنزل، وهو يعيش على الطعام الجاهز مع فشله الدائم في طهي

وجبة قابلة للاستخدام الآدمي. إذن، لا طعام ولا نوم، ولنعد لخيارَي العمل أو الاستقالة: كشف سر جريمة الدكتور مجدي، أو نسيان اسمه تمامًا.

خيار الاستقالة يبدو مرضيًا الآن، لكن الجدار أمامه الآن يسأله: هل ستطيق التحديق فيَّ لأشهر قادمة؟

قرر يوسف أن يُجرِّب، ليبدأ التحديق في الجدار الذي بادله النظرات بثبات لا يتزحزح، وبعد ساعة كاملة انتصر الجدار، ومدَّ يوسف يده ليلتقط ملف جريمة الدكتور مجدي، وفتحه ليجد صورته في انتظاره.. تلك الصورة التي يبدو فيها مبتسمًا واثقًا كأي أستاذ تاريخ في جامعة يعيش حياة طبيعية، ولديه ابن برأس يعيش معه تحت ذات السقف.. صورة لرجل لم يعرف حين التُقطت له أنه سيُنهي حياته بالإعدام لأنه قتل ابنه الوحيد بمِطرقة.

أزاح يوسف الصورة جانبًا ليجد صورة الابن أسفلها، فانتفض رغمًا عنه.. ففي الصورة أمامه كان طفل في العاشرة من عمره، ينظر إليه مباشرة من دون أن يبتسم أو أن تبدو عليه تلك الملامح الطفولية التي لك أن تتوقعها من طفل في العاشرة. لا.. مَنْ كان في الصورة أمامه كان ينظر بجدية تليق برجل بالغ، وكان شاحبًا بشدة ومن دون سبب.

وجه أبيض تمامًا، انسدل عليه شعر أسود فاحم طويل، أسفله عينان تحملان نظرة لم يُطقها يوسف، ليزيح الصورة على الفور ويبدأ قراءة أوراق القضية.

الساعة الآن الثالثة والنصف صباحًا، وما سيقرأه الآن سيحسم سؤاله: هل سيقبل بالعمل على هذا التحقيق.. أم لا؟

* * *

في تمام السادسة صباحًا كان يوسف قد انتهى من كتابة استقالته.

قرأها ليتأكد من أنها تخلو من الأخطاء النحوية والإملائية، ثم مزقها، وأغلق ملف القضية، وقد أدرك أنه سيبدأ العمل على التحقيق؛ استجابة لفضوله الذي قتل قططًا لا حصر لها من قبل، لكن.. لكن عليه أن ينام الآن.. وحين يستيقظ سينطلق إلى هناك.

إلى شقة الدكتور مجدي.

٣

أخبرتك بأن يوسف خليل بلا أصدقاء، لكن علاقات العمل ليست بصداقات، ولو كنت تظن أنها كذلك فأنت ساذج!

لن أقنعك بوجهة نظري الآن، بل سأعرِّفك أحد مَن يرتبط بهم يوسف بعلاقة عمل، وهو المُقدِّم عصام فتحي.

يعمل في المباحث هو، لذا لك أن تتذكر كل التصورات الساذجة التي يظهر بها ضباط المباحث في الأفلام والروايات، لتجد أنها تنطبق على عصام تمامًا: إنه مزعج؛ يتحدث دومًا بنبرة عالية كأنه يخطب في جماهير لا يراهم سواه. مغرور؛ يؤمن بأن أمن البلاد والعباد متوقف على مجهوده الفردي. ثرثار ولديه قناعة بأنه لا ينطق عن هوى، وأن كل ما يخرج من فمه هو حِكَمٌ على الأجيال تذكرها وترديدها وراءه في خشوع.

ولأنه مُقدِّم في المباحث فهو مصاب بهوس الظهور الإعلامي حتى لو كان هذا الظهور يتمثَّل في نشر صورته في مجلة اسمها «المجلة». ولأن يوسف هو محرر صفحة الحوادث في هذه المجلة فقد قرر عصام

أنه مفيد، وأنه يستحق أن يتبرع له بساعات لا تنتهي من وقته الثمين، كلما جاءه يوسف ليطلب منه خبرًا أو ليستفسر عن تفاصيل جريمة ما، وهي مهمة لا يقوم بها يوسف إلا نادرًا.

واليوم، على يوسف أن يستعين به ليدخل شقة الدكتور مجدي.. مسرح الجريمة، كما صحح له عصام، قائلًا:

ـ لم تعد شقة.. إنها مسرح الجريمة، وستظل كذلك إلى أن ينفذوا حكم الإعدام في مجدي.. بعدها ستتحول إلى شقة من جديد، وستتسلمها الدولة إن لم يظهر للدكتور مجدي وريث.

فأجاب يوسف:

ـ ما أعرفه أنه لا أقارب له.. وابنه الوحيد قتله.. إذن...

ـ إذن فهي حلال لنا.. لكن أخبرني.. لماذا تريد رؤيتها؟

حكى له يوسف ما حدث باختصار من دون أن يذكر له تفصيلة أن الدكتور مجدي أخبره بأن ابنه لا يزال حيًّا، وأن عليه أن يبحث عنه ويقتله، فهزَّ عصام رأسه متصنعًا الفهم، ليقول:

ـ مفهوم.. مفهوم.. سآخذك إلى هناك بنفسي.

ـ لا داعي.. فقط أرسل معي مَن يفتح الشقة و...

ـ أخبرتك بأنها مسرح جريمة.. ولا يمكن لأحد أن يفتحها سواي.. أين كاميرتك؟

ـ معي.

ـ إذن.. هيا بنا.

انطلق معه يوسف إلى هناك حاملًا حقيبته التي تحوي ملف القضية، وكاميرته التي نسي أن يضع فيها بطاقة الذاكرة، لكنه كان بالذكاء الكافي فلم يذكر هذه التفصيلة للمُقدِّم عصام الذي قال قبل أن يخرجا من مكتبه:

ـ فقط عليَّ أن أُخبرك بأن مسرح الجريمة هذا يختلف عن أي مسرح جريمة رأيته في حياتي.. مختلف تمامًا.

ـ كيف؟

ـ سترى بنفسك.

* * *

الواقع أن المُقدِّم عصام لم يكن مخطئًا حين أخبر يوسف بأن مسرح جريمة الدكتور مجدي كان مختلفًا. فما إن دخل يوسف الشقة حتى شعر ببرودة عجيبة تسري في جسده، على الرغم من حرارة الجو في هذا اليوم، فارتجف ولاحظ عصام ارتجافته ليبتسم قائلًا:

ـ كل مسارح الجريمة باردة يا عزيزي.. إنها برودة الموت.. لكن هذا لن يكون أغرب ما ستراه اليوم.

فتجاهل يوسف حكمته، وتقدَّم داخلًا الشقة ليبدأ تأملها باهتمام لم يشعر به تجاه أي قضية نشرها من قبل، وليجد أنه يقف في شقة عادية تمامًا تليق بأستاذ تاريخ أرمل: أثاث عتيق لكنه أنيق في الوقت ذاته.. مكتبة هائلة تغطي أحد الجدران، مليئة بكتب ذات عناوين ثقيلة لا تشجع على القراءة إلا لو كنت من عشاق التاريخ.. أثر خفيف لطابع أنثوي رحل عن

المكان منذ زمن.. صورة زفاف مُعلَّقة لمجدي مع زوجته الراحلة يبتسمان فيها بسعادة وهما في أوج شبابهما، بينما على إحدى الطاولات استقرت صورة أخرى لهما في برواز، وقد وقف بينهما هذه المرَّة طفلهما بوجهه الشاحب وتلك النظرة الجادة العجيبة في عينيه.

شقة عادية تمامًا لا يميزها إلا بقعة داكنة على أحد الجدران، اقترب منها يوسف وقد بدا عليه الفضول، لكن عصام أشار إلى إحدى الغرف، مناديًا:

ـ ما الذي تنتظره؟

فأدرك يوسف على الفور أنه يشير إلى غرفة نوم الطفل، ليتجه إليها وليقف أمام بابها ينتظر أن يفتحه عصام الذي قال بدرامية:

ـ والآن، أصغِ إليَّ جيدًا.. ما ستراه الآن غير صالح للنشر مهما كان السبب.. أكرر.. مهما كان السبب.. كل ما ستراه في الداخل ستحتفظ به لنفسك، ثم يجب أن تنساه إلى الأبد.. يعلم الله أنني ما زلت أحاول نسيانه، وأنه لولا واجبي لما دخلت معك الآن لأراه من جديد.. لكن يجب أن أدخل معك.. يجب.. فربما لن تتحمل ما ستراه.

فانتظره يوسف بملل واضح حتى انتهى، ليقول بهدوء:

ـ أنا مستعد.

ـ أشك.. لكن...

قالها عصام وفتح الباب بحركة سريعة كاشفًا عن مسرح الجريمة ليوسف الذي رأى أخيرًا ما حدث بالفعل في هذه الغرفة.

والواقع أن عصام كان محقًّا في قوله.. فما حدث هو أنه فتح باب

الغرفة فرأى يوسف ما في داخلها.. شهق بعنف وانتفض جسده رعبًا.. ثم تهاوى على الأرض فاقدًا الوعي!

* * *

وحين استيقظ يوسف كان لا يزال في شقة الدكتور مجدي، وكان عصام يربت على خده بقوة مرددًا:

- استيقظ.. استيقظ.. استيقظ!

تأوَّه يوسف ليتوقف عصام عن صفعه، وتراجع قائلًا:

- أخبرتك بأنك لن تتحمل ما ستراه.

تذكَّر يوسف ما رآه على الفور، وانتفض من جديد، ليعتدل جالسًا وقد تبدَّت في عينيه نظرة رعب وعدم تصديق رآها عصام، ليهز رأسه قائلًا:

- أعتقد أن علينا الرحيل.. لقد رأيت ما يكفيك و...

- لا.

قاطعه يوسف بلهفة لم يفهم هو نفسه سِرها، وجاهد ليسيطر على رجفته، مردفًا:

- يجب أن أدخل الغرفة ثانية!

- ما ينتظرك في الداخل لا يقلُّ بشاعة عمَّا رأيته بالفعل.. الأفضل أن نرحل الآن ونذهب إلى مكان آخر لـ...

- يجب أن أدخل الغرفة!

كرر يوسف بإصرار وهبَّ واقفًا محاولًا ألا يترنح أو يرتجف خوفًا أمام عصام الذي هزَّ كتفيه باستسلام، ليقول:

ـ كما تشاء.

ثم أشار إلى باب الغرفة الذي أغلقه بعد أن جرَّ يوسف الفاقد الوعي إلى خارجها، فاتجه يوسف إليه وأمسك بالمقبض ليغلق عينيه لحظة مترددًا، قبل أن يفتحهما ليفتح الباب من جديد، ليجد ذات ما أفقده الوعي سابقًا في انتظاره يتحدَّاه من جديد.

هذه المرَّة لم يفقد يوسف الوعي، لكنه انتفض رغمًا عنه. انتفض وتقلَّصت معدته الخاوية بعنف حمد الله معه أنه لم يتناول أي طعام منذ الأمس، وإلا لكان سيفرغه الآن على أرض الغرفة.

صحيح أن ما كان أمامه لا يصلح للنشر فعلًا، لكني سأخبرك به لنتفق على حقيقة ثانية بالغة الأهمية، وهي أنه كان على يوسف التوقف عند هذا الحد.

كان عليه أن يرى ما في الغرفة ليُسرع هاربًا من الشقة ومن القضية ومن مجلة «المجلة» ذاتها. كان عليه أن يستقيل وأن يقضي ما تبقَّى له من عُمر في شقته يحدق في جدرانها. ولو فعل.. لكان سيفقد عقله فقط!

لكن يوسف سيِّئ الحظ حقًّا.. سيِّئ الحظ أكثر مما تصور بكثير.

* * *

في البداية عليك أن تتخيل غرفة طفل في العاشرة من عُمره.

الغرفة صغيرة بالطبع؛ فمدرسو التاريخ في بلدنا ليسوا بالثراء الذي قد

تتخيله.. هناك فراش صغير وخزانة ملابس متماثلا التصميم، لكنه تصميم طفولي تزينه ألوان مبهجة لم تعد كذلك.. هناك أيضًا صندوق ألعاب على الأرض بجوار الفراش يبدو أنه لم يُمس قطُّ، وهي نقطة لم يتوقف عندها يوسف طويلًا.. نظرات الطفل الجادة العجيبة لا تُوحي بأنه كان ممن يلعبون بألعاب الأطفال.. وكانت هناك الدماء التي غطت هذا كله بغزارة غير مسبوقة.

دماء على الفراش.. دماء على خزانة الملابس.. دماء على صندوق الألعاب وعلى الجدران.. دماء على الباب.. دماء على كل شيء.. كل شيء.

دماء أكثر بكثير ممَّا قد يحويه جسد طفل في العاشرة من عُمره، لكن حتى هذه النُّقطة لم يتوقف عندها يوسف طويلًا، بل كان ما توقف أمامه يرتجف ويحدق فيه بمزيج من الذهول والرُّعب هو وجه الطفل الذي انغرس في الجدار أعلى فراشه!

وجه يبدو كأن رجال المعمل الجنائي قد جاهدوا لانتزاعه من الجدار، لكنَّ بقاياه ظلت هناك مغروسة في الجدار، كأنها نُحتت هناك.. وجه طفولي قُدَّ من العظام الصخر والدم، بعينين جادتين بادلتا يوسف النظرات، ليأخذ جسد يوسف في الارتجاف بصورة دفعت عصام لأن يقول:

ـ لن يمكنك التقاط صورة للوجه.. لن تكون صالحة للنشر، ولن يريد أحد أن يراها.

فتساءل يوسف ما إن استعاد صوته:

ـ كيف؟

يشرح عصام متحاشيًا النظر إلى الوجه المخيف:

ـ الدكتور مجدي لم يقتل ابنه وهو نائم كما يظن الجميع.. لا.. ابنه كان مستيقظًا.. مستيقظًا ويقف على الفراش حين انهال مجدي بالمِطرقة على وجهه، لكن ولسبب ما لم تتهشم عظام رأسه في البداية، بل انغرست في الجدار من خلفه.. انغرست.. فواصل مجدي الطَّرق عليها بالمِطرقة إلى أن أصبحت جزءًا من الجدار كما ترى، و.. وبالله عليك كيف ظل الطفل واقفًا يتلقَّى كل هذه الضربات؟!

ثم هدأ قليلًا ليختلس نظرة إلى الوجه وليرتجف هو الآخر، قبل أن يواصل:

ـ حاولنا كثيرًا انتزاع رأسه من الجدار لكننا لم نستطع.. الحل الوحيد كان انتزاع الجدار ذاته أو.. أو فصل رأسه عن جسده.. المشكلة أن هذا الجدار بالذات هو واحد من قوائم المنزل الرئيسية، ولا يمكن المخاطرة بتهشيمه، لذا اضطررنا إلى.. إلى...

قالها فلم يستطع يوسف أن يجد في حلقه صوتًا يتساءل به.. فقط وقف مكانه وقد عاد الدوار إلى رأسه، ليترنح من جديد، وليقول عصام هذه المرَّة بلهجة لا تقبل النقاش:

ـ لقد رأيت ما يكفيك.. هيا بنا!

ثم اقتاد يوسف خارجًا به من الغرفة، ليغلقها من ورائه بإحكام كأنه يخشى أن يسمح بخروج شيء ما منها، قبل أن يلتفت إلى يوسف قائلًا:

ـ الآن أنت تعرف سر ما حدث هنا.. لكن هذا ليس بأغرب شيء رأيناه في هذه الجريمة.. هناك تلك البقعة مثلًا.

وأشار إلى البقعة الداكنة في جدار الصالة، فالتفت يوسف إليها وقد تذكرها لتبدو عليه الحيرة، وليشرح عصام:

ـ أخذنا عينة منها لنجد أنها دماء الطفل.. والسؤال الآن هو: كيف وصلت دماء الطفل إلى هذا المكان مع أنه قُتل في غرفته؟ البقعة أكبر من أن تكون يدا الدكتور مجدي الملوثتان بدمائه قد سببتاها.. ولو ربطت بين هذه البقعة وبين شهادة الشهود الذين قالوا إنهم سمعوا ضحكات الدكتور مجدي، فصراخه، فستجد أن الاحتمالات القابلة للتصديق أمامك مخيفة حقًّا.

أكمل يوسف مأخوذًا وقد فهم ما يقصده:

ـ كأن الطفل خرج من الغرفة ليترك هذه البقعة.

ـ وهذا مستحيل تمامًا.. لقد كان جسده يتدلَّى من رأسه المغروس في الجدار، فكيف خرج؟ وإن لم يخرج فكيف بلغت دماؤه هذا الجدار؟ ولماذا صرخ الدكتور مجدي؟ ما الذي رآه ودفعه إلى الصراخ وهو الذي كان يضحك وهو يهشم رأس طفله بمِطرقة؟ هذه أسئلة ستظل بلا إجابة، وصدقني.. لن أحاول أن أجيب عنها مهما كان السبب.

استغرق يوسف في صمت خيَّم على المكان الذي اشتدت برودته فجأة من دون سبب مفهوم، حتى قال عصام أخيرًا:

ـ لنخرج من هنا.. لم أعد أتحمَّل البقاء.

فلم يعارضه يوسف، ولم يجد مبررًا واحدًا ليفعل.. فقط سأله حين خرجا من الشقة أخيرًا:

ـ بالمناسبة.. لم أعرف اسم ابن الدكتور مجدي من كل أوراق القضية التي قرأتها.

ـ هذا لأننا لم نعرفه.. لم نجد ورقة واحدة تذكر اسمه، والدكتور مجدي لم ينطق باسمه طيلة التحقيقات، على الرغم من كل محاولاتنا لانتزاع الاسم منه.. يوسف.. يا عزيزي.. هذه القضية ملعونة، وإنه لمن سوء حظك أن تُكلف بالتحقيق فيها.

ابتسم يوسف ابتسامة ساخرة مريرة، ليجيب:

ـ لهذا كُلِّفتُ بها.

* * *

وعلى الرغم من كل ما رآه يوسف يومها، فإنه قرر مواصلة العمل في التحقيق.

لن يمكنني تفسير هذه النقطة أبدًا، ولا يمكننا أن نكتفي بسوء حظه كتفسير مُقنع لقراره.. لكننا لن نتوقف طويلًا أمام هذه النقطة، ولن نضيِّع فيها وقتنا، فمبررات التوقف لم تنتهِ عند هذا الحد كما سترى لاحقًا، ولنكتفِ بالقول إن ليوسف غريزة «عدم بقاء» ستؤدي به إلى حتفه إنْ عاجلًا أو آجلًا.

سأواصل الآن ما حدث يومها لأخبرك بأنهما عادا إلى مكتب عصام الذي فقد رغبته الدائمة في الثرثرة ليطلب منه يوسف نسخة من تقرير المعمل الجنائي.. منحه إياها عصام وهو يقول:

ـ خذها، لكن لا تذكر حرفًا مما ستقرأه فيها.. كما اتفقنا.. هذه أشياء غير صالحة للنشر.

فلم يناقشه يوسف ولم يخبره بأنه طلب منه هذه النسخة لنفسه لا للتحقيق الذي لا يعلم إلا الله كيف سيكتبه في النهاية، وهو لا يتوقع أن يمنحه تقرير المعمل أكثر مما رآه، لكنها التفاصيل الصغيرة التي تمنحك الحقيقة في النهاية، ويوسف ـ مع الأسف ـ يريد أن يعرف الحقيقة.. يريد أن يفهم.

لقد زار مسرح الجريمة ورأى الهول وحصل على التقرير، والآن عليه أن يتعرَّف على عالم الدكتور مجدي أكثر.

إذن الخطوة التالية المنطقية هي...

٤

كانت الساعة قد جاوزت الواحدة والنصف ظهرًا حين عبر يوسف بوابة جامعة عين شمس ليشعر على الفور بالعزلة التي عاناها في سنوات دراسته، والتي لم تفارقه حتى يومنا هذا قطُّ.. شعر بها وتذكرها.

تذكَّر نادية.

نعم لم يمتلك يوسف يومًا أي موهبة اجتماعية تورطه في أي علاقة مع سائر البشر، لكنه يملك قلبًا لا سيطرة له عليه.. قلبًا مرَّ بمرحلة المراهقة وخفق لأول مرَّة حين رآها تخرج من المدرج تضم حقيبتها إلى صدرها، وتوزِّع ابتساماتها للجميع من دون أن تنتظر منهم شيئًا.. حتى هو لم تبخل عليه بابتسامتها، ولم يرد هو عليها أبدًا سوى بنظراته المرتبكة وباللهفة في عينيه.

لم تكن نادية أجمل فتاة رآها.. ولم تكن أكثر فتيات الجامعة شعبية ولا مرحًا.. لم تكن أكثرهن ذكاء كذلك، ولم تكن ملاكًا يطفو على سطح الأرض، لكنها كانت هي.

كانت نادية، وكان هذا يكفيه تمامًا.

لم يحاول أن يقترب منها قطُّ كأنه يخشى أن يحترق لو فعل.. بل إنه وعلى مدى أربع سنواتٍ دراسةٍ لم يتبادل معها ثلاث كلمات كاملة، لكنها كانت دومًا تمنحه ابتسامتها، ليخفق قلبه صارخًا فيه يرجوه أن يصل إلى قلبها بأي طريقة، فلم يفعلها أبدًا.. كان يعرف سوء حظه، ويثق به أكثر من أن يخاطر بالمحاولة.. وكان يخشى أن يفقد ابتسامتها لو حاول.

ولقد فقدها بالفعل بعد أن انتهت سنوات دراسته، ليتوقف عن رؤيتها، وليتوقف قلبه عن الخفقان.. وإلى الأبد.. وها هو الآن يخطو في الحرم الجامعي الذي لم يزره منذ أن تخرَّج، ليجد نفسه يبحث عنها بعينيه في وجه كل فتاة تمر به، واثقًا في أنه لن يراها من جديد.

لكن لا بأس.

إنه ليس هنا من أجلها.. إنه هنا من أجل الدكتور مجدي الذي غرس رأس طفله في الجدار بمِطرقة ثقيلة.. غرسه لكنَّ دماءه خرجت ـ بوسيلة ما ـ من غرفة نومه إلى الصالة تاركةً بقعة داكنة على الجدار، وأسئلة لا نهاية لها ولا إجابات، ومن أجل مطلب وحيد طلبه منه الدكتور مجدي قبل أن يحاول قتل نفسه: ابحث عن ابني.. ولو عثرت عليه.. فاقتله.

لكن المطلوب منه أولًا هو أن يجد من يعرف الدكتور مجدي جيدًا، ليحكي له حكايته حين كان لا يزال أستاذ تاريخ ذا شعر مصفف بعناية ووجه باسم لا يشي بسنوات عمره التي تجاوزت الخمسين.. حين كان

أبًا ولابنه رأس يستقر على جسده، لا في الجدار في غرفة نومه التي يسميها عصام الآن مسرح الجريمة.

تلك الحكاية التي ما كان ليوسف أن يعرفها أبدًا.

* * *

والمشكلة التي يعانيها أي صحفي في مصر هي تعدد المصادر وتضاربها كنتاج طبيعي للهوس بالظهور الإعلامي.

فبمجرد أن بلغ يوسف قسم التاريخ في كلية الآداب في الجامعة، وجد أن الكل هناك يعرفون الدكتور مجدي، وكانوا من المقربين له وممن يختصهم بأدق أسراره، وجميعهم يعرفون عن قضيته ما لم تنشره الصحف ـ وما لم يحدث على أرض الواقع ـ وكلهم صبُّوا في أذني يوسف سيلًا لا نهاية له من هراء أصغى هو إليه في صبر، باحثًا طيلة الوقت عن الشخص الوحيد الذي لن يتطوع بنثر لعابه وأكاذيبه في وجهه.

إنها القاعدة التي عليك أن تتذكرها دومًا لو قررت العمل كصحفي في أحد الأيام.. الحقيقة ستجدها عند من يتحاشونك.. هؤلاء الذين يعرفون أكثر من اللازم ويخشون أن تورِّطهم معرفتهم هذه بصورة أو بأخرى لو عرفت مَن هم واستطعت أن تحل عقدة ألسنتهم.

ستعرف كل ما تريده وأكثر.

وفي حالة يوسف هذه كان الوحيد الذي تجنبه هو الأستاذ قدري، الذي تقلص وجهه حين عرف أنه صحفي، قبل أن يعلن أن لديه محاضرة لا تتحمل التأجيل، ليسرع مبتعدًا تاركًا يوسف الذي أدرك على الفور أنه سيجد عنده مبتغاه.. فقط عليه أن يستمع أولًا، لكن من أخذوا يرددون

حكايات من نوعية: «لقد كان الدكتور مجدي شرسًا عنيفًا طيلة الوقت»، و«إنها الخمر التي دمرت حياته»، قبل أن يلتقط لهم بعض الصور بكاميرته التي لا تحوي بطاقة ذاكرة، لينجو منهم في النهاية وليقف أمام المدرج الذي يُلقي فيه الأستاذ قدري محاضرته ينتظر أن تنتهي.

المحاضرات عادةً ما تمتد لساعة أو ساعتين على الأكثر، لكن، ولأن يوسف هو من ينتظر هذه المرَّة، امتدت المحاضرة لثلاث ساعات كاملة، قبل أن يفتح باب المدرج أخيرًا، ليخرج منه الطلبة كأنهم ينجون بأنفسهم من حريق مدمِّر، يتبعهم الأستاذ قدري الذي ما إن رأى يوسف ينتظره حتى تقلَّص وجهه ثانية ليقول:

ـ لا يوجد لديَّ ما أقوله.. أرجوك لا تضيِّع وقتي.

فقرر يوسف استغلال الكارت الوحيد الذي يملكه ليستثير اهتمامه، ليجيب:

ـ الدكتور مجدي أخبرني بأن ابنه على قيد الحياة.

فانقلب تقلص وجه الأستاذ قدري إلى ذهول دام للحظات، قبل أن يمسك بيوسف قائلًا:

ـ سنتحدث في مكتبي.

فتركه يوسف يقتاده إلى حيث سيحكي له الحقيقة.. أو ما يعرفه عنها.

* * *

لم يكن الأستاذ قدري من مواليد القاهرة، ولا من محبيها، وكان هذا باديًا في كل خلجة من خلجات وجهه. لهاثه المستمر وعرقه الذي

يتصبَّب على وجهه بلا توقف، ونظرة الاختناق من زحام المدينة وصخبها تطل من عينيه بلا توقف.. إنه رجل ريفي ولِد وترعرع في قرية اعتاد فيها المساحات الخضراء الشاسعة والهواء النقي والخضار الطازج ومياه «القُلل» الرطبة دومًا، لكنه حارب ودرس وعمل باجتهاد طوال حياته لينزح إلى القاهرة، وليتزوج فيها بامرأة لا تطيق قريته ذات الاسم المخجِل، من وجهة نظرها، حاكمة عليه بالبقاء سجينًا هنا، فلم يتبقَّ له من أصوله إلا ذكريات طفولته البسيطة وتلك اللكنة الريفية المحببة في لسانه.. رجل يعيش أيامه «بالطول والعرض» ـ كما يقولون ـ ويدرك أنه بلغ من العمر ما لن يكفيه ليعترض أو أن يحاول البدء من جديد.. رجل وقته محدود، وقد قرر الآن اقتطاع جزءٍ منه ليمنح يوسف إياه، والذي عزف على الوتر الصحيح لجذب انتباهه.

هكذا جلس أمامه يلهث ويتصبَّب عرقًا، وهكذا سأله عمَّا سيشربه مدفوعًا بطباعه الريفية، فأجابه يوسف على الفور، وعلى الرغم من أنه يعاني ارتجاعًا في المريء وأنه لم يذق طعامًا صلبًا منذ يومين:

ـ قهوة.. أكبر فنجان قهوة ممكن لو سمحت.

كان يعرف أن معدته الخاوية ستدفع الثمن لاحقًا، لكنه كان يحتاج إلى القهوة حقًّا.. من دونها سينام على مقعده وسيخسر فرصته الوحيدة في معرفة أي شيء حقيقي عن الدكتور مجدي وقضيته.. لذا انتظر حتى أحضر له الساعي ما سيُذيب جدار معدته، وأخذ منه رشفة، قبل أن يقول:

ـ لقد التقيت الدكتور مجدي ليلة أمس.. زرته في السجن وتحدثت معه.

فسأل قدري بلهفة:

- وهو.. هل تحدث معك؟

- أخبرني بما أخبرتك به.. أن ابنه لا يزال على قيد الحياة.

- فقط؟

تردَّد يوسف قبل أن يهز رأسه بأن «نعم»، مقررًا أنه لا داعي لذكر معلومة أن عليه أن يجد ابنه هذا ليقتله الآن، ليبدو الإحباط على قدري، وقد أيقن أن الدكتور مجدي قد سقط ضحية لقسوة القاهرة التي لا ترحم:

- لقد فقد عقله إذن.. هذا ما توقعته.. مع الأسف!

- ربما.. لكني هنا لأعرف قصته قبل أن يحدث هذا كله.. لأعرف حقيقته.

فتنهد قدري وبدأ:

- لن أضيِّع وقتك في تفاصيل لا داعي لها.. الرجل كان طبيعيًّا تمامًا طيلة الفترة التي عرفته فيها.. رجلًا يعشق التاريخ ويدرسه كما يدرِّسه.. زوجته أيضًا كانت تعشق التاريخ، لكنها كانت تعمل مترجمة متخصصة في اللغات القديمة المندثرة.. والاثنان كانا يعيشان حياتهما بين الكتب والمراجع، فلم يكن لهما سواها، خصوصًا أن.. أن زوجته لم تكن قادرة على الإنجاب.

- لم تكن ماذا؟!

- هذه معلومة لا يعرفها الكثيرون.. أمام الكل كانا يرددان أنهما لا يملكان وقتًا للأطفال، لكني كنت أعرف الحقيقة.

فتساءل يوسف بذهول استحقه:

ـ لكن.. كيف أنجبت إذن؟

ـ لم تنجب بالطبع.. هذا الطفل كان ابنهما بالتبني.. ما حدث هو أن مجدي حصل على إجازة وسافر إلى روسيا ليزور المواقع الأثرية هناك، وظل هناك حتى انقطعت أخباره قبل أن يظهر فجأة ليخبرني بأنه عاد، وأنه تبنَّى طفلًا عثر عليه في إحدى دور الأيتام هناك.. أخبرني بأنه كان الحل الوحيد أمامه، وأنها رغبة زوجته.

ـ وهل رأيت طفلهما هذا؟

فعاد وجه قدري يتقلَّص.. لكن خوفًا هذه المرة، مجيبًا:

ـ رأيته.. زرتهما أنا وزوجتي بعد عودتهما بأشهر، ورأيناه، وقضينا بعض الساعات هناك، لكننا لم نكد نخرج من منزلهما حتى أخبرتني زوجتي بأنها لم تشعر بذرة ارتياح تجاه طفلهما، ثم أخبرتني بأنها لا تريد رؤيته ثانية مهما كان السبب، فلم أجادلها.. مثلها شعرت بشيء غير طبيعي تجاه هذا الطفل.. شيء لا يمكنني تفسيره، لكني واثق فيه.

ـ نظراته؟

ـ أرأيتها؟ أيُّ طفل يطلق بعينيه هذه النظرات؟ دعك من أن مجدي ذاته كان يشعر بأن هذا الطفل لم يكن طبيعيًّا لدرجة أنه قرر عرضه على خبيرة في طب الأطفال لتتفحصه.

فسأله يوسف بحاسة الصحفي التي بدأت تنمو في أعماقه:

ـ ما اسمها؟

ـ الدكتورة ليلى فاروق.. معي عنوان عيادتها.. أرجو ألا أكون قد تخلَّصت منه.

وعبث في أدراج مكتبه للحظات قبل أن يخرج بطاقتها ليناول يوسف إياها، مردفًا:

ـ لا أعرفها شخصيًّا، لكني أعرف أنها لم تحرزْ أيَّ تقدم مع ابن مجدي، وأن مجدي توقف عن زيارتها ما إن تُوفيت زوجته.

ـ أكانت وفاة طبيعية؟

ـ أتمنى هذا.. لكنها على الأقل لم تمت مهشمة الرأس بمِطرقة.. المهم أنها ماتت وتركت مجدي وطفلهما العجيب وحدهما، ومن بعد وفاتها بدأ مجدي في التغير حقًّا.. أخْبِرْني أولًا.. أأنت من المهتمين بالتاريخ؟

ـ لا.

ـ خمنت هذا.. الأغلبية يكرهون قراءة التاريخ لأنهم حمقى. المهم.. الدكتور مجدي كان متخصصًا في الحضارات القديمة، وهو تخصص صعب مع ندرة مصادره وتضاربها، لكنه كان يعشقه.. جرِّب أن تقضي سنوات من عمرك تحاول فك طلاسم مخطوطة ما لتثبت أنها تنتمي إلى عصر محدد، وستدرك مدى صعوبة ما كان يفعله طيلة عمره حتى تُوفيت زوجته.. بعدها قرر مجدي فجأة دراسة التاريخ كله.

ـ كله؟!

ـ كله.. وهي حماقة لا شك فيها.. إنه المستحيل ذاته أن تدرس كل شيء عن كل حدث وكل حضارة وكل ثقافة في تاريخ البشرية منذ بدايتها حتى وقتنا هذا.. أخذ مجدي إجازة مفتوحة من الجامعة، وابتاع بكل ما يملك طنًّا من الكتب والمراجع والأبحاث والمخطوطات، وانعزل في منزله يحاول أن يدرس هذا كله بلهفة مَنْ يوقن أن عمره ـ ولو امتد إلى عشرات السنوات ـ لن يكفيه لإنهاء واحد في المائة ممَّا يحاول فعله.. في البداية ظننت أنه رد فعل طبيعي لفقدان زوجته.. وأنه يحاول أن يملأ الفراغ الذي تركته في حياته من دون جدوى.. لكن وفي هذه الحالة كان المفترض أن ينتابه هذا الهوس لفترة ثم يخرج منه ليواصل حياته الطبيعية وليربي ابنه غريب الأطوار.

ـ لكنه لم يفعل؟

ـ مع الأسف نعم.. صحيح أنني لم أعارضه في البداية، إلا أنني شعرت بالقلق بعد أن مرَّت أشهر طويلة من دون أن يخرج من مكتبه، فقررت زيارته بمفردي هذه المرَّة، وواجهته محاولًا إخراجه من حالته هذه، فرفض.. وأخبرني بشيء لم أفهمه أبدًا.

وصمت للحظة استرجع فيها ما سمعه ليقول:

ـ أخبرني بأنه المسؤول عن وفاتها.. وأنه يجب أن يجد نهاية لهذا كله.

ثم أردف:

ـ لم أخبر أحدًا بما قاله لي يومها.

طال صمته هذه المرَّة، فلم ينطق يوسف بحرف؛ محاولًا استيعاب ما سمعه.. وحين يَئِس من العثور على تفسير منطقي قال:

ـ إذن وفاة زوجته لم تكن طبيعية.

ـ ربما.. لكن لن يمكنك أن تثبت هذا أبدًا.. دعني أخبرك بشيء ما عن الطريقة التي ماتت بها زوجته.. في البداية أصيبت بفشل كلوي لا سبب له.. ثم توقف كبدها عن العمل فجأة، ثم فقدت السمع والقدرة على تحريك أطرافها.. ثم في النهاية توقف قلبها ليستيقظ مجدي في أحد الأيام ويجدها جثة هامدة ترقد بجواره.. والآن حاولْ معي أن تبحث عن تفسير منطقي لإصابتها بهذا كله في أسبوع واحد لا أكثر.

ـ !!!

ـ لن تجد تفسيرًا مهما حاولت، ولن تجد شبهة جنائية كذلك.. لكن الأسئلة لا تزال مطروحة أمامنا: كيف ماتت زوجته بالضبط؟ ألهذا علاقة بطفلهما الغريب؟ لماذا قرر مجدي دراسة التاريخ كله بعد وفاتها؟ وفي النهاية يأتي السؤال الأهم: لماذا قتل ابنه بهذه الطريقة البشعة؟

تراقصت الأسئلة في عقل يوسف لتضاف إلى أسئلته، وليشعر بأن رأسه سينفجر.. ومن وسط كل الأسئلة تصاعد صوت سوء حظه يعلن:

ـ *الآن يمكنك أن تتصل بمدير التحرير لتخبره بأنك ستتوقف عن العمل.. لم يعد لديك مبرر للمواصلة.*

فهزَّ يوسف رأسه مؤمِّنًا، ثم وقف ببطء معلنًا أنه انتهى ممَّا أتى من أجله، فابتسم قدري ابتسامة من توقع رد فعله ليقول:

ـ لو أردت نصيحتي.. حاول أن تنسى الدكتور مجدي وكل شيء يتعلق

بقضيته.. لن تجد إجابات معه ولن تفيده بشيء في النهاية.. سيُنفذ حكم الإعدام فيه قريبًا وستنتهي قصته عند هذا الحد، ولو كان هناك شيء تعلمته من كل السنوات التي درست فيها التاريخ فهو: هناك أشياء تحدث بلا تفسير، فلا تضيِّع عمرك محاولًا البحث عن شيء لا وجود له.

فقال يوسف:

ـ لن أحاول.. آسف على تضييع وقتك!

وهمَّ بالرحيل.. لكن الأستاذ قدري استوقفه متسائلًا:

ـ ما الذي دفعك للبحث وراء الدكتور مجدي منذ البداية؟

هنا ابتسم يوسف رغمًا عنه ليجيب:

ـ سوء حظٍ لا أكثر.

ثم خرج من المكان وقد قرر أنها نهاية علاقته بالقصة كلها.

* * *

لكنه لم يكن قراره عند هذه المرحلة.

القصة لم تنتهِ منه بعد وهو اقترب أكثر من اللازم حتى لو لم يدرك هذا بعد.. لهذا خرج يومها من قسم التاريخ في مبنى كلية الآداب، ليجدها تقف تنتظره.. طالبة نحيلة مثله، لكنها تبدو أكثر آدمية، وعلى درجة من الجمال، وقد تبدَّى في عينيها مزيج من اللهفة والتوتر والقلق حين سألته:

ـ أنت الصحفي الذي أتى ليسأل عن الدكتور مجدي؟

ـ نعم.. لكني حصلت على ما أريده و...

ـ أنت لم تعرف شيئًا بعد.

ـ بل عرفت ما يكفيني وأكثر.. ولم أعد أ...

قاطعته ثانية بإصرار:

ـ ابنه على قيد الحياة فعلًا.. ويجب أن نجده قبل فوات الأوان.

ـ !!!

٥

في ذلك الكافيه القريب من الجامعة جلس يوسف يستمع إلى ما ستقوله الطالبة النحيلة، وإلى أنين معدته وهو يحتسي فنجان قهوة جديدًا.

اسمها سوسن، وهي تتلفت طيلة الوقت حولها كأن هناك مَن يراقبها.

ملابسها تليق بعمرها، وإن لم تدل على ولع مبالغ فيه بالموضة.. نظارتها الطبية لم تُنقص من جمالها شيئًا؛ بل أضافت له ذكاءً محببًا يشع من عينيها بلا انقطاع.. وشعرها الأسود القصير يكشف عن عنقها الطويل النحيل.. وفي وجهها بحث يوسف عن نادية فلم يجدها.

قالت بتوتر لم يفارقها منذ أن رآها:

ـ أخبرني أولًا.. ما الذي تعرفه حتى الآن؟

فحكى لها يوسف باختصار كل ما مرَّ به منذ أن التقى مجدي في السجن حتى خروجه من مكتب الأستاذ قدري، وأصغت هي إليه باهتمام مواصلةً التلفت حولها، لتقول في النهاية:

ـ إذن أنت تعرف أن هذا الطفل لم يكن طبيعيًّا.. عظيم.. هذا سيوفر

لي الوقت الذي كنت سأقنعك فيه بهذا.

ـ تقولين إنه حي وإن علينا العثور عليه قبل فوات الأوان؟

ـ سأشرح لك حالًا.

وتلفتت حولها مرَّة أخرى قبل أن تبدأ:

ـ أنا طالبة في قسم التاريخ، في السنة النهائية.. والدكتور مجدي لم يكن مدرسي فحسب؛ بل كان بمثابة أبي، وكنت الوحيدة المقربة له من بين جميع طلبته. أعرف أن كل من قابلتهم اليوم أخبروك بالشيء ذاته، لكنها الحقيقة هذه المرَّة.. ربما لأنني أشاركه عشقه للتاريخ، أو ربما لأنني كنت مؤمنة بنظريته.. لكن.. أتعرف شيئًا عن الفترات المظلمة في التاريخ؟

ـ أعرف أنني أعيش إحداها هذه الأيام.

ـ أنت لم ترَ شيئًا بعد.. اقرأ التاريخ وستعرف ما الذي أعنيه.. المهم الآن، ولأنني لا أملك وقتًا للشرح، أن هناك فترات مظلمة في تاريخ أي حضارة، وأن هذه الفترات لم تأتِ من قبيل المصادفة أو سوء الحظ.. بل كان هناك سبب وراءها.. أو فلنقل: كان هناك شيء.

لم يفهم يوسف حرفًا واحدًا مما قالته ـ بالطبع ـ فكرر:

ـ شيء؟

ـ هذه كانت نظرية الدكتور مجدي.. هناك شيء ما هو المتسبب في كل الفترات المظلمة التي مرَّت بها الحضارة الإنسانية.. شيء موجود منذ البداية، وظل موجودًا حتى الآن.. شيء بحث عنه الدكتور مجدي

طويلًا حتى عثر عليه قبل أن يحاول القضاء عليه لاحقًا.

وعادت تتلفت حولها بصورة كوَّن معها يوسف نظريته الخاصة بأنها على درجة من الخبل مع ذكائها الواضح، لكنه تظاهر بالعكس ليسأل من جديد:

ـ و ما الذي منعه؟

أجابته مستاءة من غباء سؤاله:

ـ لقد حاول قتله وفشل، وحُكم عليه بالإعدام.

ـ أتقصدين أن هذا الشيء هو ابنه الذي قتله؟!

كررت هي بغيظ:

ـ لم يكن ابنه.. لقد كان الشيء.. الشيء.. وهو لم يمت حتى الآن.

فانتهك يوسف حظر النشر ليقول:

ـ لقد رأيت رأس ابنه المغروس في الجدار في غرفته.. وجسده يرقد الآن في قبره بلا رأس.. لو لم يكن هذا دليلًا على وفاته فنحن نضيِّع وقتنا هنا.

ـ جسده مات نعم.. لكنه لا يزال موجودًا.

وتلفتت مرَّة أخرى حولها لتردف هامسة هذه المرَّة:

ـ ألم يزرك بعد؟

ـ ماذا؟!

ـ إذن سيزورك قريبًا.. استعد.. لن يتركك الآن بعد أن عرفت بوجوده.

ـ عزيزتي.. سألخص لك موقفي من هذا كله.. أنا مجرد صحفي قاده سوء حظه إلى قضية الدكتور مجدي، لكني اكتفيت منها ولم تعد لي علاقة بها.. واليوم سأ...

فقاطعته وقد علا صوتها بصورة لفتت انتباه رواد الكافيه:

ـ إنه ليس قرارك بعد الآن.. حاول أن تفهم.. الشيء سيجدك إن لم تجده أولًا وتقضي عليه.. لكني هنا لأساعدك.. سنبحث عنه معًا، وسنحاول تنفيذ ما فشل الدكتور مجدي في إتمامه.. هذا هو الحل الوحيد.

ـ أنت مُحقة.. لا يوجد أمامي سوى حل وحيد.

قالها يوسف وأخرج من جيبه ثمن فنجان القهوة الذي لم يكمله ليضعه على الطاولة ويقف معلنًا نهاية النقاش، فهبت هي بلهفة:

ـ أعرف أنك لن تصدقني الآن.. لكنك ستفعل قريبًا جدًّا.. حينها ستجدني هنا أو في الكلية.. سأنتظرك.

ـ صدقيني.. سيطول انتظارك.

ومن دون أن يمنحها فرصة للإجابة تركها وابتعد، فلم تحاول هي اعتراض طريقه.. فقط نادته قائلة:

ـ حاول ألا تتواجد في مكان ما بمفردك أبدًا.

فتصاعدت ضحكات سوء حظ يوسف في رأسه وهو يغادر المكان من دون أن يجيب.

* * *

لكن اتخاذ القرار أمر، وتنفيذه أمر آخر تمامًا.

حين خرج يوسف من مكتب الأستاذ قدري كان قد قرر أنه سيترك العمل على القضية وسيتقدم باستقالته لو كان هذا هو الثمن الوحيد.. والوقت الذي قضاه مع سوسن أثبت له صحة قراره، خصوصًا أنها وضعته أمام احتمالين لا ثالث لهما: إما أنها تهذي وأن كل ما يتعلق بقضية الدكتور مجدي هو نوع نادر من الجنون المطبق، وإما أنها محقة؛ وفي هذه الحالة سيكون عليه أن يبحث عن طفل ميت ليقتله!

نعم.. إن الاستقالة تبدو هيِّنة الآن، بل إنها الخيار الأقرب إلى الصواب، لكن فضول البشر هو الطريق الأسرع والأضمن للهلاك، وفضول يوسف هو كل ما يملكه، وهو خطيئته الوحيدة في هذه القصة، ومن أجله سيدفع الثمن غاليًا كما سيعرف لاحقًا.. لهذا ترك سوسن واتجه إلى المطعم القريب من منزله مقررًا أنه يجب أن يُخرس أنين معدته، وأن يحاول تنظيم أفكاره المتواثبة في رأسه، ليتخذ بعدها قراره النهائي.

هكذا جلس وحيدًا في ذلك المطعم الذي لا يأكل فيه بشريٌّ سواه، ينتظر أن يُعِدَّ له صاحبه العجوز وجبة ساخنة من أشياء لا تبدو صالحة للاستخدام الآدمي، لكنها كفيلة بإصابته بفقدان الشهية، على أن يتكفل ارتجاع المريء الذي يعانيه بطرد كل ما هو غير صالح للهضم من معدته لاحقًا. وأخرج تقرير المعمل الجنائي من حقيبته ليبدأ القراءة فيه من باب تمضية الوقت، فلم يجد فيه أكثر ممَّا رآه في مسرح الجريمة.

رجال المعمل الجنائي وصلوا إلى الشقة بعد ارتكاب الجريمة بعدة ساعات ـ المجد لكفاءة رجال الداخلية في مصر! ـ ليجدوا الدكتور مجدي

متكومًا في ركن الصالة يرتجف هلعًا ودماء ابنه تُغرقه.. وفي الغرفة تدلت جثة ابنه ـ الذي هو ليس ابنه ـ من الجدار، فالتقطوا لها العديد من الصور ـ التي منحه عصام نسخة منها مع التقرير؛ لسوء حظه ـ ثم بدأوا البحث عن أدلة، فلم يجدوا سوى المِطرقة (سلاح الجريمة) والكثير من الدماء في كل مكان.

دماء أكثر بكثير من أن تكون خرجت من جسد طفل في العاشرة.

هناك أيضًا صورة لبقعة الدماء الداكنة على الجدار في الصالة، والتي أثبت تحليل المعمل أنها من دماء الطفل الذي لا اسم له، وهناك تلك التفصيلة التي توقف أمامها يوسف لأول مرَّة: لقد كانت هناك حروق في يدي الدكتور مجدي من الدرجة الثانية. كأنه أشعل النار في يديه بإرادته الحرة، أو.. أو كأن المِطرقة التي كان يمسك بها كانت ساخنة إلى درجة الاحمرار!

ها هو سؤال جديد ينضم إلى قائمة الأسئلة الطويلة، وها هو صاحب المطعم العجوز يقترب منه وهو يسعل في طعامه، ليقول:

ـ ضع هذه الصور جانبًا.. ستفقدك شهيتك.

فلم يصارحه يوسف بأن رائحة الطعام تكفلت بهذه المهمة، وأعاد الصور والتقرير إلى حقيبته ليبدأ تناول طعامه بامتعاض، ابتسم له صاحب المطعم العجوز، سائلًا:

ـ ما رأيك؟

ـ رائع.. أفضل من أي مرَّة.. لقد تفوقت على نفسك.

فهزَّ صاحب المطعم رأسه في رضا وتركه يتمنى أن يصيبه ما يأكله بالتسمم ثم الموت. وإلى أن تُحقق هذه الأمنية، أخذ يفكر في الخطوة التالية التي عليه فعلها ليخبره بها سوء حظه في رأسه:

ـ الدكتورة ليلى التي فحصت ابن مجدي.. ربما كان لديها جديد لتضيفه.

فأجاب هو هامسًا:

ـ مجرد اقتراحك الفكرة يخبرني بأن كارثة تنتظرني.

ـ ربما.. لكنك ستزورها على أي حال.. أليس كذلك؟

ـ كأنَّ هناك خيارًا آخرَ أمامي.

ـ كتابة الاستقالة لن تستغرق منك سوى خمس دقائق.. لكنه قرارك.

همس يوسف باستسلام هذه المرَّة:

ـ وأنت تعرف ما الذي سأقرره.

فلم يجبه سوء حظه؛ لأنه كان يعرف. هكذا أنهى يوسف وجبته ثم أفرغ معدته في مرحاض المطعم، قبل أن ينطلق إلى حيث سيلتقي الدكتورة ليلى لأول مرَّة.

نعم.. سيلتقيها مرَّة أخرى، وستكون هذه المرَّة من أسوأ التجارب التي سيمرُّ بها يوسف في حياته، لكن دعنا لا نستبق الأحداث الآن.

* * *

عيادة الدكتورة ليلى كانت في المقطم.

بالطبع كان يجب أن تكون في أبعد نقطة ممكنة على الخريطة بالنسبة إليه، وهذا ما توقعه يوسف، فاستسلم لمصيره، واتجه إلى هناك، لينتهي به الأمر في عيادتها الأنيقة يجلس ينتظر دوره، إلى أن نادته الممرضة البدينة في النهاية قائلة:

ـ أستاذ يوسف.. دورك.

قالتها فاستجمع هو إرادته ليقف مقاومًا إرهاقه لِيَهُمَّ بالاتجاه إلى مكتبها، لكن الممرضة البدينة استوقفته مستنكرة:

ـ ثمن الكشف.

فحاول يوسف أن يشرح لها أنه ليس طفلًا، وأنه لم يتزوج ولم ينجب، ولا هو هنا ليكشف أصلًا، لكن الممرضة رددت باستماتة:

ـ ثمن الكشف.. ثمن الكشف.. ثمن الكشف.

ليدفعه لها يوسف، لا لشيء إلا ليُخرسها، لتبتسم هي أخيرًا قائلة:

ـ الدكتور هدى في انتظارك.

ـ لكني هنا لرؤية الدكتورة ليلى!

ـ الدكتورة ليلى لم تأتِ إلى العمل منذ عام أو أكثر.. الدكتورة هدى تعمل هنا بدلًا منها، وهي لا تقل عنها كفاءةً.

ـ وأنا هنا من أجل الدكتورة ليلى!

ـ الدكتورة هدى خبيرة أيضًا وحاصلة على الزمالة البريطانية و...

ـ لا يهمني إن كانت حاصلة على جائزة نوبل للسلام.. أنا.. هنا.. من أجل.. الدكتورة ليلى!

صاح بها لتتلاشى ابتسامتها وتجيبه في برود مستفز:

ـ وهنا لا يوجد سوى الدكتورة هدى.. هل ستدخل أم لا؟

ـ أريد ثمن الكشف.

ـ نظام العيادة لا يسمح بالـ...

ـ ثمن الكشف.. ثمن الكشف.. ثمن الكشف.

فأعادت له الممرضة نقوده لتخرسه، وقالت لتطرده:

ـ لا تضيِّع وقتي إذن!

ـ لن أضيِّعه.. بل سأعقد معك صفقة.

ـ صفقة؟

فأعاد لها يوسف جزءًا من نقوده، عارضًا صفقته:

ـ هذا مقابل عنوان منزل الدكتورة ليلى.. ليلى لا هدى.. أتعرفينه أم...؟

فعادت الابتسامة لتشع في وجه الممرضة البدينة، وهي تدس النقود في جيبها مجيبة:

ـ بالطبع أعرفه.

وخطَّت له العنوان على ورقة، لتناوله إياها مردفة:

ـ لكنْ.. ولأكون قد حذرتك.. الدكتورة ليلى توقفت عن العمل ولن تقبل لقاءك.

فأجابها ساخرًا:

ـ سأجرب حظي.

وتركها ليغادر المكان مستعدًّا للأسوأ.

* * *

ولأن عنوان منزلها كان في المقطم؛ توقع يوسف أنه لن يجدها في منزلها، أو أنه سيجدها جثة هامدة منتفخة، أو أنها ستحاول قتله واغتصابه هي الأخرى؛ لمجرد أنه اقتحم عليها عزلتها، لكنها كانت هناك.. وكانت تنتظره!

عرف هذا حين بلغ فيلتها ليجدها تفتح له الباب قبل أن تمس يده جرسه، لتبادره:

ـ أنت الصحفي؟

فتراجع بحيرة وقلق ليسأل:

ـ نعم.. لكن كيف عرفتِ؟

ـ ادخل رجاءً.

ليتردد قبل أن يدخل فيلتها مكررًا:

ـ كيف عرفتِ أنني صحفي؟

ـ وكيف لا أعرف صحفيًّا بشهرتك؟ إنني أواظب على قراءة كل ما تكتبه.

فتنهد يوسف بارتياح وقد قرر أنها مخبولة هي الأخرى لتلقي بكذبة على هذه الدرجة من البلاهة، وأكدت هي له قراره حين أخذت تتلفَّتُ حولها بالصورة ذاتها التي رآها سابقًا مع سوسن، قبل أن تقول:

ـ اجلس وسأعد شيئًا لتشربه.. أعتقد أن جلستنا ستطول.

لم يعارض يوسف، ولم تنتظر هي رده، بل أسرعت إلى المطبخ، ليقف يوسف مكانه يرمق المكان من حوله بفضول صحفي منحه أول حقيقة وأول سؤال لهذه الليلة.

هذه المرأة تعيش بمفردها.. رائحة الوحدة تفعم المكان، ويوسف الذي قضى حياته وحيدًا قادر على تمييز هذه الرائحة ببراعة، وهنا يأتي السؤال: ما دامت الدكتورة ليلى تعيش بمفردها؛ فأين زوجها وطفلاها، الذين يبتسمون معها في هذه الصورة التي ترقد في إطار غطته الأتربة؟

دعك بالطبع من سؤال: لماذا تركت العمل لعام أو أكثر تاركة عيادتها لأخرى؟ فمجرد كونها لها علاقة بابن مجدي اللعين كفيل بالإجابة عن هذا السؤال، وباقي الأسئلة والإجابات سيحصل عليها حالًا ما إن تَعُدْ من المطبخ؛ حيث تعد له الآن ما لم يطلبه، والذي يتوقع أنه سيكون فنجان قهوة يُسهم في مشروع إصابته بالقرحة.

وبالفعل لم تمضِ دقائق معدودة حتى كانت تضع فنجان القهوة أمامه لتتلفَّت حولها، قبل أن تحاول الابتسام قائلة:

ـ لماذا طلبت رؤيتي؟

قالتها كاذبة فهي بالتأكيد تعرف، لكن يوسف قرر أن يلعب لعبتها ليقول:

ـ أنا هنا لأتحدث معك عنه.

تعمَّد أن يقولها «عنه» لا «عن ابن مجدي» فسقطت هي في فخه، وأجابت:

ـ ما الذي تريد معرفته؟

ـ كل شيء.. ولنبدأ بحقيقة كونك تعرفين أنني قادم وأنني أتحدث عن ابن مجدي مع أنني لم أذكره قطُّ.

فابتسمت الدكتورة ليلى ابتسامة مريرة وقالت:

ـ إذن هو لم يَزُرْكَ بعد.. لا تنظر إليَّ في حيرة هكذا.. فستفهم أكثر قريبًا.. لكن.. وإلى أن تفهم.. لديَّ نصيحة بالغة الأهمية لك.

قال هو بملل:

ـ عليَّ ألا أتواجد بمفردي أبدًا ومهما كان السبب.

ـ حاول.. أعرف أن هذا ليس بسهل، وأنك مهما حاولت فستأتي لحظة ستكون فيها بمفردك.. لكن حاول.. حاول.. واستمتع بكل لحظة تحياها الآن.. فما أنت مُقدم عليه أسوأ من كل كوابيسك.

ـ لهذا أنا هنا.. لأعرف ما أنا مُقدِم عليه.

ـ لن تجد عندي الكثير.. كل ما أعرفه أنني كنت مثلك، وأنني ظننته مجرد طفل مصاب بمشكلة نفسية ما، وهذا هو خَطئِي.. أنني افترضت أنه مثلنا.. لهذا طلبت من الدكتور مجدي أن يتركه لي ليومٍ لأُجري فحوصاتي عليه.. كنت أظن أنني سأستطيع تشخيص مرضه وعلاجه.. لكن الدكتور مجدي لم يخبرني بالحقيقة.. تركه

معي وهو يعرف ما سيحدث. والآن.. الآن لم يعد أمامي شيء آخر لأفعله سوى الانتظار.

ـ انتظار ماذا؟ أكره أن أقاطعك لكن لو افترضتِ أنني فهمت حرفًا واحدًا مما قلتِه الآن فأنت مخطـ...

قاطعته صائحة:

ـ ستفهم كل شيء لاحقًا.. ما أعرفه أن المصادفة قادتك إلى طريقه.. المصادفة وسوء حظك.. وهو الآن يعرف بوجودك وينتظر اللحظة المناسبة.. لم تعد هناك فرصة للتراجع يا عزيزي.. فقط حاول أن تنجز كل ما أردت إنجازه في حياتك قبل أن يبدأ هو.. هذا هو كل ما يمكنني أن أخبرك به.

وتلفتت حولها مرَّة ثم نظرت إليه بما معناه أن زيارته قد انتهت، فظل يوسف مكانه يحدِّق فيها بِحَيرة، قبل أن يقف ببطء، ليقول:

ـ أتظنين أنني سأصدق هذا كله؟

ـ لا يهم.. هو لن يهتم بتصديقك أو عدمه.. أنا أيضًا لم أصدق أيضًا في البداية.

ـ إذن على الأقل أجيبي عن هذا السؤال: أين زوجك وطفلاك؟

سأل.. فانتفضت الدكتورة ليلى وشحب وجهها لتأخذ في التلفت حولها بصورة هستيرية هذه المرَّة، لكن يوسف كرر بإصرار:

ـ أين هم؟

ـ يجب أن ترحل الآن.

ـ سأرحل حين تجيبين عن سؤالي.. أين هـ...

لكنها انفجرت فيه صارخة بمزيج من الهلع والغضب:

ـ اخرج من هنا حالًا.

فلم يشعر يوسف إلا بقدميه وهما تقتادانه إلى الخارج، قبل أن تُغلق الدكتورة ليلى الباب من ورائه بعنف، لتتركه يقف أمامه عاجزًا عن الفهم أو التصديق.

ملخص الزيارة.. لا شيء!

مجرد أسئلة جديدة تنضم إلى قائمة الأسئلة التي يجمعها منذ أن بدأ العمل على هذه القضية.. فقط هناك معلومة أنه لم يعد هناك مجال للتراجع.

فقط هناك صوت سوء حظه يهمس في رأسه بخوف هذه المرَّة:

ـ والآن ستعود إلى منزلك وحيدًا.. يبدو أنها نهايتك هذه المرَّة يا يوسف!

٦

لكنه لم يَزُرْه ليلتها.

أكره أن أُحبطك، لكني أكره أكثر أن أحكي لك ما لم يحدث حقًا.. وكل ما حدث هو أن يوسف عاد إلى منزله ليلتها وحيدًا ينتظر الأسوأ، ويتمنى حدوثه بسرعة، فلم يحدث أي شيء.. انتظر لساعات طويلة تساقط رأسه فيها عدة مرات لفرط إرهاقه الجسدي والذهني، وفي النهاية نام بعمق لم ينم به منذ زمن طويل.

كان نومه هذا ضرورة لا مفر منها، وكان مفيدًا، إذ استيقظ في اليوم التالي وقد صفا ذهنه إلى الحد الكافي ليبدأ ترتيب أفكاره وإفراغ أسئلته على ورقة، في محاولة للبحث عن أي رابط بين كل ما سمعه ورآه.

الموقف الآن كالتالي: الدكتور مجدي قتل ابنه بأبشع طريقة ممكنة.. هو يعتقد أن ابنه لا يزال حيًا، وأن على يوسف أن يعثر عليه ويقتله، وهو اعتقاد تشاركه فيه طالبته سوسن.. عصام يؤكد له أن الجريمة كلها غير طبيعية، والدكتورة ليلى تؤكد له أن هذا الابن ذاته غير طبيعي وأنه سيزوره قريبًا.

وكل هذا لا يصلح ليواجه به مدير التحرير الذي ينتظر منه الآن تحقيقًا مثيرًا، لن يتمكن يوسف من كتابة حرف واحد منه، إلا لو أراد لهذا التحقيق أن يكون مجموعة منتقاة من أفضل الأسئلة التي ملأت الأوراق أمامه، وفي هذه الحالة من الممكن أن ينشر التحقيق في صورة مسابقة للقارئ.

«حاول أن تجيب عن أيٍّ من هذه الأسئلة وستربح اشتراكًا سنويًّا مجانيًّا في مجلة «المجلة»!».

اقتراح من السهل تخيل رد فعل مدير التحرير لو سمعه، لذا قرر يوسف الاحتفاظ به لنفسه، وأن يملأ أوراقه بأي شيء صالح للنشر لإخراس مدير التحرير، ليبدأ كتابة قصة كاملة تخيلية للموقف، معتمدًا على الجنون كتفسير منطقي لكل ما حدث.

الدكتور مجدي أصابه **الجنون** فقتل ابنه.. والدكتورة ليلى أصابها **الجنون** فتخلصت من زوجها وطفليها، وهي الآن في منزلها تنتظر شيئًا ما.. والطالبة سوسن فقدت عقلها وتؤمن بأن هناك فتراتٍ مظلمة في تاريخ كل حضارة، وأن هناك شيئًا ما هو المتسبب فيها، وهذا الشيء هو ابن الدكتور مجدي الذي لا يزال حيًّا ويجب أن يُقتل قبل فوات الأوان.. ورجال المعمل الجنائي كلهم أصيبوا **بلوثة عقلية** دفعتهم لترك رأس الابن مغروسًا في الجدار ليدفنوا جسده مع حيرتهم.. نعم.. **الجنون** يجيب عن كل التساؤلات لو أردنا، ولكَمْ من قضيةٍ حدثت في مصر وانتهى الأمر بها بمختل عقلي لا يصدق أحد بوجوده ولا يعترض أحد على كونه الفاعل.

إذن الجنون سيكفي هذه المرَّة أيضًا، لكن.. هل سيرضى به مدير التحرير في النهاية؟

والأهم...

هل ستنتهي القصة عند هذا الحد؟

* * *

ـ بالطبع لا.

يقولها مدير التحرير كما توقعها يوسف.. يقولها ثم يطوي أوراق التحقيق الذي ألّفه يوسف، ويردف:

ـ الجنون هو ما افترضه الجميع منذ البداية، وبهذا لن نقدِّم جديدًا للقارئ.. لقد فتحنا القضية بعد كل هذا الوقت لنجيب عن السؤال الأهم: لماذا قتل الدكتور مجدي ابنه؟

ـ لأنه جُنَّ.

ـ أعرف.. لكني أريد شيئًا جديدًا.. كون ابنه بلا اسم مثير.. وكونه مصابًا بمرض يمنعه من النمو سيستفز عاطفة القارئ أكثر.. لكنك تركت أهم طرف خيط أمامك يا يوسف.

فتساءل يوسف بلهفة حقيقية:

ـ ما هو؟

ـ عالم الطفل ذاته.. مَن أصدقاؤه؟ أي مدرسة كان يذهب إليها؟ ما الذي حدث له بعد وفاة أمه؟ أكان الدكتور مجدي يضربه أو يعامله بقسوة؟ الطفل هو الضحية هنا يا من يُفترض به أن يكون قد تعلم مني طوال هذه الفترة الماضية.. إنه الضحية، ولو لم يشعر القارئ بهذا فالتحقيق كله لا داعي له.

فقاوم يوسف أن يشرح له وجهة نظره في كون هذا الطفل العجيب ضحية، وسأل:

ـ ومِن أين لي أن أحصل على هذه المعلومات؟ الأم مُتوفاة، وأصدقاء الدكتور مجدي لا يعرفون أكثر ممَّا كتبته بالفعل.

ـ الدكتور مجدي ذاته لا يزال حيًّا.

ـ لكن...

ـ لا يوجد لكن.. ستزوره اليوم في مستشفى السجن.. سأُجري بعض الاتصالات، وسيسمحون لك بلقائه للمرَّة الثانية.. هذه المرَّة أريد حقائق.. أريد أسرارًا.. أريد إثارة.. فقط لا تتركه يحاول الانتحار مرَّة ثانية لو استطعت.. على الأقل إلى أن تحصل منه على ما تريده.

ثم رفع سماعة التلفون ليبدأ إجراء اتصالاته حاسمًا تردُّد يوسف وقاطعًا عليه أي فرصة للاعتراض.

إلى مستشفى السجن إذن.. واللقاء الثاني مع الدكتور مجدي.

وكنت قد أخبرتك بأنه سيكون هناك لقاء ثانٍ مع الدكتورة ليلى، وأنه سيكون من أقسى التجارب التي سيمر بها يوسف في حياته.

لكن اللقاء الثاني مع الدكتور مجدي سيكون مفاجأة لم يتوقعها على الإطلاق.

* * *

للمستشفيات رائحة عجيبة، هي مزيج من رائحة المطهرات والأمراض

والألم، وللسجون برودة بمذاق الوحدة واليأس والتعاسة، فما بالك بمستشفى السجن؟!

حين جاء يوسف إلى هنا أول مرَّة كانت دماء مجدي تغطيه، وكان يرتجف بلا توقف مصدومًا مما حدث له، فلم يجد الوقت ولا الرفاهية اللازمين ليكره المكان كما كرهه هذه المرَّة.. ثم إنه هنا رغمًا عنه ليواصل العمل على التحقيق الذي لم يمنحه حتى الآن سوى الأسئلة، وتلك الانقباضة العجيبة في معدته، وذلك الشعور الخانق بأن كارثة ما ستحدث له قريبًا.

مدير التحرير يريد حقائق وأسرارًا، لكنه هنا ليحسم موقفه لا أكثر.. لو كرر الدكتور مجدي مطلبه بأن يبحث عن ابنه الميت ليقتله، أو لو قال إنه سيزوره هو الآخر، سيتصل بمدير التحرير وسيبلغه باستقالته وسيترك كل هذا العبث للأحمق الذي سيتولى منصبه في المجلة من بعده، وهذه المرَّة لن يتردد، بل سيفعلها.

سيخرج من محيط الأسئلة هذا وسينجو بنفسه حتى لو أصرَّ الجميع على أنه تأخر أكثر من اللازم، وأنه لم تعد أمامه فرصة للتراجع أو الانسحاب، وسيقضي ما تبقَّى له من عُمرٍ محاولًا أن ينسى ابن الدكتور مجدي ونظراته الجادة العجيبة.

كان مدير التحرير قد أجرى اتصالاته بالفعل، لذا استقبلوه في المستشفى بالفتور اللازم، قبل أن يقتادوه إلى غرفة الدكتور مجدي، حيث انتظره مدير المستشفى أمام بابها، ليحذره قائلًا:

ـ حالته لن تسمح له بالحديث طويلًا.. لا ترهقه ولا تضيِّع وقتك في أسئلة لا داعي لها.

ـ لن أفعل.

ـ سأسمح لك بخمس دقائق معه لا أكثر.. ومهما حدث لا تمنحه أي شيء يمكنه استخدامه ليكرر محاولة الانتحار.. أي شيء.. ولو كان منديلًا ورقيًّا.

ثم فتح باب الغرفة وأشار إليه بالدخول، فتنهد يوسف باستسلام ودخل من دون أن يعرف أن الدقائق الخمس التي حصل عليها ستكفيه وستزيد.

ففي الدقيقة الثالثة سيموت الدكتور مجدي!

* * *

كان الدكتور مجدي في أسوأ حال ممكنة.

جسد متهالك شاحب اللون تتدلى منه الخراطيم والأسلاك المتصلة بأجهزة تبقيه حيًّا، يعلوه عنق أحاطته ضمادة ضخمة، يعلوها رأس ضامر، أخذت عيناه تدوران في محجريهما بلا انقطاع تبحثان عن شيء ما لا وجود له.. هذا هو ما تبقى من الدكتور مجدي، وهذا هو ما كان على يوسف التعامل معه ليحصل على إجابة عن أي شيء، وفي أقل من ثلاث دقائق.

إن يوسف لم يعرف بعد أن نهاية الدكتور مجدي ستكون بعد ثلاث دقائق فحسب، لكننا نعرف؛ لذا دعنا نبدأ عدًّا تنازليًّا، لنتخيل ما حدث بين يوسف والدكتور مجدي بالضبط.

باقٍ من الوقت ثلاث دقائق.

ويوسف الآن يقف يحدق في مجدي عاجزًا عن العثور على بداية مناسبة.. ضع نفسك مكانه.. أنت الآن تقف أمام رجل حاول الانتحار،

ومحكوم عليه بالإعدام لأنه قتل ابنه الذي هو ليس ابنه، وليس طفلًا، ولم يمت بعد، كما يردد البعض، فما البداية المناسبة؟

دقيقتان وخمسون ثانية.

يقرر يوسف أن يتأكد من أن مجدي لا يزال صالحًا للتعامل الإنساني، فيقول:

ـ دكتور مجدي.. أنا يوسف الصحفي.. لقد التقينا من قبل.

يقولها وينتظر أي رد فعل منه، فلا يتكرم عليه سوء حظه بأي شيء.. الدكتور مجدي لم ينظر تجاهه حتى، ولم يبدُ عليه أنه شعر بوجوده أصلًا.. يقول يوسف:

ـ أنا هنا لأنني أحتاج إلى مساعدتك.

حتى ولو كان لا يعرف ما هي المساعدة التي يحتاج إليها حقًّا.. حتى لو كان واثقًا بأن مجدي لم يعد يصلح لتقديم أي مساعدة لأي شخص.

دقيقتان وأربعون ثانية.

الدكتور مجدي لا يستجيب إطلاقًا له، ويوسف يعتقد أن أمامه خمس دقائق، لذا هو يشعر باللهفة، ولو كان يعرف ما سيحدث في الدقيقة الثالثة لشعر بالرعب.. يقول:

ـ دكتور مجدي.. لقد تحدثت مع الأستاذ قدري.. وطالبتك سوسن.. والدكتورة ليلى.. ومنهم عرفت الكثير، لكني...

ويتردد قبل أن يقول:

ـ لكني لا أصدق.. كل ما عرفته منهم غير قابل للتصديق.. ابنك لم يكن طبيعيًّا لكنه مات.. لقد رأيت ما تبقى من جثته في الشقة.. رأسه لا يزال هناك يا دكتور مجدي.. في الجدار في غرفة نومه.. لقد رأيته بنفسي و...

فيقول الدكتور مجدي أخيرًا بصوت يخرج من فمه كالفحيح:

ـ إنه يعرف أنك تسعى وراءه.. يعرف ولن يسمح لك بإيقافه.

ليشعر يوسف بالإحباط العميق.. كان قد قرر أنه لو سمع الهراء المعتاد عن كون ابنه حيًّا وأن عليه أن يبحث عنه ويقتله فسيرحل، لكن أن يخبره مجدي بأنه على اتصال بابنه القتيل، فهذا دليل لا جدال فيه على جنونه.. هذه عودة إجبارية لنظرية يوسف بأن كل ما حدث هو ضرب من الجنون، وهي النظرية التي رفضها مدير التحرير لأنها «ليست مثيرة بما يكفي».

دقيقتان وثلاثون ثانية.

ويوسف الآن يشعر بأنه يضيِّع وقته لا أكثر.. يشعر بأنه لن يحصل على شيء مما جاء من أجله، لكنه يفترض أن أمامه أربع دقائق أو أكثر، لهذا يقرر إراحة ضميره، فيجلس بجوار فراش الدكتور مجدي ويقول:

ـ دكتور مجدي.. دعنا نتفق على حقيقة واحدة.. ابنك الذي هو ليس ابنك كما عرفت مات.. لن أبحث عنه ولن أقتله لأنه ميت فعلًا.. لو كنت تراه كما تزعم فهذا في صالحك بالمناسبة، فقد يخفِّفون حكم الإعدام و...

فيقاطعه مجدي بتوتر وكأنما يعرف هو أن نهايته أوشكت:

ـ سيأتي من أجلك.. يجب أن تستعد.. ابحث عنه في التاريخ.

ـ التاريخ؟

ـ لقد كان دومًا هناك.. لا توجد مصادفات.. كان هو التفسير الوحيد وهو السبب لكل ما حدث وما سيحدث ما لم تعثر عليه أولًا.

لكن يوسف فقد أي قابلية للتصديق، فقال:

ـ لا بأس.. أنا هنا لأن مدير التحرير طلب مني المجيء، وما أريد معرفته الآن هو اسم المدرسة التي كان ابنك يذهب إليها.

ـ أخبرني بأنك وحيد! أخبرني بأنه لن يحميك أحد!

فتجمد يوسف في مكانه ذاهلًا.

دقيقتان وعشر ثوان.

يقول يوسف بعد لحظات من الذهول:

ـ كيف عرفت أنني وحيد؟

فلا يجيبه مجدي بل تدور عيناه في المكان كأنما تبحثان عنه.. عن ابنه!

ـ كيف عرفت أنني وحيد؟

يكرر يوسف بعصبية هذه المرَّة.. ويلتفت إليه مجدي ليقول نادمًا:

ـ أنا من أعدته.. إنه خَطئِي.. لكني لم أكن أعرف.. صدقني لم أكن أعرف!

وهي الرسالة التي سينقلها يوسف للدكتورة ليلى في لقائهما الثاني

والأخير، لكن لنترك هذا لحينه.. الآن هو يشعر ببرودة عجيبة تغزو المكان، وبقبضة مثلجة تعتصر روحه ذاتها، فيقول:

ـ دكتور مجدي.. كيف.. عرفت.. أنني.. وحيد؟

ـ هو أخبرني.. سوسن.. سوسن تعرف الكثير.. ستساعدك.. ستحاول لكنها ستدفع الثمن هي الأخرى.

فينفجر يوسف صارخًا:

ـ سوسن لا تعرف أي شيء.. سوسن وقدري والدكتورة ليلى لا يعرفون أي شيء.. كلهم أصابهم الجنون، وكلهم يرددون سخافات لم ولن أصدقها مهما حاولت.. ابنك مات وهذه هي نهاية القصة!

فيبتسم مجدي ربما لأول مرَّة منذ سنوات طويلة، لكنها ابتسامة مريرة حزينة، ليقول:

ـ بل هي بدايتها.

دقيقة وأربعون ثانية.

ويوسف الآن يقرر الرحيل.. لقد اتخذ قراره قبل أن يدخل عليه.. لقد قرر أنه لو استمع إلى المزيد من الهراء فسيخرج من الموضوع كله، ولقد حصل على ما يكفيه ويزيد لينفذ قراره هذا.. هكذا يقف، وهكذا يعلن بلهجة لا تقبل النقاش:

ـ دكتور مجدي.. أشكرك على وقتك.

ويستدير ليهمَّ بالرحيل، وعقله يبحث عن تفسير لبرودة المكان المتزايدة العجيبة، لكن مجدي يستوقفه قائلًا:

ـ نادية ماتت.

ـ !!!

هذه المرَّة ينتفض جسد يوسف بعنف، وهذه المرَّة يدرك وعلى نحو يقيني أن ما يحدث حوله ليس بجنون.. بل هو أسوأ بكثير!

ويقول مجدي بصوته الأقرب إلى الفحيح:

ـ ماتت بعد تخرجها بأشهر.. حادث سيارة.. لقد كانت تحبك.

يلتفت إليه يوسف وجسده ينتفض ذهولًا ورفضًا لما يسمعه، ويواصل مجدي بابتسامته المريرة:

ـ هو أخبرني بهذا أيضًا.

دقيقة وعشرون ثانية.

ويوسف الآن على استعداد لقتل مجدي بنفسه.

نادية..

كانت تحبه..

لكن..

مستحيل!

المنطق هنا يقول: «وما قيمة هذه المعلومة بعد موت نادية؟». لكن أي منطق سنطالب به يوسف وهو يسمع هذه المعلومة من رجل يدَّعي أن ابنه الذي مات هو قائلها؟ ابنه الذي هو ليس ابنه، وليس طفلًا، والذي يبدو كأنه لم يمت بعد!

لهذا يتجه يوسف إلى فراش مجدي مأخوذًا، بينما يقول مجدي:

ـ سيزورك قريبًا.. لقد حاولت أنا منعه، لكني.. لكني فشلت.. والآن سأدفع الثمن.

فيحدق فيه يوسف ذاهلًا متجاهلًا كل ما قاله، ليسأل في النهاية:

ـ نادية كانت تحبني؟

وهنا أرجوك أن تتذكر أننا نتحدث عن رجل قضى عمره كله وحيدًا.. عن رجل لم يعرف دفء العلاقة البشرية ولو للحظة في حياته، وها هو الآن يكتشف أن هناك من أحبه، لكنه ـ ولسوء حظه ـ يعرف هذه المعلومة متأخرًا.. متأخرًا جدًّا.

أربعون ثانية.

ومجدي لم يرد على سؤاله، فهو لا يملك ردًّا ولا وقتًا ليشرح له أن حب نادية له لم يعد له قيمة.. هي الآن ميتة ومدفونة في مكان ما، عكس ابنه الذي دفنوا جثته لكنه لم يمت بعد.. ثم إنه يعرف أنه سيموت.

بصورة ما يعرف أن نهايته قد حانت، لهذا يقول:

ـ ابحث عنه في التاريخ.. وحين تجده لا تتردد في قتله.

ثم يبدأ صفير جهاز رسم القلب في التسارع فجأة.. لكن يوسف لم يبالِ بالصفير ولا بالتحقيق الذي عليه كتابته ولا بكل ما مرَّ به حتى الآن.. إن عقله الآن هناك.. مع نادية.

نادية التي أحبته والتي سحقتها عجلات سيارة مسرعة قبل أن تصارحه بحبها هذا.

عشرون ثانية.

والصفير يتسارع على نحو جنوني معلنًا أن قلب الدكتور مجدي سيتوقف عن الخفقان في أي لحظة.. ها هو الآن يلهث بعنف، لكنه يجاهد ليقول:

ـ أرجوك تذكَّر.. يجب ألا تكون بمفردك.. يجب ألا تسمح له بالعودة.. يجب.. أن.. أن..

عشر ثوانٍ.

ينتبه يوسف أخيرًا إلى صفير جهاز رسم القلب وإلى مجدي الذي بدا أنه عاجز تمامًا عن التقاط أنفاسه ليتوتر.

تسع ثوانٍ.

يجب أن ينادي الأطباء.. يجب أن يتدخل أحدهم لينقذ الدكتور مجدي، لكن عليه أولًا أن يتخلص من حالة الذهول المسيطرة عليه.

ثماني ثوانٍ.

يحاول مجدي استكمال ما قاله، لكن الكلمات تختنق في حلقه.

سبع ثوانٍ.

ينتزع يوسف نفسه من ذهوله أخيرًا ليهمس:

ـ أنت تموت.

ثم يسرع خارجًا من الغرفة لينادي بأعلى صوت:

ـ طبيب.. بسرررررعة!

لكنَّ ممر المستشفى خاوٍ أمامه، وكأنما رحل الجميع.. يكرر بصوت أعلى:

- أي طبيب بسرعة.. إنه يموووووت!

فيتردد صدى صوته في الممر ويتلاشى من دون أن يجيب نداءه أحد.

ست ثوانٍ.

يعود يوسف إلى الغرفة وقد قرر التصرف بنفسه حتى وإن لم يعرف ما عليه فعله، ليستقبله صفير جهاز رسم القلب المختلط بحشرجة الدكتور مجدي الذي بدأ جسده في الانتفاض على الفراش.

خمس ثوانٍ.

يجب أن ينقذه.. يجب.. لكن كيف؟

أربع ثوانٍ.

يتلفت يوسف حوله باحثًا عن أي شيء يصلح لفعل أي شيء فلا يجد.

ثلاث ثوانٍ.

يعتصر مجدي ما تبقَّى من حياة في جسده، لينطق أخيرًا بصوته الأقرب إلى الحشرجة:

- اقتله.

ثانيتان.

يصرخ يوسف بيأس وقد أدرك أن صراخه لم يعد له جدوى:

- إنه يموووووت!

ثانية واحدة.

وما حدث بعدها رآه يوسف وسيقضي ما تبقى له من عُمر يحاول نسيانه من دون أن يستطيع.

ففي لحظة واحدة هوت عشرات المطارق الخفية على جسد الدكتور مجدي لتتهشم عظامه بصوت مسموع امتزج بالصرخة الأخيرة التي أطلقها.

في لحظة تحوَّل أستاذ التاريخ - الذي كان ذات يوم يبتسم بثقة في صورة لم تعد تَمُتُّ له بصلة - إلى جسد رخوٍ بشع لا توجد فيه عظمة واحدة سليمة.

وفي اللحظة التالية فقد يوسف وعيه.

* * *

وحين استيقظ، وحين استرد قدرته على التفكير والاستيعاب، وحين انتهى من التحقيقات التي أجروها معه كان أول ما فعله هو أن اتصل بمدير التحرير ليبلغه باستقالته.

قالها باختصار وأنهى المكالمة في وجه مدير التحرير الذي انفجر صارخًا، ليخرجه من حياته نهائيًّا.. هكذا لم تعد له علاقة بالتحقيق ولا بمجلة «المجلة»، لكن علاقته بالقصة ذاتها لم تنتهِ.. ولن تنتهي عند هذا الحد.. الاستقالة كانت من باب التفرغ لا أكثر.

على الأوراق الرسمية اعتبروا وفاة الدكتور مجدي نتاج نوبة صرع

غير مسبوقة أدت إلى تهشيم عظامه بهذه الصورة المخيفة، لكنه يعرف الحقيقة.. يعرفها ويعرف أن أحدًا لن يصدقه لو أخبره بها؛ لهذا احتفظ بها لنفسه.

هو نفسه لم يصدق سابقًا، على الرغم من كل ما رأى وكل ما سمع، لكن الآن لم يعد هناك مجال للشك أو الجدال.

الآن عليه أن يبدأ دوره في القصة والخطوة الأولى تنتظره هناك...

معها.

٧

وبالطبع كان هناك وقت كانت فيه سوسن فتاة طبيعية تعيش وتحلم وتدرس وتحب.. وكان هناك سامح أيضًا!

أنت تتخيلها الآن تلك الفتاة الغريبة الأطوار التي تتلفت حولها طيلة الوقت وتردد نظريات تاريخية عجيبة، لكنك لو رأيتها قبل أن يبدأ دورها في القصة لعرفت أنها كانت تحيا حياة هادئة أقرب إلى التقليدية كذلك، وكل المؤشرات من حولها تشير إلى نهاية سعيدة تنتظرها متمثلة في التخرج في الكلية بتقدير كافٍ للتعيين فيها، وفي سامح زوجًا لها في حفل عائلي بهيج.

كانت طالبة مجتهدة تعشق التاريخ حقًّا ـ لا تدرسه مضطرة لأن مجموعها في الثانوية العامة أجبرها عليه ـ عشقًا لازمها منذ طفولتها، ولاحظه والداها اللذان وجدا أنها لا تقرأ قصة إلا إذا كانت بدايتها تقول: «في قديم الزمان» أو «في زمن بعيد بعيد». تلك القصص التي تحكي عن فرسان يرتدون الدروع.. أو قبائل غزت الغابات.. أو جنود حاربوا وهلكوا في حروب لم نعد نذكر حتى متى حدثت، فقرر والداها أن التاريخ هواية

لا بأس بها وتليق بفتاة مهذبة لا تضيِّع وقتها في تتبع خطوط الموضة ومشاهدة برامج تلفزيون الواقع اللعينة، فلم يحاولا انتشالها من التاريخ إلى أرض الحاضر قطٌّ.

وحين كبرت لم تعد القصص والروايات التاريخية تكفيها، فبدأت اقتناء أي كتاب يتحدث عن تاريخ أي حضارة في أي مكان، وكان هذا لحسن حظ والديها، فكتب التاريخ منتشرة ورخيصة لا تجد من يقرأها، في عصر اندثرت فيه القراءة عامة، وقراءة التاريخ خاصة. ثم بعد أن حصلت سوسن على مجموع يليق بأي كلية في الثانوية العامة، كان اختيارها الوحيد هو كلية الآداب قسم التاريخ، فلم يمانع والداها، ولم يشغلا بالهما بالتساؤل عن أي مصير ينتظر خريجة كلية الآداب قسم التاريخ في مصر، فالإجابة معروفة سلفًا.. ستكون زوجة سامح! سامح ابن جارهم الخجول الذي تبادل معها النظرات فالهمسات فأولى كلمات الحب التي نطقا بها، والذي كان ينتظره مستقبل مشرق بعد أن يتخرج في كلية الهندسة.. سامح الذي لم يكن يُطيق التاريخ، لكنه كان يحب سوسن، وكانت هي تحبه، إلى أن أتى اليوم الذي اكتشفا فيه أن حبهما هذا كان مراهقة لم تصمد أمام قسوة الأيام والنضوج، ليرحل ذات يوم من دون أن يتبادل معها كلمة وداع واحدة.

هكذا تنتهي أغلب قصص الحب عادة، وهكذا تجد سوسن وقتًا أكبر لتمنحه لعشقها الذي لم يفارقها، للتاريخ. ليلتقطها الدكتور مجدي من بين كل طلبته، وليقرر أن يمنحها اهتمامه وتشجيعه وثقته لاحقًا.

في البداية لاحظ ذكاءها وقدرتها الفائقة على الحفظ والاستيعاب.. ثم حين شعر بعشقها للتاريخ قرر أن يمنحها أبوَّته وهو الذي لم يحظَ بابن.

أقصد حينها بالطبع.

بترحاب تلقته سوسن، بكل امتنان أدخلها الدكتور مجدي عالمه، ليحوِّل دراستها للتاريخ إلى أسلوب حياة اتبعته سوسن بكل تفانٍ وإخلاص، تاركة الدكتور مجدي يشكل طريقة تفكيرها كيفما يشاء، فالرجل كان يستحق، وهي كانت تثق به تمامًا.

الدكتور مجدي كان يستمع إليها.. كان يعلِّمها.. كان ينصحها.. كان يشجِّعها.

والدكتور مجدي هو من دمر حياتها لاحقًا!

* * *

مع تعمقها في دراسة التاريخ شعرت سوسن بما شعر به الدكتور مجدي طويلًا.. شعرت بأن هناك رابطًا ما خفيًّا بين كل الفترات المظلمة التي بدأت وانتهت من دون سبب مفهوم.. العامة يرددون أن التاريخ يعيد نفسه، لكنَّ الدارسين يدركون أن هذا التكرار ليس تفسيرًا بقدر ما هو سؤال.. سؤال لو حاولت الإجابة عنه فستجد المزيد من الأسئلة، فالحيرة، فالإحباط.. لتقرر في النهاية أن هناك أشياء تحدث بلا تفسير، لتتركها بدلًا من أن تضيِّع عمرك محاولًا البحث عن واحد.

لكن الدكتور مجدي لم يكن ممَّن يبحثون عن أسهل الحلول، وحين استدعى سوسن إلى مكتبه أول مرَّة ليشرح نظريته، صارحته بأنها ساورها الشعور ذاته من قبل، لكنه لم يقُدْها إلى شيء فقررت تجاهله، ليخبرها هو مبتسمًا:

ـ لكني عثرت على طرف الخيط.

فتبدت الدهشة في عينيها الذكيتين، وسألت:

ـ عثرت عليه؟ كيف؟

ليجيب الدكتور مجدي بصوته الأبوي الذي لم يكن تسلل له الجنون بعد:

ـ بسنوات الدراسة يا عزيزتي.. لا تنسَي أنني أفوقك عمرًا ومعرفة.. ثم إنني أضعت سنوات طويلة من حياتي محاولًا البحث عن إجابة لسؤال واحد، وفي بعض الأحيان ترضى عنَّا الحياة لتمنحنا ما نريد.

ثم إنه فتح مجموعة من المراجع التاريخية العملاقة أمامه، ليشرح:

ـ سنوات طويلة وأنا أبحث عن رابط بين أسوأ فترات التاريخ وأكثرها إظلامًا.. لأجد نفسي محاصرًا بأسئلة أخرى أكثر بساطة وأكثر تعقيدًا في الوقت ذاته.. وفي كل مرَّة كنت أصل إلى طريق مسدود وخيار بأن أترك الأمر كله لشأنه.. لكنني في النهاية عثرت على الشيء الوحيد الذي يربط بين كل العصور المظلمة.

ـ وما الرابط بين هذا كله؟

ـ شيء ما.. هناك شيء ما يربط بين هذا كله.. شيء موجود ولم يشعر به أحد، لكنه لعب دورًا فارقًا في تشكيل التاريخ ذاته.. شيء لا أعرف إن كان ماديًّا حتى أم لا، لكنني على يقين بوجوده.. ولقد قررت البحث عنه وإعادته.

ـ إعادته؟!

ـ نعم يا عزيزتي.. إعادته.. لقد توصلت إلى طقوس استدعائه وساعدتني زوجتي على ترجمتها، وأعتقد أنني فهمت جزءًا لا بأس به منها.. هذه الطقوس لازمة لإعادة هذا الشيء.. لو عثرت عليه.. لو نفذت الطقوس بالطريقة الصحيحة، فسأجد أخيرًا إجابة سؤالي التي بحثت عنها طويلًا.

فصمتت سوسن هذه المرَّة ولم تصارحه بأنها لم تفهم.. خشيت أن تحبطه لو فعلت، وفي أعماقها لم تصدق موضوع الطقوس هذا ولم تشغل بالها به طويلًا.. كلُّ ما قررته يومها هو أن أستاذها ليس بأحمق، وأنه في طريقه لتحقيق إنجاز ما، فلم تشأ أن تعارضه أو تجادله، ليقول هو بعد أن طال صمتها:

ـ سأسافر إلى روسيا قريبًا.. سيطول سفري.. لكني سأعود ومعي الحقيقة.

وهي جملة تذكرتها سوسن طويلًا.

تذكرتها بعد أن حصل الدكتور مجدي على إجازة من الجامعة ليسافر ولتنقطع أخباره حتى كاد الجميع أن ينسوه تمامًا.. لكنها لم تنسَه.

تذكرته دائمًا وتذكرت أمنيته أن يعود يومًا ما حاملًا الحقيقة معه، فتمنت له أن يجدها.

لكنه عاد ومعه ابنه!

* * *

ولم يحاول الدكتور مجدي الاتصال بها بعد عودته قطُّ.

مرَّت أيام فأقنعت سوسن نفسها بأنه يحتاج إلى بعض الوقت.. الرجل عاد بعد سفر طويل ومعه ابن من زوجته التي كانت تظن هي أنها لا تنجب، ولا بد أنه مشغول.. مرَّت أسابيع فشعرت سوسن بالقلق وخشيت أن يكون مريضًا أو يواجه مشكلة ما، لكنها لم تجرؤ على التدخل.. إنها تعرف أن الدكتور مجدي يثق بها ويختصها بأدق أسراره، ولو كان هناك شيء ما حدث ولا يريد أن يخبرها به فهذا حقه.

لكن، وبعد أن مرَّت أشهر طويلة على عودته من دون أن يزور الجامعة حتى، قررت هي زيارته.

كان أداؤها الدراسي قد تأثر بغيابه، وكانت تقضي ساعات طويلة من يومها شاردة تحاول تخيُّل ما فعله الدكتور مجدي في روسيا بالضبط، وما سر اختفائه، ليظن والداها أنها تحب.. القاعدة تقول إن الفتاة التي تشرد تحب.. وابنتهما عاقلة مهذبة وحبها هذا لا بد له أن ينتهي بارتباط وزواج في حفل عائلي بهيج ينقذها من مصيرها المظلم كخريجة كلية الآداب قسم التاريخ في مصر.. لكنها لم تكن تحب ولم تكن تملك الوقت أو الرفاهية لتشعر بما تشعر به سائر الفتيات في مثل عمرها.

عقلها كان هناك.

مع الدكتور مجدي وألغازه التاريخية، وسر انقطاعه عن الحياة بعد عودته من روسيا.

هكذا أتى اليوم الذي استسلمت فيه لفضولها وقلقها، لتنطلق إلى منزله ولتقف أمام بابه مترددة لا تعرف إن كان عليها أن تقطع خلوته الاختيارية

هذه أم لا.. وبينما هي تقف غارقة في حيرتها سمعت صوتًا باردًا ينبعث من داخل الشقة يقول:

ـ يبدو أن لدينا ضيفة.

فانتفضت في مكانها ذاهلة.

مَن صاحب هذا الصوت؟

وكيف عرف أنها تقف أمام باب الشقة الآن؟

سؤالان استغرقت سوسن لحظات في التفكير فيهما، ليفتح الدكتور مجدي باب الشقة فجأة، ولتنتفض سوسن مرَّة ثانية بمجرد أن رأته.

أتذكُر صورة الدكتور مجدي التي يبدو فيها أنيقًا مبتسمًا بثقة والتي رأيناها في ملفه؟ هذا هو الدكتور مجدي الذي تعرفه سوسن والذي قضت معه سنوات طويلة تتعلم منه وتستمع إلى نظرياته.. لكن من فَتَح باب الشقة يومها كان الدكتور مجدي الذي رأيناه في السجن.

كان شاحبًا هزيلًا زائغ النظرات، وكانت الدهشة من نصيبه هو أيضًا حين وجد سوسن تقف أمامه، ليصيح:

ـ ما الذي أتى بك إلى هنا؟!

ـ دكتور مجدي.. أنا.. أنا...

لكن الدكتور مجدي انفجر فيها بغتة وبثورة لم تعهدها فيه قطُّ:

ـ ارحلي الآن.. وإياكِ أن تعودي هنا أبدًا.. أتفهمين؟ أبدًا!

ومن دون أن يمنحها فرصة للرد صَفَقَ الباب في وجهها، لتنتفض مرَّة أخيرة قبل أن تسرع مبتعدة ودموعها تسيل على وجهها عاجزة عن الفهم أو التصديق.. ومن داخل الشقة انبعث الصوت البارد يقول بوضوح كأن صاحبه يقف بجوارها:

ـ *تبدو لطيفة.. سيأتي دورها لاحقًا.*

ليتعالى بعدها صياح الدكتور مجدي يصرخ بأشياء لم تميزها وهي تبتعد عن المكان أكثر فأكثر.

يومها قضت ساعات طويلة تجوب الشوارع وتبكي حتى جفت دموعها وخارت قواها، لتعود إلى منزلها، فغرفتها، ففراشها، لتتكور فيه تحت الأغطية وقد استعادت قدرتها على البكاء من جديد.

الدكتور مجدي طردها! لكنه لم يكن الدكتور مجدي.. لم يكن الشخص ذاته الذي تعرفه والذي اعتبرته أبًا واعتبرها ابنته.. وذلك الصوت.. ذلك الصوت البارد المخيف.. مَنْ صاحبه؟ وكيف شعر بوجودها؟ وما الذي يقصده بأن دورها سيأتي لاحقًا؟!

بالطبع لم تحصل سوسن على إجابات ليلتها.. فقط أخذت ترتجف وتبكي حتى غلبها النوم فنامت.

وفي اليوم التالي عرفت أن زوجة الدكتور مجدي ماتت.

* * *

وكما نسيت سوسنُ سامح حاولت نسيان الدكتور مجدي.

الأول رحل من دون وداعٍ، والثاني طردها بقسوة من منزله.. لكن الأول ترك وراءه ذكرى، والثاني ترك أسئلة.

حاولت أن تنساه.. حاولت أن تدفن نفسها في كتب التاريخ وأن تُخرج الدكتور مجدي من ذاكرتها لتضع مكانه عشرات التواريخ والأحداث والحقائق، لكنها.. لكنها لم تستطع.

حيرتها منعتها.. فضولها منعها.. قلقها منعها.

ثم زارها الدكتور مجدي ذات يوم ليمنعها هو الآخر من نسيانه وإلى الأبد.

* * *

دور سوسن في القصة بدأ مع هذه الزيارة العجيبة، ولو كانت تعرف ما سيحدث لها بعدها لما قضت مع الدكتور مجدي لحظة واحدة.

كانت تجلس وحيدة في الكافيه ذاته الذي اعتادت الجلوس فيه بعد الجامعة، لتحصل على بضع ساعات من القراءة من دون أن يقاطعها أحد، حين شعرت بمن يقف أمامها مباشرة، فرفعت رأسها لتجد ما بدا لها أشبه بشبح الدكتور مجدي ينظر إليها في رجاء لتهبَّ ذاهلة على الفور وقد نسيت في لحظة أنه طردها من منزله ومن حياته، وهمست:

ـ دكتور مجدي!

ـ سوسن.. يجب أن نتحدث.

فحدقت فيه ذاهلة للحظة جلس هو فيها ثم انتظر إلى أن عادت مكانها، ليبدأ:

ـ سوسن.. أنا هنا لأخبرك بالحقيقة.. يجب أن تعرفي كل شيء فلم يعد هناك وقت.. لقد تأخرت كثيرًا فدَفَعَتْ زوجتي الثمن.. لكني لن أتركه يحصل عليك أنت أيضًا.. سأفعل ما كان عليَّ فعله منذ البداية.. سأقتله.. سأحاول.. لكني قد أفشل.. وفي هذه الحالة يجب أن تستعدي.. في هذه الحالة يجب أن تعثري عليه وأن تقتليه.

وهي بداية عجزت معها سوسن عن قول أي شيء مفيد.. بداية كهذه لن تجد معها ما تقوله، وستكتفي بالتحديق ذاهلة في مجدي الذي واصل:

ـ سامحيني يا سوسن.. لم أكن أتمنى أن تصل الأمور إلى هذه الدرجة.. لكنك على الأقل ستعرفين ما لم أعرفه أنا منذ البداية.

ثم بدأ يشرح لها كل شيء، فلم تقاطعه سوسن.. ولم تنطق.. حتى بعد أن انتهى.

وبعد أن تركها ظلت مكانها لساعات طويلة ترتجف وتحاول أن تستوعب ما سمعته.

وفي اليوم التالي عرفت أن الدكتور مجدي قتل ابنه.

* * *

وحين وجدت يوسف ينتظرها أمام المدرَّج في الجامعة لم تندهش، وكأنها كانت تتوقع مجيئه.. لكنها حين رأت شحوب وجهه شعرت بانقباضة في صدرها وسألت:

ـ كيف قتله؟

فحكى لها يوسف ما حدث باختصار مقتضب، لتتحول كلماته إلى

غصة قاسية في حلقها.. لقد مات أستاذها، والآن يأتي دورهما.. احتاجت لبعض الوقت لتتمالك نفسها ولتقول في النهاية:

ـ يجب أن نجلس لنتحدث أكثر.. لم يعد هناك وقت.

فلم يعارضها يوسف.. ولم يجادلها هذه المرَّة.

فقط تبعها باستسلام إلى حيث سيقرران ما عليهما فعله.

٨

في المرَّة الأولى التي رآها فيها كانت سوسن تتلفَّت حولها طيلة الوقت كالمجاذيب، وكانت عيناها تحملان من الذكاء ما يكفي لإخفاء جنونها.. لكن هذه المرَّة كان الشيء الوحيد الذي أطل من عينيها وملامحها هو الخوف.. الخوف والعطش!

كانت تجلس أمامه في الكافيه ذاته، تعبُّ أكواب الماء واحدًا تلو الآخر، وكأنها تختزنه في جسدها، فأخذ يوسف يحدق فيها باستسلام من أصبح لديه القدرة على تقبل أي شيء، قبل أن تنتهي هي أخيرًا لتلهث وتبدأ:

- إذن فلقد رأيت ما يكفيك لتصدق.

هكذا بدأت سوسن.. وهكذا أصغى لها يوسف صامتًا، لتواصل:

- لقد قتله الشيء.. انتقم منه طويلًا، وفي النهاية سَئِم منه فقتله.. ثم إنه لم يعد في حاجة إليه بعد أن حصلنا نحن على اهتمامه.. وهذا يعني أنه دورنا.

فتخيل يوسف جسده وقد أخذت عظامه تتهشم بمطارق خفية لينتفض، قبل أن يسأل:

ـ وما هذا الـ... الشيء؟

ـ ما أعرفه عنه هو أنه كان موجودًا منذ مولد التاريخ ذاته، وأنه باقٍ حتى نهايته.. وما توصَّل إليه الدكتور مجدي هو أن لديه القدرة على احتلال الأجساد بعد موتها ليتحرك بها، فيبدو الأمر كأنما أعادها إلى الحياة.. هكذا كان يظهر عبر الزمن في صورة من يحتل جسده ليتلاعب في التاريخ فلا يتركه إلا وقد خلَّف مِن ورائه الموت والظلام.. هذه كانت لعبته التي مارسها طويلًا قبل أن يختفي فجأة ومن دون سبب مفهوم.. إلى أن اكتشف الدكتور مجدي وجوده ليقرر البحث عنه.

قالتها وصمتت للحظات لتمنح يوسف فرصة للتعليق على قرار الدكتور مجدي، لكنه لم يفعل.. فقط الحمقى من يرددون عبارة «ويا ليته ما فعل» وكأنها قادرة على إعادة الزمن إلى الوراء، أما يوسف فيملك من سوء الحظ ما يكفيه ليدرك أن ما حدث قد حدث ولم يعد هناك مفر من مواجهته.. لهذا لم يعلِّق، ولهذا واصلت سوسن مجيبة عن سؤال يوسف الذي لم يسأله:

ـ كان أستاذي يخشى أنه سيعود إن عاجلًا أو آجلًا، فأراد الوصول إليه أولًا ليقضي عليه.. لهذا بحث عنه في التاريخ إلى أن توصَّل إلى طقوس استدعائه، وهو لم يكن بالأمر اليسير، لكنه وجدها ووجده ليعود به في جسد الطفل إلى هنا وزعم أنه ابنه.

ـ ولماذا لم يتخلَّص منه مباشرة؟

ـ لأنه.. كما أن هناك طقوسًا خاصة لاستدعاء الشيء.. هناك طقوسٌ أخرى للقضاء عليه.. طقوس بحث عنها الدكتور مجدي طويلًا

من دون أن يعثر عليها أبدًا.. دعك من أنه كان يبحث عنها والشيء معه يعيش بجواره وأسفل السقف ذاته.. يعيش معه ويراقبه وهو يبحث عن طريقة للقضاء عليه باستمتاع لا حد له، قبل أن يقرر أن يمرح قليلًا بزوجته ليقتلها تدريجيًّا، بعدها أتى دور الدكتور مجدي و.. وأنت تعرف كيف انتهى به الأمر.

قالتها وأغمضت عينيها بقوة لتحبس دموعًا كادت تجد طريقها إلى وجنتيها، لكن يوسف رآها فتجاهلها ليقول:

ـ إذن لا توجد طريقة للتخلص من هذا الشيء.

ـ نعم.. توجد.. طقوس النهاية ستقضي عليه لو عثرنا عليها.. والمطلوب منا الآن شيئان: أولًا البقاء على قيد الحياة، وهذا لن يكون سهلًا.. فالشيء يعرف أننا نبحث عنه.. وثانيًا العثور على طقوس النهاية وبأقصى سرعة ممكنة.. أكرر.. لن يكون الأمر سهلًا، لكن.. لا خيار أمامنا.

ـ عظيم.. وكيف سنبدأ؟

ـ بالطريقة ذاتها التي بدأ بها الدكتور مجدي.. بالبحث في التاريخ.. الدكتور مجدي ترك لي كتبه وملاحظاته، ومنها عرفت أن هذا الشيء كان يوجد في أكثر عصور الظلام ظلامًا ودموية.. سنبحث في أشْهَر الحروب والمجازر والأهوال التي حدثت عبر التاريخ وسنجده.. هكذا عثر عليه الدكتور مجدي.. وهكذا علينا أن نجده.

ـ رائع!

ـ ما هو الرائع؟!

ـ توقعتُ الأسوأ منكِ فلم تخيبي ظني.. أنت تطلبين أن نبحث عن هذا.. هذا الشيء في كتب التاريخ كأننا سنجده في إحدى الصفحات ينتظر أن نطويها كيلا يضيع منا ثانية.

فقالت هي هذه المرَّة:

ـ رائع!

ـ ما هو الرائع؟!

ـ توقعت أنك ستكون أحمق فلم تخيِّبْ ظني.. ما سنبحث عنه في كتب التاريخ هو موقعه.. المكان الذي بدأ منه والذي يعود إليه في كل مرَّة.. وفي كتب التاريخ أيضًا سنبحث عن طقوس النهاية.. طقوس إعادته تركها لي الدكتور مجدي، وهي تصلح لاستدعائه، لكنها بلا قيمة لو لم نعرف طقوس القضاء عليه.

فاتضحت الصورة نوعًا ما ليوسف، ليقول:

ـ وهذا البحث.. أتوقع أنه سيستغرق منا وقتًا.. وأنت ترددين باستمرار أنه لا وقت أمامنا.

ـ لهذا سنبحث معًا.. هذا سيختصر بعض الوقت.

ثم أخرجت ورقة من حقيبتها.. ناولت يوسف إياها، مردفة:

ـ هذه قائمة بالكتب التي ستبحث فيها.. لا تبدو لي من عشاق التاريخ، لكنك لن تقرأ هذه الكتب لتحصل على الدكتوراه.. كل ما عليك هو البحث عن الفترات المظلمة في التاريخ لتقرأ كل التفاصيل اللازمة عنها.. أي طقوس تجدها خلال قراءتك دوِّنها على الفور.. سنكون على

اتصال، ومن يعثر على شيء أولًا فعليه أن يبلغ الثاني فورًا.. أنصحك بالحصول على إجازة من عملك فلن تجد وقتًا له الفترة المقبلة.

ـ لقد استقلت منه.

ـ أحسنت فعلًا.. لا أصدق أنك كنت في مجلة اسمها «المجلة».. ما الذي دفعك للعمل فيها؟

فأجابها يوسف بسخرية لم تفهمها:

ـ حسن حظي.

ثم بدأ قراءة أسماء الكتب في القائمة، فلم يجد فيها اسمًا واحدًا يغريه للقراءة.. قالت سوسن وهي تستعد للرحيل:

ـ لا يوجد لديَّ شيء آخر لأقوله.. ابدأ فورًا.. ولو عثرت على أي شيء فستجدني هنا.

فطوى يوسف الورقة ودسها في جيبه ليقول:

ـ لديَّ سؤال أخير.

ـ اسأل.

ـ ما الذي يضمن لي أن هذا الشيء لم يحتل جسدك وأنه هو الآن يحاول إضاعة وقتي في هذه الكتب إلى أن يقتلني؟

فابتسمت هي ساخرة لتجيب:

ـ لأن هذه السخافات لا تحدث إلا في روايات الرعب، لكنه الواقع يا عزيزي.. وعلى أرض الواقع.

ووقفت لتردف مبتسمة وبلهجة درامية لازمة:

ـ قد يموت البطل.

ثم تذكرت شيئًا ما لتسأل:

ـ ألم يزرك بعد؟

ـ لا.

ـ إذن استعد.. سيزورك قريبًا.. لن يتركك تنتظره أكثر من هذا.

ومن دون أن تنتظر رده أخذت حقيبتها ورحلت.

* * *

هكذا عاد يوسف إلى شقته حاملًا أطنانًا من كتب التاريخ وذكريات يومٍ طويل. يومٍ بدأ بتكليف من مدير التحرير، فمقتل الدكتور مجدي أمامه فاستقالته فلقائه بسوسن، فإدراكه أنه أصبح جزءًا مما يحدث رغم أنفه.. ويوم كهذا يستحق أن ينتهي بالنوم.. نعم.. النوم هو الخيار الأفضل بعد كل ما مرَّ به، وبعدها سيستيقظ وقد استعاد قدرته على التفكير ليبدأ مهمته الشاقة التي تفرغ لها تمامًا.

هكذا ألقى بالكتب على الطاولة، وألقى بجسده على الفراش، وبعقله في عالم الأحلام.. وكما وعدته سوسن لم يكن عليه أن ينتظر أكثر.

فحين أشارت عقارب الساعة إلى تمام منتصف الليل تلقَّى يوسف زيارته الأولى!

* * *

لن ينسى يوسف هذه الليلة ما تبقَّى له من عُمر، ففيها التقى هذا الشيء أول مرَّة، وفيها كان لقاؤه الثاني مع الدكتورة ليلى، لكن لنحكِ كل شيء بترتيب حدوثه.

والمشهد أمامنا الآن واضح ومن السهل تخيله.. يوسف بجسده النحيل نائم على فراشه في غرفة نومه المضاءة - إذ كان يحتاج إلى شجاعة لا يملكها ليعود للنوم في الظلام بعد كل ما عرفه - والشقة في الخارج تصدر ذات الأصوات التي تعتاد الشقق إصدارها لمن يعيشون بمفردهم فيها.. عقارب المنبه تتحرك بإيقاع منتظم مقتربة من منتصف الليل تمامًا، وبعض الهواء البارد يتسلل من نافذة غرفة النوم المفتوحة لتتراقص ستائر الغرفة من دون أن يستمتع برقصها أحد.

في الصالة ترقد كتب التاريخ على الطاولة الوحيدة في المكان، تنتظر أن يستيقظ يوسف غدًا، وخارج البناية يتقوَّس ظهر إحدى القطط وينتصب شعرها، قبل أن تسرع هاربة شاعرة بشيء ما سيحدث بعد قليل.. إنها الثانية عشرة إلا دقيقة واحدة، والمشهد أمامنا يبدو طبيعيًّا لا يوحي بأي شيء، لكن.. وفي اللحظة التي أشارت فيها العقارب إلى تمام منتصف الليل حدثت عدة أشياء في الوقت ذاته، لو رآها يوسف لتقوس ظهره وانتصب شعره قبل أن يولي دبره هاربًا من المكان هو الآخر، لكنه كان نائمًا لحسن حظه هذه المرَّة.. أو لسوئه!

ففي لحظة واحدة انقطعت الكهرباء عن الشقة لتخمد أصواتها، وانغلق زجاج نافذة غرفة النوم لتتوقف الستائر عن الرقص مرغمة، وغزت المكان برودة عجيبة شعر بها يوسف على الرغم من نومه، ففتح عينيه محاولًا

تذكر مَن هو وأين هو، ليتصاعد ذلك الصوت البارد العابث من ركن الغرفة، يقول:

ـ أنت تبحث عني.

سمع يوسف الصوت فانتفض معتدلًا وقد تذكر مَن هو، وأنه في غرفة نومه، لكنه لم يرَ مصدر الصوت من الظلام المطبق على المكان، والذي انبعث من جديد ليقول:

ـ حذروك من أن تكون بمفردك.. كان يجب عليك أن تستمع إلى نصيحتهم.

فانتفض يوسف من جديد من دون أن يجرؤ على التحرك من مكانه، وقد عجز عن رؤية أي شيء من حوله، كأنما فقد بصره.

قال الصوت البارد العابث:

ـ ستحاول قتلي.. لكن كيف؟ كيف ستقتلني وأنت عاجز عن رؤيتي حتى؟

للحظة تمنى يوسف أن يكون هذا الصوت هو صوت سوء حظه يداعبه كعادته، لكنه كان يعرف أنه ليس هو.. سوء حظه ينبعث من داخل رأسه لا من خارجه.. وصوت سوء حظه ليس مخيفًا كهذا الصوت الذي واصل:

ـ أنا هنا لأساعدك.. اللعبة لن تكون ممتعة لو لم أساعدك.

فالتفت يوسف إلى مصدر الصوت ليجد الظلام أمامه يتوهج، قبل أن يتشكل فيه جسد طفل صغير في العاشرة، يقف ينظر إليه مباشرة بعينين

قاسيتين.. الطفل ذاته الذي رآه يوسف في الصور، والذي رأى رأسه مغروسًا في الجدار، لكنه كان يقف أمامه هذه المرَّة كامل الجسد متوهج العينين.. وكان يبتسم!

ابتسامة انخلع لها قلب يوسف في صدره، واختنق معها صوته في حلقه، ليقول الطفل الذي ليس طفلًا:

ـ سنبدأ لعبتي قريبًا.. لكن وقبل أن نبدأ يجب أن تعرف أكثر.. والبداية تنتظرك هناك.. في منزلها.

قالها فأدرك يوسف على الفور أنه يتحدث عنها.. عن الدكتورة ليلى!

لم يفهم كيف عرف أنها الدكتورة ليلى، ولا لماذا، لكنه أيقن أنها المقصودة، فلم يسأل ولم ينتظر الشيء رده، بل قال:

ـ في منزلها ستعرف أكثر ما أنت مُقدمٌ عليه.. وبعدها سنبدأ اللعبة.. سنستمتع كثيرًا، وهذا ما أعدك به.. لكنك في النهاية...

واقترب منه الطفل وقد تلاشت ابتسامته ليردف بقسوة انتفض لها جسد يوسف مرَّة ثالثة:

ـ ستدفع الثمن.

وفي اللحظة التالية عادت الحياة لمصباح الغرفة فجأة ليُضيء الغرفة، وليغلق يوسف عينيه مرغمًا، قبل أن يفتحهما ليجد أنه عاد إلى وحدته من جديد.. تلفت حوله ذاهلًا فلم يجد أحدًا.. انتزع نفسه من الفراش وجاب شقته كلها فلم يجد أحدًا.. بحث أسفل الفراش وفي خزانة ملابسه ووراء الثلاجة فلم يجد أحدًا.

لكنه على الرغم من هذا أسرع مغادرًا المكان ليدخل سيارته وليُحكم إغلاقها عليه قبل أن يبدأ الصراخ.

صرخ.. وصرخ.. وصرخ.

وحين فقد صوته في النهاية أدار محرك السيارة وانطلق إلى هناك.

إلى منزل الدكتورة ليلى!

٩

وهذه المرَّة لم يجدها في انتظاره.

وأمام منزلها جلس في سيارته يحاول استجماع ما تبقى من أعصابه، محاولًا إقناع نفسه بأن ما حدث كان كابوسًا لا أكثر.. فلم يقتنع.. وفي رأسه تعالى صوت سوء حظه يردد مؤكدًا:

ـ لم يكن كابوسًا.. لقد كان هو.. هو.

فهمس يوسف لنفسه:

ـ أعرف.. اخرس كي أتمكن من التفكير.

ـ التفكير في ماذا؟ أنت لن تحاول التسلل إلى منزلها.. أليس كذلك؟

فلم يجب يوسف وإن أدرك أنه يعرف إجابة السؤال.

بالطبع سيدخل!

لقد تلقى زيارته الأولى من هذا الشيء، وهو الذي أرسله إلى هناك ليحصل على طرف الخيط.. إنه يريد مساعدته ليجهزه للعبة.. أي لعبة؟ سيعرف حين يحصل على طرف الخيط.

وطرف الخيط ينتظره هناك.. في الداخل.. في منزل الدكتورة ليلى التي رفضت التحدث إليه، والتي لن تغيِّر رأيها لمجرد أن يوسف قرر زيارتها بعد منتصف الليل بساعة أو بأكثر.. الحل إذن هو التسلل إلى منزلها من دون أن تشعر به.. لكن...

كيف؟

يوسف سيِّئ الحظ، نعم.. كان يعمل صحفيًّا في مجلة اسمها «المجلة»، نعم.. عليه الآن أن يبحث عن شيء ما غامض قديم قِدَمَ التاريخ ذاته ليقتله، نعم.. لكن أن يتسلل إلى منزل دكتورة تعيش بمفردها فهذا شيء آخر.. شيء قد ينتهي بكارثة لو شعرت به.

ـ *لو شعرت بك فستبلغ الشرطة وسينتهي بك الأمر في السجن.. سيحدث لك ما حدث للدكتور مجدي.*

قالها سوء حظه في رأسه، فانفجر صارخًا:

ـ قلت لك اخرس!

فخرس الصوت في رأسه، وبدأ هو في تجهيز الخطة التي سيقتحم بها منزل الدكتورة ليلى.

* * *

وأمام باب الفيلَّا الخلفي وقف يوسف محاولًا استرجاع كل ما كتبه عن حوادث السرقة، علَّه يجد طريقة مناسبة للدخول.

هناك من يقتحمون الشُّقق بغرس أداة خاصة في الرتاج لفتحه، لكنه لا يملك تلك الأداة، ولا يجيد استخدامها.. هناك من يذيبون الرتاج بأداة

لحام، لكنه ـ مرَّة أخرى ـ لا يملكها، ولن يخاطر بالضوضاء التي ستُحدِثها.. هناك من يركلون الأبواب برشاقة لتنخلع من إطارها، لكن هؤلاء لا وجود لهم إلا في الأفلام الرديئة.. وهناك ذلك اللص الذي كتب عنه يوسف ذات مرَّة، والذي كان يعتمد على حقيقة أن أصحاب الفيلات يتركون مفتاحًا احتياطيًّا مخبأً في مكان ما خارج الفيلَّا، ليتمكنوا من دخولها في حالة ضياع مفتاحهم.. هكذا كان اللص يبحث بدأب وصبر عن المفتاح الاحتياطي حتى يجده ليدخل الفيلَّا ببساطة كصاحبها ويتركها وقد أخذ منها كل ما خفَّ حمله وغلا ثمنه.

والآن يتمنى يوسف لو يفارقه سوء حظه ولو لساعة، لتكون الدكتورة ليلى ممن يتركون مفتاحًا احتياطيًّا في مكان ما حول الفيلَّا، وليجده ليدخل المكان من دون أن تشعر هي به، فقرر سوء حظه تحقيق أمنيته، لكنه قال:

ـ حتى لو دخلت.. فما الذي ستبحث عنه في الداخل بالضبط؟

ـ طرف الخيط.

ـ والذي هو... أنت لا تعرف ما تريد العثور عليه.

ـ سأعرف حين أجده.

فلم يجادله سوء حظه هذه المرَّة وانتحى جانبًا ليتركه يبدأ البحث عن المفتاح الذي سيقوده إلى الداخل.. إلى حيث لقاؤه الثاني مع الدكتورة ليلى.

* * *

وأنت تعرف أنه عثر على المفتاح في النهاية، فأنت تعرف الآن أنه سيدخل، وأنه سيلتقي الدكتورة ليلى ثانية.

عثر على المفتاح مخبأً في مكان ما قُرب الفيلّا.. لن يُمكنني أن أخبرك به فإغراء أنه قد يأتي اليوم الذي ستحاول فيه دخول الفيلّا أنت الآخر لا يقاوم، والفيلّا لا تزال هناك حتى يومنا هذا، ولا تزال الأسرار التي لم يعثر عليها يوسف ليلتها موجودة تنتظر من يجدها لتدمر حياته.. ما يهمك الآن معرفته هو أن يوسف عثر على المفتاح ليتسلل داخلًا من الباب الخلفي، وليجد المكان في انتظاره مظلمًا باردًا، يحوي طرف الخيط الذي عليه أن يبحث عنه ليبدأ اللعبة.

وفي اللحظة التي دخل فيها يوسف الفيلّا ارتجف لحقيقة أنه الآن في الداخل، وأن الدكتورة ليلى ترقد الآن في غرفة نومها من دون أن تشعر به.. وأنه الآن ـ ومهما كان مبرره ـ يُعتبر لصًّا، ولو شعرت هي به فسيكون من حقها أن تبلغ عنه أو أن تقتله حتى لو أرادت من دون أن يلومها أحد.

وأنه الآن ينفذ ما طلبه منه هذا الشيء من دون أن يجرؤ على مخالفة أوامره!

هذه النقطة بالذات استوقفته طويلًا، ومنذ اللحظة التي قاد فيها سيارته متجهًا إلى هنا، لكنه لم يعثر لها على تفسير يرضيه.. الشيء أخبره بأنه يحاول مساعدته.. لكن لماذا؟

ليبدأ لعبته؟ وما هي لعبته؟ وكيف ستنتهي؟ بدفع الثمن كما وعده الشيء؟ وفي هذه الحالة.. لماذا استجاب له؟

لماذا لم يحاول الهرب والنجاة بنفسه من هذا كله؟

كلها أسئلة سيضمها إلى قائمة أسئلته التي ليس لها إجابات، وكلها أسئلة عليه أن يتجاوزها الآن ليبدأ بحثه عن طرف الخيط الذي

سيساعده على فهم ما هو مُقْدِمٌ عليه.. والسؤال الأهم الآن هو: من أين سيبدأ بحثه؟

الفيلَّا أمامه واسعة مكونة من طابقين، وعدد لا بأس به من الغُرف، وفي كل غرفة عشرات الأشياء، وفي كل شيء احتمال أن يكون هو طرف الخيط الذي عليه أن يعثر عليه.. دعك من أن الساعة الآن تجاوزت الثانية صباحًا، ومن أنه لن يقضي يومه كله هنا.. الشمس ستشرق بعد ساعات قليلة، وحينها ستستيقظ الدكتورة ليلى، وسيكون من الأفضل له ولها أن يكون قد عثر على ما أتى من أجله ورحل وإلَّا... هكذا وقف وبدأ على ضوء القمر البحث بعينيه عن نقطة البداية، ليتوقف عند صورة الدكتورة ليلى وزوجها وطفليها، والتي يبتسمون فيها بسعادة يبدو أنها لم تجد للفيلَّا طريقًا منذ زمن طويل.

تلك الصورة التي رآها يوسف لتسري قشعريرة باردة في جسده من دون سبب مفهوم، قبل أن يقرر أن نقطة البداية ستكون هناك.

في قبو الفيلَّا.

* * *

لماذا القبو؟ لأن كل الأسرار توجد في القبو دائمًا!

ضع نفسك مكان يوسف في هذه الليلة وستجد نفسك تتجه إلى القبو لا شعوريًّا وأنت تتوقع الأسوأ في انتظارك، لتجد أن تصرف يوسف كان أقرب إلى المنطقية بصورة أو بأخرى.. والآن سترى بنفسك أن يوسف كان موفقًا في اختياره.

باب القبو كان أسفل الدرج الذي يقود إلى الطابق العلوي، حيث تنام الدكتورة ليلى في غرفتها من دون أن تشعر بيوسف الذي فتحه بحذر

شديد، ليبتلعه إلى ظلامه متذكرًا ـ بعد فوات الأوان ـ أنه لم يُحضر معه أي شيء يصلح لإضاءة الطريق أمامه، لكنه لم يتوقف مكانه بل أخرج هاتفه المحمول وأضاء شاشته، ليتحسس بضوئها الخافت طريقه هابطًا الدرج ببطء شديد.

أسفل قدميه أخذ السلم الخشبي يئن مع كل خطوة، فتوسل إليه يوسف أن يصمت وأن يتحمَّله إلى أن يبلغ نهايته، متجاهلًا حقيقة أن القبو كان باردًا بصورة غير طبيعية.. برودة لن تشعر بمثلها في أقسى ليالي الشتاء.. برودة لم يشعر بها يوسف إلا حين زاره ذلك الشيء في شقته.. برودة أخبرته بأن ما يبحث عنه يوجد هنا.. في القبو!

انتهى الدرج أخيرًا ليجد يوسف نفسه في ظلامٍ مطبق بارد أحاط به من كل صوب من دون أن يؤثر فيه ضوء شاشة هاتفه المحمول ولو قليلًا، فتوقف مكانه للحظات مفكرًا قبل أن يهمس لنفسه:

ـ بالطبع لو بحثت عن زر الإضاءة فلن أجده، أو سأجده لا يعمل.

فلم يخيِّب سوء حظه ظنه، إذ عثر على زر الإضاءة بعد دقائق طالت تحسس فيها الجدران كالعميان، ليجد أنه لا يعمل بالفعل، فتنهد وعاد يتحسس طريقه داخل القبو باحثًا عن شيءٍ ما لا يعرفه، ليشعر بيديه تقبض على أشياء غير مفهومة.. شيء خشبي ذي مسامير حادة.. شيء بلاستيكي القوام يبدو كلعبة أطفال.. شيء قذر من المستحيل معرفة كنهه في هذا الظلام.. ثم شيء رخو بارد يبدو كيد بشرية!

يد قبض عليها يوسف في الظلام لينتفض صارخًا، قبل أن يضع يده على فمه مُخْرِسًا نفسه، ومتمنيًا ألا تكون صرخته قد بلغت الدكتورة ليلى

في الأعلى.. احتاج إلى لحظات ليسيطر على نفسه قبل أن يَمُدَّ يده بحذر شديد ليتحسس تلك اليد البشرية من جديد؛ ليتأكد من أنها كذلك بالفعل، وليتتبعها إلى جسد طفلة رقدت على مقعد في ظلام القبو، فاغرة الفم جاحظة العينين، فلم يحتج يوسف لضوءٍ ليعرف من هي.. لقد رأى صورتها منذ قليل وكانت تبتسم فيها بسعادة، لكنها الآن ترقد جثة هامدة في قبو الفيلَّا!

ومتحمِّلًا امتعاضه وتلك الرغبة العنيفة التي داهمته ليفرغ حمض معدته على أرضية القبو، واصل يوسف تحسس الجثة ليجد جثة أخرى تجلس بجوارها، لكنها كانت هذه المرَّة لطفلٍ تكوَّر على نفسه بجوار جثة أخته محتضنًا دميته، وبجوارهما كانت جثة الأب على مقعد آخر أشد برودة.. ومهشَّمة الرأس.

ثلاث جثث لأسرة كانت سعيدة يومًا، وكانت ليلى جزءًا منها قبل أن تفقد عقلها، لتعيش بمفردها في هذه الفيلَّا اللعينة، وجثث زوجها وطفليها ترقد في القبو.. ثلاث جثث هي طرف الخيط الذي كان على يوسف أن يجده، وها هو يتحسسها الآن عاجزًا عن معرفة ما عليه فعله بالضبط.

لن يبلغ الشرطة بالطبع إلا إذا أراد أن يفسر لهم ما أتى به إلى هنا في الأساس.. لن يهرب، فهو لم يحصل على شيء ما فعليًّا، ومجرد عثوره على الجثث لا يكفي لاعتباره طرف الخيط المنشود.. ولن يستجيب لتلك الرغبة المسيطرة عليه الآن بأن يحرق الفيلَّا بما فيها قبل أن يرحل بلا عودة، فما الذي عليه فعله إذن؟

إنه الآن في قبو بارد يحوي ثلاث جثث يبدو من انتفاخها أن زمنًا قد مرَّ عليها هنا.. فما.. الذي.. عليه.. فعله؟!

تصاعد صوت سوء حظه في رأسه يصرخ هلعًا:

ـ عليك أن تهرب.. ما الذي تنتظره؟

ـ لكني لم أحصل على شيء.

ـ وما الذي تريده أكثر من هذا؟ ثم إنني أسمع صوت خطوات تقترب.. اهرب قبل فوات الأوان!

فانتبه يوسف إلى صوت الخطوات التي بدأت هبوط الدرج متجهة إلى القبو ليتوقف قلبه عن الخفقان في صدره.

إنها هي.. هي.. الدكتورة ليلى.

تهبط الدرج حافية القدمين ليئن السلم الخشبي، ولينتبه يوسف إلى ثلاثة أشياء في الوقت ذاته: أولًا هي تهبط الدرج من دون أن تحمل شيئًا يضيء الطريق أمامها، كأنها ترى في الظلام. ثانيًا هناك شيء ما يرقد في فم جثة ابنتها ويعكس ضوء شاشة هاتفه الشاحب. وأخيرًا ـ وهذا هو الأهم ـ حقيقة أن وجود ثلاث جثث في قبو الدكتورة ليلى تعني أنها هي مَن قتلتهم! هذا هو الاحتمال الأقرب إلى المنطقية، وإلا فلِمَ تحتفظ الدكتورة ليلى بجثثهم هنا؟

الدكتورة ليلى قتلت زوجها وطفليها وأخفت جثثهم في القبو، وها هي الآن تهبط إلى القبو لأنها شعرت به لتقتله هو الآخر قبل أن يفشي سرها.. والسؤال الذي يتكرر كثيرًا هذه الليلة هو: ما الذي عليه فعله الآن؟

ـ اختبئ أيها الأحمق!

صاح بها سوء حظه في رأسه، فاستجاب له على الفور، ليطفئ شاشة هاتفه المحمول ويسرع مختبئًا خلف المقعد الذي رقدت عليه جثة طفلة

الدكتورة ليلى، التي بلغت القبو لتقف فيه صامتة للحظات، مرَّت على يوسف كأعوام وأعوام.

ولا إراديًّا توقف يوسف عن التنفس وكأنه يخشى أن تسمع الدكتورة ليلى صوت أنفاسه، ليعود قلبه إلى الخفقان بقوة معترضًا وليدوي طنينه في رأسه، بينما وقفت الدكتورة ليلى في ظلام القبو من دون أن تصدر أدنى صوت، كفهد يستعد للوثوب على ضحيته.. وعلى الرغم من الظلام المطبق على المكان تخيلها يوسف تقف أمامه على مسافة منه بشعر ثائر ونظرات زائغة، تنتظر أن يكشف يوسف عن مكانه لتنقض عليه.

أو ربما هي تقترب منه الآن من دون أن يشعر بها أو يراها!

ربما كانت الآن تقترب منه بحذر بالغ حاملة في يدها ما هشَّمَتْ به رأس زوجها الذي يرقد الآن على مسافة سنتيمترات منه بنصف رأس وجسد منتفخ لسوء التهوية!

ربما هي الآن ترفع يدها في الهواء لتهوي بمِطرقة أو سكين أو حتى سيف ساموراي على رأسه، وحينها لن يشعر هو إلا بشيء يرتطم برأسه، ثم سينتهي كل شيء!

- على الأقل سينتهي دورك في هذه القصة عند هذا الحد.

همس بها سوء حظه في رأسه، فلم يجرؤ على الرد، بل أغمض عينيه في قوة منتظرًا الموت.. لكن.. لكن لم يحدث شيء!

لم تهوِ الدكتورة ليلى على رأسه بشيء، ولم يتحمَّل هو كتمان أنفاسه أكثر من ذلك فترك صدره يجذب بعض هواء الحياة إلى رئتيه، ليتصاعد صوت الدكتورة ليلى تقول بهدوء زاده رعبًا:

ـ أنا أعرف أنك هنا.

لا مبرر للاختباء إذن.. إنها تعرف أنه موجود.. لكنها لا تراه كما لا يراها، أو هذا ما يتمناه.. وفي هذه الحالة لن يكشف لها عن موقعه لتنقض عليه وتقتله.

لهذا حافظ على صمته، فواصلت هي بذات الهدوء المخيف:

ـ كنت أعرف أنك ستعود.

وعلى الرغم من أنه عاد إلى التنفس، فإن قلبه واصل الخفقان بعنف في صدره، لتردف هي:

ـ سألتني عن عائلتي.. أنت الآن تعرف إجابة سؤالك.. لكنك لم تفهم بعد.

ولأن عقله لم يتوقف عن العمل، لسوء حظه، تذكَّر ذلك الشيء اللامع في فم الطفلة، وقرر أن عليه أن يحصل عليه ليخرج من هنا فورًا.. إنه طرف الخيط.. بالتأكيد هو.. ما هو بالضبط؟ لا يعرف.. لكنه كان يلمع، ومجرد وجوده في فم جثة طفلة يعني أنه طرف الخيط!

ـ هو مَن أقنعني بقتلهم.. أخبرني بأن هذا سيحميهم ممَّا هو قادم.

قالتها الدكتورة ليلى، فقرر هو تجاهلها مفكرًا في الطريقة التي سيحصل بها على الشيء الذي في فم ابنتها، لتواصل:

ـ أخبرني بأن هذا هو الخيار الوحيد.. وأنني لو قتلتهم الآن فسيعيدهم هو في الوقت المناسب.

يمكنه أن يمدَّ يده بحذر.. مستغلًّا أنها لا تراه.. إلى فم الطفلة.. سيتحسس طريقه وسيتجاهل حقيقة كونها جثة ولطفلة و... مهلًا.. أقالت سيعيدهم؟!

ـ لقد وعدني.. لكنه طلب مني المقابل.. أخبرني بأنك ستأتي.. وأن عليَّ أن أتركك أول مرَّة.. لكن في المرة الثانية...

وهنا أردفت بهمس رددته جدران القبو:

ـ يجب أن أقتلك.

فتجمد يوسف مكانه وفقد رغبته في التنفس من جديد.

هكذا ستنتهي القصة إذن.. ستقتله الدكتورة ليلى وستترك جثته في القبو مع عائلتها السعيدة، وسيكون الشيء قد خدعه بأن أرسله إلى هنا منذ البداية.. نهاية تليق به وبسوء حظه، لكن الفارق الوحيد هذه المرَّة هو أنه قرر ألا يستسلم لسوء حظه.

سيحصل على طرف الخيط وسيخرج من هنا بأي طريقة.

هكذا أخذت يده تتحسس وجه الطفلة بسرعة وتقزز إلى أن عثر على فمها ليدس أصابعه فيه، وليبدأ استخراج ما أتى من أجله، في اللحظة التي قالت الدكتورة ليلى فيها:

ـ أرجوك لا تحاول الهرب أو المقاومة.. سأقتلك بأسرع طريقة ممكنة ولن تشعر بشيء.. أعدك بهذا.

لكنه لا يريد الموت.. وذلك الشيء المعدني في فم الطفلة لا يريد الخروج.. الوغدة الصغيرة تقبض عليه بأسنانها.

ـ والآن.. أين أنت؟

تسأل الدكتورة ليلى بهدوء لم يعد مقبولًا بعد كل ما قالته، بينما يجاهد

هو لانتزاع ما ميَّزت أصابعه أنه مفتاح من فم الطفلة، قبل أن تبدأ الدكتورة ليلى في التحرك تجوب القبو بحثًا عنه.

إنه لا يستطيع التحرك وإلَّا كشف مكانه.. والقبو ليس كبيرًا، ولن تحتاج الدكتورة ليلى إلا لدقائق معدودة لتكون قد بحثت في كل شبر فيه حتى في هذا الظلام المطبق على المكان.. وهذا المفتاح اللعين لا يريد الخروج من فم الطفلة اللعينة!

تنادي الدكتورة ليلى بلهجة أقرب إلى المداعبة، لكنها لا تبث إلا الرعب في أوصاله:

- يوووووووووسف.. أين أااااانت؟

فيجيبها سوء حظ يوسف في رأسه:

- *هنااااااا*.

وتُحكم أصابع يوسف المرتجفة على المفتاح أخيرًا، لتبدأ في جذبه بقوة إلى خارج فم الطفلة.

- يوووووووووسف.. أنا أعرف أنك هنااااااا.

كأنهما يلعبان «الاستغماية» مع فارق أنها ستقتله لو عثرت عليه.. المفتاح يبدأ في التحرك، وإن بدأ يحتك بأسنان جثة الطفلة بصوت مسموع.

- يوووووووووسف.. لا أريد أن أقضي الليلة هنا فأنا لم أنم جيدًا.

وهو يكره أن يحرمها من حقها في النوم كما يكره أن تحرمه من حقه في الحياة.. المفتاح يكاد يخرج.. كل ما يحتاج إليه هو سنتيمتر إضافي و.. و..

وهبطت يد الدكتورة ليلى على كتفه فجأة، لينتفض وليخرج صوتها ظافرًا قاسيًا هذه المرَّة وهي تقول:

ـ عثرت عليك.

* * *

وحين خرج يوسف أخيرًا من الفيلَّا كان يجفف يديه من دماء الدكتورة ليلى في ملابسه وكان قد تغيَّر إلى الأبد.

ثمة شعور يسيطر على المرء حين يقتل لأول مرَّة، هو مزيج من البرود والاشمئزاز والثقة والارتياح.. وهذا الشعور كان مسيطرًا على يوسف تمامًا، فاتجه إلى سيارته بخطوات هادئة، واستند إليها ليفرغ معدته جوارها، قبل أن يدخلها ليجلس، يحاول تمالك نفسه مسترجعًا ما حدث في اللحظات الأخيرة.

لقد قتلها.. قتلها.. قتلها.. قتلها.

قتل الدكتورة ليلى!

انتزع السكين الضخم الذي كانت تمسك به من يدها وغرسه فيها لينقذ حياته.. لم يكن أمامه خيار آخر، ولم يرَ حتى في أي مكان غرسه في جسدها.

كل ما شعر به هو أن السكين يمزق بعض الملابس والأنسجة لتنهي العظام رحلته في الجسد، ثم تراخى الجسد ليتحول من «جسد» الدكتورة ليلى إلى «جثتها»، قبل أن تتكوم على الأرض بجواره ودماء الحياة تفارق جسدها بلا رجعة.

لقد قتلها.. قتلها.. قتلها.. قتلها.

قتلها وإلّا كانت ستقتله!

وحين استقرت جثتها أسفل قدميه وجد نفسه يهمس لها:

ـ الدكتور مجدي يعتذر لك.

ثم تركها وغادر المكان بلا رجعة.

هكذا انتهى لقاؤه الثاني والأخير مع الدكتورة ليلى، وهكذا سترقد جثتها في قبو منزلها بجوار جثث عائلتها إلى أن يأتي اليوم الذي سيكتشف أحدهم فيه ما حدث بالضبط.. لكن وإلى أن يأتي هذا اليوم عليه ألا يشغل باله بما سيحدث، فلقد حصل على المفتاح.

طرف الخيط.

لقد قتلها.. قتلها.. قتلها.. قتلها.

لكنه كان مضطرًّا!

وفي النهاية أدار محرك سيارته، ليهمس لنفسه بقسوة وجدت طريقها إلى قلبه:

ـ على الأقل التأم شمل العائلة من جديد.

ثم انطلق بسيارته مبتعدًا عن المكان.

١٠

ثم اختفت سوسن!

في تلك الليلة التي ارتكب فيها يوسف جريمته الأولى ـ نعم ستكون هناك جرائم أخرى! ـ نام يوسف في سيارته بعد أن اكتشف أنه لن يجرؤ على العودة إلى منزله أو أي مكان ذي أربعة جدران.. وفي اليوم التالي انتظرها في الكافيه ليخبرها بما حدث، لكنها لم تأتِ.

انتظرها طويلًا حتى نضبت قدرته على الانتظار، فانطلق إلى كليتها، لكنها لم تكن هناك كذلك. لم يتحمَّل فكرة أن ينتظر إلى اليوم التالي، فجاهد حتى حصل على رقم هاتفها وعنوان منزلها، لكن هاتفها كان مغلقًا ومنزلها كان خاويًا. قضى يومه بأكمله يبحث عنها بلا جدوى، وفي النهاية نام في سيارته من جديد.

وفي اليوم التالي انتظرها من جديد فلم تظهر.

وفي اليوم التالي لم تظهر.

وفي اليوم التالي كرر هو كل المحاولات المتاحة للعثور عليها فلم يجدها.

وفي اليوم التالي بدأ اليأس يتسلل إلى قلبه، وبدأ عقله يدرك حقيقة أن سوسن اختفت.

هكذا وببساطة ومن دون مقدمات.. اختفت.

في البداية رفض الاستسلام لهذه الحقيقة، وأخذ يقضي أيامه في التنقل بين منزلها وكليتها والكافيه، ومحاولات الاتصال بها، لكنها أصبحت كأنها لم تكن.. اختفت بلا أثر أو سبب أو أمل في ظهورها من جديد.

ومع الوقت بدأ رفضه لهذه الحقيقة يلين.. بدأ يصدق، لكنه لم يفهم، ليتحول رفضه إلى حيرة.. ثم تحولت حيرته إلى قلق.. ثم تحوَّل قلقه إلى غضب.. ثم ذاب الغضب وترك في نفسه فجوة تماثل في حجمها تلك الفجوة التي تركتها سوسن في ذاكرته.

تساءل طويلًا إن كان اختفاؤها بإرادتها أم أن لهذا «الشيء» علاقة به، أم أنه مجرد سوء حظه، لكنَّ تساؤله ظلَّ حتى النهاية بلا جواب.

وفي النهاية لم يعد أمامه سوى حقيقة واحدة لا تقبل الجدل: لقد اختفت سوسن!

١١

وفي النهاية عاد يوسف إلى منزله.

بعد خمسة أيام قضاها في سيارته اكتشف أنه مضطر إلى العودة إلى هناك، حيث ملابسه وسريره والحمَّام الدافئ والكتب التي سيبحث فيها عمَّا هو أهم من سوسن وأخطر.. انتظر حتى أطلَّت شمس يوم جديد عليه، ثم دخل شقته ليجدها كما تركها آخر مرَّة، خاوية إلا من وحدته التي استقبلته بشوق وحنين.

كان أول ما فعله هو أن فتش الشقة جيدًا بحثًا عن أي أطفال تتوهج أعينهم فلم يجد منهم أحدًا.. لكنه لم يكن ينوي البقاء طويلًا فنزع ملابسه التي التصقت بجلده، وألقى بجسده في حوض الاستحمام ليجد أن دماء الدكتورة ليلى الجافة لا تزال معلقة بأظافره.. اغتسل وارتدى ملابس غطتها الأتربة، ثم جمع كتب التاريخ التي ابتاعها في حقيبة وألقى نظرة وداعٍ على الشقة قبل أن يفر منها ليعود إلى سيارته.

لكنه لم يكن ينوي البقاء فيها كذلك، فقادها هذه المرَّة إلى أرخص فندق عثر عليه، ليدخل تلك الغرفة القذرة التي تناسب ميزانيته، وجلس

على المقعد الوحيد فيها ملقيًا بحقيبة الكتب على الأرض بجواره ليبدأ تأمل منزله الجديد.. لا فارقَ كبيرًا بينها وبين منزله القديم.. ما دامت وحدته تصاحبه أينما ذهب فلن يشعر بالغربة.

كان جائعًا ومعدته تتلوّى في جوفه رافضة الانتظار، لكنه قرر تجاهلها وأخرج أول كتاب من الحقيبة ليبدأ رحلة البحث عن «شيء ما» في التاريخ كله.. على الغلاف رديء التصميم قرأ: «نهاية الحضارة الفينيقية»، فتلوّت معدته امتعاضًا هذه المرَّة، لكنه ـ وكما أخبرته سوسن قبل اختفائها ـ لا يقرأ ليُحضر رسالة دكتوراه.. كل ما عليه هو البحث عن أي شيء مريب.. وإن لم يجد...

فسيأتي دور الكتاب الثاني.

كان الكتاب مملًّا كعنوانه، ومع الصفحة الأولى أصابه ذلك النعاس المفاجئ الذي يصيب من يقرأون الكتب مضطرين، فأخذ يفرك عينيه محاولًا التركيز لكنه اكتشف بعد ساعة كاملة أنه يقرأ في السطر ذاته من دون أن ينتقل إلى السطر التالي من مقدمة الكتاب، فأغلقه وألقى بجسده على الفراش، مقررًا أنه في حاجة إلى النوم حقًّا.

نعم.. سينام الآن قليلًا، وحين يستيقظ سيعرف كل شيء عن نهاية الحضارة الفينيقية اللعينة.. فقط عليه أن يتأكد أنه سيستيقظ قبل أن يخيِّم الليل، وإلَّا أيقظه هذا الشيء.. لذا عليه أن يضبط منبه هاتفه قبل أن ينام. دسَّ يده في جيبه ليجد المفتاح الذي عثر عليه في فم طفلة الدكتورة ليلى، فاعتدل على الفراش ممسكًا به بتوتر، متذكرًا أنه طرف الخيط الذي منحه إياه هذا الشيء.

طرف الخيط الذي نسِيَه تمامًا في غمرة بحثه عن سوسن، والذي يحمل له الآن تساؤلًا منطقيًا وشديد الأهمية: ما الذي يفتحه هذا المفتاح بالضبط؟

_ *بابًا أم صندوقًا؟*

قالها سوء حظه في رأسه، فقال هو مغتاظًا:

_ أتعرف عدد الأبواب والصناديق في كوكب الأرض؟

_ ***لا يهم عددها.. فمعك سيكون آخر باب أو صندوق تجربه هو الصحيح.***

فلم يجب هذه المرَّة، وأخذ يتأمل المفتاح بين أصابعه ليجده عتيقًا ذا نقوش عجيبة لم تجب عن سؤاله.. أخذ يحدِّق فيه لبرهة أدرك خلالها أنه فقد رغبته في النوم، ليغادر فراشه، وليرتدي حذاءه مقررًا الانطلاق إلى الشخص الوحيد القادر على مساعدته الآن.

إلى الأستاذ قدري.

* * *

_ من أين حصلت على هذا المفتاح؟

تساءل الأستاذ قدري وهو يتأمل المفتاح باهتمام بالغ، فسرت رجفة في جسد يوسف وعقله يجيب عن السؤال، بينما لسانه يقول باقتضاب:

_ مصادفة.

فمنحه الأستاذ قدري نظرة شك سريعة قبل أن يعود لتفحص المفتاح بخبرة، قائلًا:

ـ سأفترض إذن أنك لا تعرف ما الذي يفتحه وأنك هنا لتعرف.. وفي هذه الحالة سنحتاج إلى ترجمة هذه النقوش المحفورة عليه.

ـ ترجمة؟ أتعني أنها ليست مجرد نقوش؟

ـ بل لغة.. لغة لم أرَ لها مثيلًا على مدى سنوات دراستي للتاريخ.. لكني بالخبرة الكافية لأخبرك بأنها لغةٌ ما.. انظر...

وأشار إلى النقوش في المفتاح شارحًا:

ـ هذه الرموز المتقطعة.. إنها حروف وليست مجرد رسوم.. انظر.. أترى كيف تتكرر بعض الرموز؟ هذه ليست مصادفة.. لا توجد مصادفات في مثل هذه الأشياء يا عزيزي.

ثم أعاد المفتاح إلى يوسف قائلًا:

ـ لكن في هذه الحالات يجب أن نتأكد أولًا من عُمر المفتاح، وهذا يحتاج إلى خبير.. ثم عليك أن تجد خبيرًا في اللغات القديمة ليخبرك إلى أي عصر تنتمي هذه اللغة، والوحيدة التي كنت أعرفها وكانت ستساعدك هي...

أكمل يوسف بإحباط:

ـ زوجة الدكتور مجدي.

فهزَّ قدري رأسه بأسف، وقال:

ـ عرفت أنه مات في مستشفى السجن.. لكن.. أكانت نوبة صرع حقًّا كما نشروا؟

هنا منحه يوسف نظرة طويلة أجابت عن سؤاله، قبل أن يقف قائلًا:

ـ أشكرك على وقتك.

وحاملًا مفتاحه وأسراره معه غادر المكان وقد قرر أنها آخر مرَّة سيزور فيها الأستاذ قدري.. لا داعي لتوريطه أكثر من هذا، فهو يدرك جيدًا ما سيصيبه لو عرف أكثر من اللازم.

والآن لِيَعُدْ إلى غرفته في الفندق حيث تنتظره كتب التاريخ.. وحيث سيكون لقاؤه الثاني مع الشيء.

* * *

لكن.. وقبل أن نحكي قصة اللقاء الثاني.. اسمح لي أن أترك يوسف قليلًا لأحكي لك ما حدث للمُقدِّم عصام.

كنا قد التقيناه حين زاره يوسف ليطلب منه دخول شقة الدكتور مجدي، وما نعرفه عنه لم يتغير.. إنه مزعج.. إنه ثرثار.. إنه في حالة عشق لا تنتهي مع نفسه.. والليلة يمكننا أن نضيف أنه عصبي المزاج، خصوصًا أنه خرج لتوِّه من جدال مرير مع زوجته، وأي رجل يجادل زوجته لأي سبب ينتهي به الأمر مخطئًا، وتنتابه حالة عصبية تصاحبه لأيام وأيام، يصبح معها قابلًا للانفجار بمجرد اللمس.

ولهذا حين اتصل به الرائد علاء في هذه الليلة ليوقظه انفجر فيه صائحًا:

ـ ما الذي تريده؟

ـ سيادة المُقدِّم.. نحتاج إليك الآن.

قالها علاء بذكاءٍ مستخدمًا عبارة «نحتاج إليك» ليُرضِيَ غرور عصام، الذي قال:

ـ كالعادة.. لماذا هذه المرَّة؟

ـ جريمة قتل.. لكن يجب أن تأتي بنفسك.. العنوان هو...

أملاه العنوان، فأجابه عصام في النهاية بسخط:

ـ سآتي حالًا.

ثم أنهى الاتصال وألقى نظرة غيظٍ على زوجته النائمة مبتسمةً ابتسامة من أثبتت وبالدليل القاطع أن زوجها غبي، قبل أن يغادر فراشه ليرتدي ملابسه ويسرع إلى حيث ارتُكبت تلك الجريمة، والتي لن يحلها سواه، خصوصًا أن كلَّ من في الإدارة أغبياء، وهو العبقري الوحيد الذي سيعثر على القاتل بمجرد وصوله إلى هناك.. لهذا همس لنفسه وهو يدير محرك سيارته:

ـ كلهم حمقى!

ثم انطلق إلى تلك البناية في ذلك التجمع السكني الجديد القريب من القاهرة، ليجد المشهد التقليدي في انتظاره.. سيارات شرطة تضيء المكان باللون الأزرق البارد الكئيب.. سيارة إسعاف يقف قائدها مستندًا إليها يدخن وينتظر أن ينتهي فريق المعمل الجنائي من عملهم لينقل الجثة إلى المشرحة.. وعند مدخل البناية بعض الجنود والسكان يقفون ينتظرون وصوله وقد بدا عليهم الوجوم، ليخرج هو إليهم من سيارته مرتديًا نظارته الشمسية ـ مع أنه في الليل ـ والتي تضفي عليه مهابة تساعده أكثر من قدرته على التفكير.

وكان أول ما لاحظه عصام مع وصوله هو حالة الصمت المسيطرة على المكان.

في المعتاد، وحين تحدث جريمة قتل، تجد الجميع يقفون يتناقشون ويحللون ويفترضون أسباب هذه الجريمة ودوافعها، ويتبادلون قصص علاقتهم بالمجني عليه وكيف أنه كان «في حاله» ولا يستحق هذه النهاية المؤسفة، حتى لو كان الفقيد تاجر مخدرات متهمًا في قضايا قتل واغتصاب، لكن هذه المرَّة كان الجميع يقفون صامتين يتبادلون النظرات التي اشتَمَّ فيها عصام رائحة الخوف، فلم يَدَعْ هذه التفصيلة تشغل باله طويلًا وهو يتجاوزهم ليصعد إلى حيث الشقة التي تحوَّلت إلى مسرح جريمة.

أمام الشقة وقف الرائد علاء ينتظره وقد بدا عليه التوتر الشديد، فبادره عصام بلهجة آمرة:

ـ ما الذي حدث؟

ـ جريمة قتل.. شاب في أواخر العشرينيات، يعيش بمفرده في الشقة.. الجيران اكتشفوا الجثة حين وجدوا باب شقته مفتوحًا واتصلوا بنا ليبلغونا و...

فقد قدرته على المواصلة لفرط توتره، فانفجر فيه عصام:

ـ وماذا؟

ـ سيادة المُقدِّم.. صدقني.. أنا لم أرَ شيئًا مماثلًا على مدى سنوات خِدمتي.. وأشك في أنك رأيت أو سترى شيئًا كالذي ينتظرك في الداخل.

قالها فتذكَّر عصام رأس ابن الدكتور مجدي المغروس في الجدار، ليبتسم في ثقة قائلًا:

ـ لن يكون أسوأ مما رأيته بالفعل.

فلم يجبه علاء هذه المرَّة ولم ينتظر هو إجابته، بل دخل الشقة التي انتشر فيها رجال المعمل الجنائي وقد سيطرت عليهم حالة الصمت المريبة ذاتها، ليقف عصام وسطهم يتأمل الشقة متظاهرًا بالأهمية.. شقة عادية هي.. تبدو حديثة لكن المشروع السكني ذاته حديث.. مؤثثة بعناية وأغلب الأثاث يحمل طابعًا أنثويًّا مميزًا من السهل معه أن تعرف أن المجني عليه كان خاطبًا، وربما على وشك الزواج كذلك.. لا دماء ولا آثار عنف أو اقتحام.. ولا جثة!

لكن من إحدى الغرف خرج له قائد فريق المعمل الجنائي بوجه شاحب وأطراف ترتعش لفرط توتره، ليقول:

ـ سيادة المُقدِّم.. الجثة في الداخل!

ـ وماذا عن الأدلة؟

ـ لا توجد أدلة.. لا يوجد أي شيء.. ولا حتى تفسير.

ـ ما الذي تقصده؟

ـ سترى بنفسك.

ثم مدَّ يده بكمامة طبية إلى عصام شارحًا:

ـ لن تتحمَّل الرائحة!

فأمسك بها عصام من دون أن يرتديها واتجه إلى الغرفة التي تحوي الجثة بنفاد صبر واضح و.. و..

وبمجرد أن سقطت عيناه على الجثة في الداخل شهق ذاهلًا بقوة!

شهق.. وانتفض.. وفهم.. وارتجف.

وللحظات ظلَّ واقفًا مكانه فاغر الفم عاجزًا عن السيطرة على نفسه، فوقف قائد فريق المعمل الجنائي وراءه مرتديًا كمامة طبية، قال من ورائها:

ـ لم أرَ مثيلًا لما تراه الآن حتى في سنوات دراستي، وصدقني لقد رأيت الكثير في حياتي.. أكثر ممَّا كنت أتمنى رؤيته بكثير.. لكن هذا الذي تراه أمامك الآن هو الأسوأ والأبشع على الإطلاق.

فلم يجبه عصام ولم يكن ليستطيع حتى لو حاول.. فقط التقط أنفه تلك الرائحة الشنيعة التي أفعمت المكان، وترك قائد المعمل الجنائي يشرح له الهول الذي يراه من دون أن يستوعبه:

ـ هكذا عثرنا عليه.. جالسًا خلف مكتبه كما تراه الآن.. أسود اللون لأنه احترق من الداخل، وأرجوك انتبه إلى حقيقة «من الداخل» هذه.. إنه لا يحمل آثار أي حرق ناري أو كيماوي أو حتى كهربائي.. بل هو احترق من الداخل وكأن عظامه تحوَّلت إلى جمر متقد أذابت عضلاته ودهونه وسوائله، ولهذا ترى أن جلده مترهل كأنما يرتدي جلدًا أوسع من حجمه الحقيقي.. وترى أن عينيه منتفختين لأنهما نضجتا، لو صح التعبير.. لاحظ أيضًا أنه لم يتحرك من مكانه، وكأنه لم يجد وقتًا ليفعل، والأسوأ أن ملامحه لا تحمل الألم أو العذاب الذي تنتظره من رجل حُرِقَ حيًّا.. بل هو الرعب الذي تراه في وجهه..

هذا الرجل رأى شيئًا أخافه إلى الحد الذي حاول معه أن يغلق عينيه بيديه، لكنَّ يديه ذابتا والتصقتا بوجهه.. شيئًا لم يأتِ ليناقشه أو يهدده أو حتى ليستجوبه.. شيئًا أحرقه حيًّا من الداخل إلى الخارج.

ـ كيف؟!

قالها عصام أخيرًا ذاهلًا مرتجفًا، فكانت الإجابة:

ـ لا يوجد لديَّ تفسير.. حتى نظرية الاحتراق الذاتي بغرابتها لا تصلح تفسيرًا لما تراه الآن.. الحقيقة الوحيدة التي نملكها هي أن هذا الرجل قُتل، وبأبشع طريقة ممكنة.. مَن القاتل؟ وكيف؟ هنا يأتي دورك.

منحه عصام نظرة ذاهلة، عاجزة، دامت للحظاتٍ، قبل أن يتمالك نفسه إلى الحد الكافي ليسأل:

ـ مَن هو؟

ـ مهندس شابٌّ اسمه سامح.. سامح سمير.

* * *

والآن.. يمكننا أن نعود إلى يوسف في غرفته في الفندق؛ لأحكي لك قصة لقائه الثاني مع الشيء.

اللقاء الذي ستبدأ معه اللعبة.

١٢

حين تقرأ عن الحضارة الفينيقية وأنت لا تملك أي معلومات تُذكر عن تاريخ أي شيء يتعلق بأي حضارة، ستجد أنك أمام مهمة ممتعة ومثيرة حقًّا خصوصًا لو كان خيالك خصبًا!

وقبل أن أشرح لك السبب دعني أقدم لك مثالًا شهيرًا:

سنقرأ معًا هذه الجملة.. «يعيش السـ... ك في الماء».. نعم.. كلمة السمك مكتوبة من دون حرف الميم، لكنك عرفتها وتمكنت من قراءتها، لأن عقلك استكمل لك الحرف الناقص، وهي خدمة يقدمها لك عقلك من دون مقابل، وعلى مدار الساعة يوميًّا من دون أن تشعر بها.. هذه الخدمة تعتمد على نقطتين مهمتين: أولاهما هي الخبرات المتراكمة التي يختزنها عقلك، ففي المثال أمامنا ستجد أن كلمة «سمك» مرَّت عليك على مدى حياتك ملايين المرَّات ـ إلا لو كنت كائنًا فضائيًّا يقرأ هذه الصفحات ليتعرَّف على حضارتنا الجميلة ـ أما النقطة الأخرى فهي قدرتك على التخيل، وهي قدرة تتفاوت من شخص إلى آخر، لكنها تنشط بشدة عند من يُعانون الوحدة والانطواء، وبالتالي فهي في ذروتها مع شخص مثل

يوسف.. لهذا.. وحين نقول «تعيش.... في الكهوف».. ستجد أن تصوُّرك لمن يعيشون في الكهوف متوقفٌ على قدرتك على التخيل.

هناك من سيفترض أنها الوطاويط.. هناك من سيفكر في الزواحف والحشرات.. وهناك من سيتخيل غيلانًا بأعين متسعة وأنياب ملوثة بالدماء تنتظر في أركان الكهوف المظلمة.

والآن لنعد إلى يوسف ولنطبق عليه هذا الدرس الذي تعلمناه لنرى كيف قرأ يوسف كتاب «نهاية الحضارة الفينيقية»، واضعين في الاعتبار أن أي كلمة غريبة ستمر عليه ستتحول إلى فراغ في الجملة عليه أن يملأه بعقله وخياله.

«اختلف المؤرخون في تفسير معنى كلمة فينيقيا (**هنا استنتج يوسف أنها المكان الذي عاش فيه الفينيقيون!**) وإن افترضوا أنهم كالكنعانيين من أبناء حام بن نوح، والذين عاشوا في كنعان (**المكان الذي يعيش فيه الكنعانيون!**) والتي بدأت حدودها من خليج إسكندرون (**هنا افترض يوسف أن إسكندرون أرض أسطورية تعيش فيها الدببة!**) حتى العريش في مصر.. بعض المؤرخين افترضوا أن كلمة فينيقيا مشتقة من كلمة فينيكس (**والتي يعرف يوسف أنها تعني العنقاء التي يبدو أنها كانت تعيش مع الفينيقيين!**).. عَبَدَ الفينيقيون الآلهة وكان إيل بعل الرب هو سيد الآلهة، ولقد أقاموا العديد من المعابد، منها معبد أدونيس ومعبد عشتروت (**هنا قرر يوسف أنه خروف ضال هائل الحجم!**) في أفقا (**أرض أسطورية أخرى لا تعيش فيها الدببة!**) وفي هذه المعابد كانوا يقدمون الأضاحي لآلهتهم وكانت تتمثل في حيوانات يقتلونها ويحرقونها مرددين ترانيم (**قرر يوسف أنها شيء مماثل لأغنية بكّار!**).

كما اخترع الفينيقيون أبجديتهم الخاصة التي كانت عبارة عن مقاطع صوتية تُكتب بالطريقة المسمارية (**أي أنها تكتب بالمسامير!**) قبل أن ينتقلوا إلى الأبجدية التصويرية (**شيء أشبه بالكوميكس!**) قبل أن ينتقلوا إلى أبجدية جبيل المكونة من ٢٢ حرفًا، والتي اشتُقت منها كل الأبجديات الحديثة فيما بعد.

أما في مجال الفنون فلقد كان الفن الفينيقي شبيهًا بالقبرصية (**مرض جلدي!**) والسينية (**لا بد أن لها علاقة بسيناء!**) والإيجية (**لا بد أنها خطأ مطبعي!**). وفي الأدب تجد ملحمتهم الشهيرة ملحمة «بعل كارت» (**خروف آخر!**) والتي كتبت بالأبجدية الأوغارتية في القرن الرابع عشر..».

هكذا لك أن تتخيل الليلة التي قضاها يوسف في قراءة كتاب نهاية الحضارة الفينيقية، ولك أن تتفهم لماذا سقط رأسه في النهاية على الكتاب المفتوح، مستسلمًا لنعاس قاومه طويلًا.

* * *

وفي أحلامه رأى نفسه هناك.

في غرفة الطفل الذي هو ليس طفلًا، في شقة مجدي.. يرقد على فراشه ويتأمل القمر عبر نافذة الغرفة.

وفي أعماقه تساءل: أكان هناك قمر في السماء في الليلة التي حاول فيها مجدي قتل ذلك الشيء؟

* * *

ثم استيقظ فجأة ليعتدل على الفراش.

كان الظلام يغمر الكون من حوله لكنه كان يتوقعه.. نوعًا ما كان يتوقعه هذه المرَّة، وكان يشعر بأنه عقابُه على استسلامه للنوم.. لَمْ يَلُمْ نفسه طويلًا، بل اعتدل على فراشه عاجزًا عن رؤية أي شيء، منتظرًا الصوت الذي انبعث أخيرًا من ركن الغرفة يقول:

- أنت الآن مستعد.. بعد كل ما رأيته وكل ما عرفته أصبحت مستعدًّا لأن تعرف أكثر.. وأنا هنا لأساعدك.

وكان يوسف في هذه اللحظة يحاول أن يقنع عقله بأنه لا يحلم.. إن ما يحدث الآن يحدث بالفعل.. البرودة والظلام والصوت البارد القاسي.. يواصل:

- لكن قبل أن نبدأ دعني أخبرك بقواعد اللعبة.

وهذه المرَّة كان الصوت يقترب منه، فتحفزت كل عضلات يوسف تحسبًا للأسوأ.. على أطراف أصابعه جلس على الفراش كعدَّاء يستعد للانطلاق هربًا، والصوت يقترب منه أكثر وأكثر، شارحًا له قواعد اللعبة.

- سيكون لك الاختيار في كل مرَّة.

مهلًا.. اختيار ماذا؟ وما هذه اللعبة أصلًا؟

- ستدفع ثمن كل اختيار.

الصوت يقترب أكثر.. لكن هذه المرَّة من جميع الاتجاهات.. كأنه محاصر!

وما هذه اللعبة التي سيختار فيها ويدفع ثمن اختياراته؟

- ستستمر اللعبة إلى أن تدرك الحقيقة كاملة.

ولماذا لا يخبره بها الآن لينتهيَ هذا كله؟ لأن صوت الشيء كان يشعُّ بالاستمتاع.

أيًّا ما كانت لعبته فسيستمتع بها الشيء كثيرًا وسيختار فيها يوسف جميع الاختيارات الخطأ، وسيدفع ثمن كل اختيار.. لماذا ستكون كل اختياراته خطأ؟ لأنه يوسف!

ثم تصاعد صوت الشيء بجوار أذنه مباشرة:

- وفي كل مرَّة ستحصل على قطعة من الحقيقة.. وسأحصل أنا على قطعة.

وما يتذكره يوسف هنا هو أنه حاول أن يقفز بعيدًا عن مصدر الصوت كردٍّ فعلٍ غريزيٍّ تمامًا، وأنه حاول أن يصرخ هلعًا كما لم يصرخ من قبل، وأنه كان يجلس على أطراف أصابعه على فراش في غرفة في فندق حقير يناسب ميزانيته، محاطًا بكتب التاريخ اللعينة التي أجبرته سوسن على ابتياعها، والتي حاول أن يقرأ منها كتاب «نهاية الحضارة الفينيقية»، لكن.. لكن كل شيء من حوله اختفى فجأة.

في لحظة واحدة اختفت الغرفة والفراش وكتب التاريخ وقدرة يوسف على الهرب أو الصراخ.

وفي اللحظة التالية بدأ يَهوِي.

١٣

ثم وجد يوسف نفسه راقدًا على وجهه في أرضٍ طينية باردة.

يمكنني هنا أن أخبرك بأنه أخذ يَهوِي طويلًا في عدمٍ وظلامٍ لا نهاية لهما، وأنه تمكَّن من الصراخ أخيرًا لتذوب صرخاته في ظلام سرمدي أحاط به على نحو يقتل الأمل في الصدور قتلًا، وأن رحلته من ظلام غرفته في الفندق حتى وصوله إلى تلك الأرض الطينية دامت طويلًا حتى بدت كأنها بلا نهاية، لكن هذا لم يحدث.

كل ما حدث هو أنه شعر بنفسه يَهوِي للحظة واحدة، وفي اللحظة التالية وجد نفسه يرقد على وجهه، يتذوق مرغمًا ذلك الطين الذي التصق بوجهه وتسلل إلى فمه وعينيه.

ـ أين أنا؟!

تصاعد السؤال في رأسه لكنه لم يتحرك من مكانه.. ظلَّ هكذا راقدًا على وجهه ينتظر أن يتصاعد صوت الشيء من جديد، لكنه كان انتظارًا بلا جدوى.. فقط تردد السؤال ذاته في عقله ثانية:

ـ أين أنا؟!

وهو سؤال عجز عن الإجابة عنه في وضعه هذا، فاعتدل ببطء ورفع يده بحذر ليزيح الطين عن وجهه، ليستعيد رؤيته ولتبدأ الحقائق في التسلل إليه واحدة تلو الأخرى.. حقائق استقبلتها عيناه دفعة واحدة، لكن عقله عجز عن ذلك.. فبدأ ترتيبها وفقًا لأهميتها وغرابتها.. وكل حقيقة تبعها سؤال جديد بلا إجابة.

حقيقة رقم ١: إنه في غابة!

لكنها لم تكن كأي غابة رآها يوسف في حياته على الإطلاق.. وهو لم يرَ الغابات إلا كخلفيات لشاشة الكمبيوتر في مكتبه، وفي كل مرَّة كانت الغابة رائعة الجمال، التقطتها عدسة احترافية لتمنحها كمًّا لا بأس به من الافتعال.. أما الغابة التي وجد يوسف نفسه فيها فلم تكن كأيٍّ خلفية شاشة رآها في حياته.

الغابة التي وجد نفسه فيها كانت عبارة عن جذوع أشجار هائلة الحجم تمتد من الأرض وتغيب في السماء كأنها تحملها.. وكانت الأشجار ذاتها متباعدة تسمح لضباب كثيف بالتخلل بينها وكأن غيوم السماء قد قررت الرقود على الأرض لتسترخيَ قليلًا.. والسماء ذاتها كانت زرقاء، لكنها ليست كأيٍّ زرقة رأيتها في حياتك.. حاول أن تتخيل درجة لون أزرق لم ترَ لها مثيلًا في حياتك.. حاول أن تتخيل السماء التي خلقها الله قبل أن تلوثها أدخنتنا وروائحنا وخطايانا.. وأسفل هذه السماء بين جذوع الأشجار والضباب وقف يوسف يتساءل: كيف أتى إلى هنا؟

حقيقة رقم ٢: إنه لا يحلم!

وهي حقيقة تستند إلى أدلة كثيرة:

أولًا: لا يوجد حلم بهذه الدقة وبهذا الكم الهائل من التفاصيل.

ثانيًا: لا يوجد حلم ينقلك إلى مكان لم ترَ له مثيلًا من قبل.. يوسف قرأ عن الأحلام ذات مرَّة ويعرف أنها المزيج الذي يصنعه لنا عقولنا من كل ما رأيناه وما سمعناه ليقدمه لك في قالب جديد متوافق مع حالتك النفسية قبل النوم.. وآخر ما رآه يوسف قبل النوم ـ لو كان يحلم ـ لن ينقله إلى غابة كهذه.

ثالثًا: لا يوجد حلم تظل فيه واقفًا في مكانك لدقائق عاجزًا عن فهم «كيف أتيت إلى هنا».

ليخبرك عقلك بالحقيقة التالية وهي:

حقيقة رقم ٣: إنه ليس جسده!

وهي نقطة يصعب شرحها قليلًا.. لتفهمها ستحتاج لأن تكون قد انتقلت إلى جسد آخر غير جسدك.

أنت تعرف جسدك.. تعرف طولك ووزنك.. تعرف الزاوية التي يميل بها رأسك حين تفكر.. وتعرف عضلاتك وسرعة استجابتها.. وتعرف أين تشعر بالألم عادة.. وتعرف إن كانت جيوبك الأنفية تمنحك صداعًا نصفيًّا منتظمًا أم لا.

كل هذا يعرفه يوسف جيدًا.. وبالتالي عرف أن الجسد الذي يقف به الآن في الغابة ليس جسده.

إنه جسد أطول.. وهو لم يكن طويلًا قطُّ.. جسد منتفخ بالعضلات.. وهو كان يظن أن عضلاته ضمرت منذ زمن.. جسد عارٍ إلا من بعض أوراق الشجر حول وسطه، على الرغم من برودة الغابة من حوله.. جسد استحال عليه أن يعرف لون جلده من أسفل الطين الذي يغطيه.

ربما هو أبيضُ شاحبٌ كمصاصي الدماء، وربما هو أسودُ كالأيام الماضية التي مرَّت عليه، وربما هو أخضرُ كـ«س ـ ١٨» لكنه لن يعرف ما لم يغتسل ليزيح طبقات الطين عن جسده، وهذا ليس وقت الاغتسال، فالمشكلة الآن أنه...

حقيقة رقم ٤: إنه ينزف!

ينزف من جرح غائر في عنق الجسد الذي هو ليس جسده.

لكنه الآن جسده.. وهو الآن يشعر بالألم وبالدماء التي تسيل من عنقه إلى صدره لتمتزج بالطين الذي يغطيه.. يشعر بوعيه ذاته يسيل على جسده ويعرف ببطء الحقيقة الأخيرة.. وهي:

حقيقة رقم ٥: إنه يموت!

يموت ببطء لو شئنا الدقة.. هذه هي الحقائق التي اكتشفها يوسف. أما الأسئلة فكانت تنحصر في ثلاثة:

كيف أتى إلى هنا؟

كيف انتقل إلى هذا الجسد؟

متى هو؟!

أي زمن هذا التي اكتست فيه الأرض بأشجارٍ لا قمم لها، وكان من يعيشون فيه يرتدون أوراقها؟

ـ لكنه ليس وقت البحث عن إجابات أيُّها الأحمق.

قالها يوسف في عقله متذكرًا صوت سوء حظه ـ والذي يبدو أنه لم ينتقل معه إلى هذا الجسد ـ ليجد أنه مُحِقٌّ.. نعم.. الآن عليه أن يجد شيئًا ما يُوقِفُ به هذا النزيف وإلَّا فسينتهي به الأمر مغروسًا في الطين كما بدأ.. عليه أن يعثر على زجاجة «بيتادين» وبعض القطن الطبي وخيط جراحي ومقصٍّ معقَّمٍ في هذه الغابة الضبابية!

رفع يده ليتأملها فوجدها ضخمة طويلة الأصابع، فاستخدم هذه الأصابع ليتحسس جرحَ عنقِه محاولًا تحديد مدى خطورته، ليجد ذلك النصل الحجري لا يزال مغروسًا فيه.. هذا يمنحه فكرة عن الزمن الذي هو فيه، ويمنحه حلًّا مؤقتًا لجرح عنقه، فالنصل يعترض طريق النزيف، ولو انتزعه فستنفجر الدماء هاربة بلا رجعةٍ تمامًا كما حدث مع الدكتور مجدي حين انتزع القلم من عنقه.. إذن.. ليُثَبِّت النصل الحجري مكانه أكثر ببعض الطين.

هكذا هبط على ركبتيه وأخذ قبضة من الطين البارد ليضعها حول جرحه الذي اعترض مرسلًا خناجر الألم في رأسه، فصرخ يوسف رغمًا عنه بصوت لا يَمُتُّ له بصلة، لتردد آلاف الأشجار صرخته.. لكنَّ نزيف الدم قلَّ نوعًا ما، فتماسك يوسف وتحامل على نفسه ليقف من جديد، وليبدأ التحرك و.. ولكن.. إلى أيِّ اتجاه؟

كان سؤالًا منطقيًّا من النوع الذي يلد أسئلة إضافية كـ«وإلى أين سيذهب أصلًا؟» و«ما الذي عليه فعله؟» و«لماذا أتى به الشيء إلى هذا المكان والزمن والجسد؟»، لكن يوسف كان يفقد قدرته على التفكير مع الدماء التي فقدها ولا يزال يفقدها.. لهذا قرر أن أيَّ سؤال بلا إجابة هو سؤال يحتاج إلى إجابة فورية بلا تفكير.

إلى أي اتجاه؟ إلى الأمام!

هكذا بدأ يتحرك ليجد أن عضلاته كلها تئن ألمًا، وأن الدوار بدأ يجد طريقه إلى رأسه، لكنه تجاهله ليخطو إلى الأمام.. لاحظ أن خطواته أوسع ممَّا اعتاده مع طوله الجديد، لكن في المقابل كانت الغابة تمتد أمامه بلا نهاية، فلم يشعر للحظة بأنه يحقق تقدمًا حقيقيًّا في مجال الاتجاه إلى الأمام هذا.

المشهد من حوله لم يتغير بعد أول عشر خطوات.. ولا بعد الخطوات العشر التالية.. ولا حتى حين توقف عن عدِّ خطواته، ليتفرغ لعدِّ أنفاسه التي أصبح يجاهد ليخرجها ويدخلها إلى صدره.

ومع كمية الدماء التي فقدها شَعرَ يوسف بعطش لم يشعر بمثيل له من قبل.. عطش لم يشعر به ضائع في الصحراء.

أين الماء؟ لا يعرف.. إذن ليتجاهل هذه النقطة الآن وليتحمَّل.

المهم أن يواصل طريقه إلى أن يصل إلى شيء ما.

أو إلى أن يهلك في الطريق.

* * *

وكانت الشمس هي الشيء الوحيد المتحرك في المشهد من حوله.

كانت تسابقه متجهة إلى غروبها، ومع رحلتها بدأت السماء تكتسي بلون وردي، وبدأ الضباب من حول يوسف في التكاثف محاولًا ابتلاع كل الأشجار في الغابة ليخفيها عن عيني يوسف الذي حاول عدم التفكير في هذه المشكلة حاليًّا.. حين تصل الشمس إلى مبتغاها.. وحين يتحد الظلام مع الضباب ستبدأ مشكلة يوسف الحقيقية مع الرؤية.

هذه هي لعبة الشيء إذن.. أن يتركه في الغابة في جسد يموت، يهيم على وجهه بلا جدوى إلى أن تنفد بطارياته ليسقط جثة هامدة باردة.

ـ في كل مَرَّة سيكون لك الاختيار.

قالها الشيء ولم يعرف يوسف حينها أن اختياره سيكون للاتجاه الذي سيسير فيه لأطول فترة ممكنة في هذه الغابة التي لا تنتهي ولن تنتهي وهو على قيد الحياة.. الآن يبدو الموقف عبثيًّا لا معنى له.. من قواعد اللعبة أيضًا أنها ستستمر حتى يدرك الحقيقة كاملة، والشيء الوحيد الذي أدركه يوسف منذ وصوله إلى هنا هو أنه سيموت قريبًا.. إن لم يكن من النزيف فسيكون من العطش أو الإرهاق أو من وحوش الغابة التي ستستيقظ ليلًا.. أو..

أو على يدي من غرس ذلك النصل الحجري في عنقه!

كيف نَسِيَه؟

هذا النصل دليلٌ على أن هناك آخرَ.. وربما آخرين.

صحيح أن صاحب النصل حاول قتله به لسببٍ ما، لكنه لا يزال حيًّا، فهو لم يرَ جثته، وبالتالي فهو الآن في مكانٍ ما فيه ماء وطعام، وربما فراشٌ يصلح للنوم.. وكل ما على يوسف فعله الآن هو العثور على هذا المكان.. إقناع من حاول قتله بمسامحته.. الحصول على ماءٍ وطعامٍ وجَرَّاحٍ ماهرٍ وفِرَاشٍ مُريحٍ.. نعم.. سيفعل هذا كله حين يعثر على قاتله!

لهذا عليه أن يواصل.

أن يواصل وأن يتجاهل سؤالًا جديدًا وجد لنفسه مكانًا وسط بقية

الأسئلة في رأسه: تُرى.. لو مات في هذا الجسد.. فهل سيموت جسده الحقيقي أيضًا؟

* * *

وحين حلَّ الظلام أخيرًا وجد يوسف أنه لا فائدة من التقدم.

الأشجار من حوله تحوَّلت إلى أشباح ترقص وسط الضباب، والصمت الذي يخيِّم على الغابة منذ لحظة وصوله ازداد ثقلًا، وجرحُ عنقه عاد ينزف من جديد مؤكدًا له أن أيَّ محاولة للمواصلة ستسرع من نهايته لا أكثر.

لا فائدة من التقدم، وكل ما عليه الآن هو الجلوس وانتظار الموت في ظلام الغابة الحزين.

هكذا ألقى جسده الجديد على الأرض مستندًا بظهره إلى جذع أقرب شجرة له، وقد أخذ يلهث على نحو أدرك معه أن انتظاره لن يطول.. تحسَّس جرح عنقه فوجد أنه عاد ينزف بغزارة.. عظيم.. على الأقل لن يشعر بالألم طويلًا.

على الأقل ستنتهي لعبة الشيء وستنتهي قصته وستواصل سوسن بمفردها لو كانت لا تزال حية.

تذكرها وتذكر عينيها الجميلتين وهي تأمره بدراسة التاريخ كله، فابتسم ابتسامة واهنة.. السَّاذجة لم تعرف أنها ستختفي بعدها، وأنه لن يجد الفرصة لدراسة أي شيء.. سيموت هنا في الغابة، وربما لقيت هي المصير ذاته في مكانٍ ما.. في زمنٍ ما، أو أنها الآن معه في الغابة ذاتها تهيم على وجهها بلا أمل.. و.. و..

وفجأة تعالى صوتها!

من أعماق الغابة.. ومن مسافة ليست بقريبة، تعالى صوت أنثوي يشدو بلحنٍ حزينٍ.. فاعتدل يوسف في مكانه منتفضًا، وأصاخ إليه السمع جيدًا ليتأكد من أنه لا يَهْذِي.

لكنه لم يكن يهذي.

إنه يسمعها.. وإنها ليست سوسن، بل هو صوت امرأةٍ تُنشِد شيئًا ما استحال عليه تمييزه، لكنه كان كافيًا ليميز أنه أجمل صوت سمعه في حياته على الإطلاق.

صوت الأمل في الخروج من مأزقه هذا.. وفي عقله تسارعت الأفكار والحقائق.

هناك امرأةٌ ما قريبة منه.. إنها تُنشِد.. إذن هي على قيد الحياة.. إذن هي قادرة على مساعدته.. إذن عليه الوصول إليها فورًا!

منحته هذه الحقيقة طاقة لم يشعر بها في هذا الجسد منذ أن احتله، فوقف على الفور وقاوم الدوار العنيف الذي أصابه، قبل أن يميِّز الجهة التي يأتي منها الصوت، ليتجه إليه بلا لحظة تردد واحدة.

كان قد فقد الرؤية تمامًا مع الظلام الذي أحاط به، لكنه قرر أنه لن يحتاج إلى حاسة البصر الآن.. تكفيه حاسة السمع، ويكفيه أن يمدَّ يده أمامه كيلا يصطدم بالأشجار في طريقه.. المهم أن يُسرع قبل أن يفقد طاقته على المواصلة.

المهم أن يصل إلى صاحبة الصوت.

ولتتخيَّلْ ما فعله يوسف بالضبط، جرِّب أن تغلق عينيك وأن تبدأ في الجري متتبعًا صوتًا يأتي من بعيد.. جرِّب أن تتخيَّل أنك فقدت نصف دمائك أولًا، وأن كل خفقة من قلبك تعني المزيد من الدماء تنزف من عنقك.

جرِّب أن تجري وأنت تشعر بعطشٍ لا يُتحَمَّل وآلامٍ تفوق قدرتك على الوصف أو التَّحمُّل.

وحاول أن تتخيل أنك في النهاية وصلت إلى تلك القرية.

* * *

لم تكن قرية بالمعنى المفهوم الذي نعرفه.

لم تكن هناك بيوتٌ مبنيةٌ من خشبٍ أو حجارة، ولا حتى خيام مصنوعة من قماشٍ أو جلد.. فقط تجاويف ضخمة في جذوع الأشجار، يكفي كل تجويف منها لاستيعاب رجل بالغ، وأمام كل تجويف تناثرت على الأرض أدواتٌ بدائية صُنعت في زمن لم يعرف كلمة حضارة بعد، وفي منتصف الأرض رقدت أغصان تفحمت تمامًا، وإن تلوَّى خيطٌ من الدخان خارجًا من بينها، مؤكدًا أن نارًا كانت تشتعل هنا منذ قليل.. كان الضباب أقل كثافة، وكانت قمم الأشجار تسمح للقمر بالتسلل من بينها ليضيء المكان إلى الحد الكافي الذي رأى معه يوسف المكان بتفاصيله مستعيدًا قدرته على الإبصار من جديد.

لكن لم يكن هناك أحد.

حتى الصوت الأنثوي الساحر توقف مع وصول يوسف إلى المكان، كأن مهمته انتهت بمجيئه.

ومع توقفه تلاشى الأمل في صدر يوسف الذي لم يجد حتى ماءً يروي به ظمأه، فانهار على الأرض قرب الأغصان المحترقة، محاولًا الصراخ غضبًا، ليكتشف أنه فقد قدرته على الصراخ، لفرط الألم المنبعث من جرح عنقه.

لقد نضبت طاقته تمامًا.. وهنا في هذا المكان الأشبه بالمقبرة ستكون النهاية.

وسط الأشجار المجوفة وأسفل القمر ـ الشاهد الوحيد على محاولته للبقاء حيًّا ـ وجوار أغصان لا تزال دافئة رقد يوسف واستلقى على ظهره ليتنهد بآخر ما يملك في جسده من طاقة، ثم أغلق عينيه منتظرًا الـ...

لكنه انتبه فجأة إلى أن الأرض أسفله رطبة.. رطبة أكثر من اللازم لو كنت تفهم ما أعنيه.

تحسسها يوسف ثم رفع يديه إلى عينيه، وعلى الرغم من إضاءة القمر الخافتة استطاع أن يميز اللون الأحمر للدماء التي لطخت يده!

دماء من كانوا يعيشون هنا.

دماء من تركوا أغصانًا دافئة تُقْسِم على أنهم كانوا هنا مجتمعين حولها الليلة.

وفي لحظات كهذه يصاب عقلك بنوبة ذكاء مباغتة ليبدأ جمع الحقائق وترتيبها بسرعة لا تُصدق، لكنه ـ ومهما كان سريعًا ـ يمنحك النتيجة النهائية بعد فوات الأوان.

الدماء.. هناك من حاول قتل يوسف وترك نصله الحجري في عنقه.. القاتل ذاته كان هنا وقتل سكان هذه التجاويف، وجرَّ جثثهم إلى حيث

تقود الدماء على الأرض.. القاتل ذاته استدرجه إلى هنا حين أخذ يغني بصوت أنثوي ساحر.. إذن هي قاتلة لا قاتل.. إذن هو فخٌّ.. إذن...

وفي اللحظة التي شعر فيها يوسف بصوت من خلفه التفت ليتلقى ضربة قاضية على رأسه، أظلمت الدنيا من بعدها تمامًا.

* * *

لكنه لم يمت.. مع الأسف!

فتح عينيه فوجد القمر يحدِّق فيه منتظرًا أسئلته، لكن الآلام التي تصاعدت من جرح عنقه وإصابة رأسه أجابَتَا عن كل هذه الأسئلة قبل أن يسألها.. ولم تمضِ لحظات حتى كان يوسف قد استعاد ذاكرته ليحاول أن يعتدل من جديد على الأرض الطينية ذاتها في الغابة الضبابية الكئيبة ذاتها.

إنه لم يمُت.. لكنه في طريقه إلى هذا حتمًا.

إنه يرقد الآن في دائرة صنعتها جثث رجال ونساء وأطفال يحملون لون بشرته الطيني ذاته، ويحدقون في القمر بأعين شاخصة لا تطرف.. إنه الآن ينظر إلى قاتلته التي جلست في منتصف دائرة الجثث تردد تعاويذ خافتة، مولِّيةً له ظهرها وقد رقدت أمامها جثة رجل يرتدي الزي العجيب ذاته الذي ترتديه هي.

حاول أن يتأوَّه ألمًا، لكن جرح عنقه الملوث تورَّم إلى الحد الكافي ليُخرسه فلم يستطع، ولم تشعر به المرأة التي واصلت ممارسة طقوس لم يحتَجْ يوسف لوعيه كاملًا ليدرك الغرض منها.

إنها تحاول إعادة جثة رجلها إلى الحياة.

خياله الخصب منحه هذا التفسير، وقصة كاملة تصلح للإجابة عن أسئلة عديدة.. هذه المرأة ورجلها كانا يسيران في الغابة حين اعترض سكان تجاويف الأشجار طريقهما.. قتلوه، وهربت هي لتقتلهم ولتحاول قتله هو ظنًّا منها أنه ينتمي إليهم، ثم جمعت جثثهم في هذه الدائرة لتستخدمهم في ممارسة طقوس سحرية ستعيد بها رجلها إلى الحياة.

لكنه لم يمت بعد.

بمعجزة ما ظلَّ على قيد الحياة، وبمعجزة أخرى تركت المرأة نصلًا حجريًّا بجوارها، مانحة يوسف الاختيار الذي وعده به الشيء قبل أن يرسله إلى هنا.

يمكنه الآن أن يحاول الهرب.. أو أن يزحف إلى النصل.. يستغل فرصة انشغال المرأة بطقوسها اللعينة.

يقتلها بلا أدنى شفقة أو رحمة!

_ *في كل مرَّة سيكون لك الاختيار.*

قالها الشيء وفهمها يوسف أخيرًا.. والآن عليه أن يختار.

ولسبب ما، يصعب فهمه أو تفسيره، تذكر يوسف الدكتورة ليلى.

تذكرها وتذكر ما حدث لها وكيف قتلها هو مضطرًّا لترقد جثتها بجوار جثث زوجها وطفليها في قبو منزلها، لمجرد أن اقتحم الشيء حياتها.. وتذكر يوسف أنه يملك الخيار هذه المرَّة.

الدكتورة ليلى قتلها لينجو بنفسه.. أما هذه المرَّة فيمكنه أن يرحل في هدوء.

هكذا حسم أمره وهكذا بدأ يزحف بعيدًا عنها محاولًا ألا يُصدر أدنى صوت موقنًا أن رحلة هربه لن تطول، فهو هالك لا محالة، لكنه توقف رغمًا عنه حين تعالى صوتٌ آخر في المكان.

صوت الرجل الذي كان يرقد جثة هامدة أمام المرأة!

* * *

في البداية أخذ الرجل يزوم بصوتٍ عجيب كأنه يستيقظ من نوم عميقٍ دامَ لآلاف السنين، فالتفت إليه يوسف ليحدِّق فيه غير مصدقٍ أن طقوس المرأة قد نجحت.

إنها أعادته إلى الحياة.

ثم بدأ الرجل يتحرك.

ببطء يصعب تمييزه حرَّك الرجل يديه ثم ذراعيه ثم اعتدل جالسًا على الأرض والمرأة تواصل طقوسها بصوت مبحوح لفرط الانفعال، حتى وقف الرجل في النهاية أمامها مغمَضَ العينين والدماء تحيط بجرح صدره الذي قتله، لكن المرأة لم تتوقف عن ترديد الطقوس، بل أخذ صوتها يعلو ويعلو إلى أن فتح الرجل عينيه فجأة ليرى يوسف ذلك الوهج العجيب الذي أحاط بعينيه، والذي رأته المرأة لتتوقف عن ترديد تعاويذها متراجعة إلى الوراء ذاهلة مذعورة، مكتشفة أن من وقف أمامها ليس رَجُلَهَا الذي تعرفه.. إنه آخر.

إنه.. الشيء!

عرفه يوسف وقد فقد قدرته على الحركة لفرط ذهوله هذه المرَّة،

ليواصل التحديق في الشيء الذي تلفت حوله محاولًا تعرُّفَ المكان الذي وجد نفسه فيه، قبل أن يلتفت إلى المرأة التي تحوَّلت إلى لوحة ثلاثية الأبعاد للرعب والهلع.

ثم صرخت المرأة بكل ما أوتيت من قوة وخوف، ليقبض الرجل الذي ليس هو رجلًا على عنقها وليرفعها بيد واحدة في الهواء مخرسًا صرختها. فأغمض يوسف عينيه منتظرًا صوت تهشم عنقها الذي تعالى فتلوت أحشاء يوسف ممتعضة.

وكان الصوت الثاني هو صوت سقوط جثتها على الأرض، ففتح يوسف عينيه ليجد الشيء يقف مكانه يتأمل القمر بوجه جامد الملامح وعينين متوهجتين.. ومن دون أن يلتفت إليه وبلغة فهمها يوسف قال الشيء:

ـ لقد اخترت.. والآن.. عليك أن تهرب.

* * *

ليلتها اكتشف يوسف أن غريزة الخوف هي أقوى الغرائز على الإطلاق.

أقوى حتى من غريزة البقاء التي منحته طاقة مؤقتة قادته إلى هذا المكان قبل أن تنضب.. لكن حين أخبره الشيء بأن عليه أن يهرب هبَّ يوسف على قدميه برشاقة واندفع نحو الظلام والأشجار بسرعة لم يعهدها في نفسه، ساعده عليها جسده الجديد الذي كان يُحتضر منذ قليل.

أتذْكُر الأسئلة ذات الإجابات الفورية؟ إلى أين سيهرب يوسف في هذه الغابة التي يستحيل أن ترى فيها يدك ولو كانت أمام وجهك لفرط الظلام والضباب؟ لا يهم.. المهم أن يبتعد عن الشيء!

لهذا أخذ يوسف يعدو.. ويعدو.. ويعدو.

الدماء تفجَّرت بقوة من جرحي عنقه ورأسه.. خفقات قلبه أَصَمَّتْ أذنيه.. أنفاسه أصبحت رماحًا تنغرس وتنتزع من صدره بقوة.. وهلعٌ لا حدَّ له سيطر على تفكيره أجبره على أن يعدو.. ويعدو.. ويعدو.

إنه الشيء!

هكذا كانت بدايته.. هكذا عاد.. وهكذا تحوَّل يوسف إلى فريسته الأولى!

يعدو.. ويعدو.. ويعدو.

وفيما بعد سيدركُ يوسف سرَّ هلعِهِ في هذه الليلة، وسيندهش طويلًا حين يكتشف أن أكثر ما أخافه في هذه الليلة هو جسد الشيء الجديد.. لقد اعتاده في جسد طفلٍ جامد الوجه مخيف النظرات، وهو جسد من السهل التعامل معه، لكن جسد الرجل الذي احتله في الغابة كان ضخمًا!

حتى مقارنة بجسد يوسف الجديد يظلُّ الجسد الذي احتله الشيء ضخمًا، قادرًا على تهشيمه في لحظة.

لهذا أصيب يوسف بالهلع.

ولهذا تذكَّر وهو يعدو كالمجاذيب.. صلاح.

* * *

في كل مدرسة تجد ذات القصة تتكرر.

الطفل الوحيد ضئيل الحجم الذي يتحاشى الجميع مُفضِّلًا الانطواء

على نفسه، والطفل المشاكس ضخم الحجم الذي لا هواية له في الحياة إلا إحالة حياة ضئيلي الحجم إلى جحيم.. وصلاح كان ضخمَ الحجم حقًّا!

والداه كانا يزعمان أن مشكلة في الهرمونات هي التي منحت صلاح جسدًا يفوق عمره بأعوام، وإن ظلَّ قلبه قلبَ طفلٍ وديع، أحْسَنَا تربيته. وهي نظرية لم يبتلعها يوسف أبدًا، مستبدلًا بهذه النظرية أخرى أكثر قابلية للتصديق، تتلخص في أن صلاح مجرد ثور آدمي، يحرِّكه عقل بعوضة، وقسوة لا حد لها يعوِّض بها غباءه الذي لا علاقة له بمشاكله الهرمونية.

لكن نظرية يوسف هذه لم تكن صحيحة تمامًا.. فصحيح أن صلاح كان عاجزًا تمامًا عن حل أبسط المسائل الحسابية في عقله، إلا أنه كان قادرًا على ابتكار طرق لتعذيب يوسف، تستحق منا الانحناء احترامًا لموهبته.

خذ عندك على سبيل المثال اليوم الذي احتجز فيه صلاح يوسفَ في كابينة في دورة مياه المدرسة، ليقف هو على مقعد في الكابينة المجاورة وليبدأ إلقاء الألعاب النارية عليه، بعد أن اختار أعلاها صوتًا وأكثرها احتراقًا.. يومها وجد يوسف نفسه كالجرذان، يتقافز في مساحة الكابينة الضيقة محاولًا تفادي النيران الساقطة عليه بلا انقطاع، وقد امتزجت صرخاته بضحكات صلاح الوحشية، إلى أن سمح له صلاح بالخروج أخيرًا.. بعد أن أخذ منه ملابسه!

يومها عاد يوسف إلى منزله مرتديًا كتبه الدراسية والحروق تغطي جسده والدموع تسيل من عينيه، وفي اليوم التالي اكتشف أنه تحوَّل إلى جزء من أسطورة ساخرة يرددها باقي تلاميذ المدرسة في كل مناسبة.

أسطورة بطلها صلاح.. وضحيتها يوسف.

هناك أيضًا اليوم الذي أجبره فيه على ابتلاع زجاجة منظف كاملة، ليتركه في النهاية وسط بركة من القيء يتلوى في ألمٍ منح صلاح استمتاعًا لا يوصف.. وهناك اليوم الذي أخذ فيه حذاءه منه قبل أن يجبره على ارتدائه بعد أن ملأه بالصمغ، ليظل الحذاء في قدمي يوسف لأيام طويلة حاول فيها يوسف انتزاعه لينتهي به الأمر مصابًا بالتهابات حادة في قدميه.

لكن لعبة صلاح المفضلة، والتي واظب عليها بعد ذلك، كانت لعبة «المسَّاكة» الشهيرة.

أنت تعرف هذه اللعبة.. طفلٌ يقف مُغمَضَ العينين ويعد من رقم واحد إلى رقم عشرة، وعلى الطفل الثاني أن يسرع بالاختباء، قبل أن ينتهي الأول من العدِّ ليبدأ اصطياده.. هذه اللعبة التقليدية أضاف إليها صلاح تفصيلة جديدة مبتكرة: سيقف هو ووجهه إلى الحائط مغمض العينين ليعدَّ من واحد إلى عشرة، وعلى يوسف أن يُسرِع هاربًا ليختبئ بأقصى سرعة، قبل أن ينتهي صلاح من العدِّ ليبدأ البحث عنه، وإن وجده فسيُسقطه أرضًا ويركله بلا رحمة في بطنه إلى أن يتوقف يوسف عن التنفس.

هكذا كانت أقسى لحظات مرَّت على حياة يوسف، هي اللحظات التي كان صلاح يقف فيها بجسده الضخم، بوجهه إلى الحائط يعدُّ باستمتاع:

ـ واااااااحد.. اثناااااااااااان.. ثلاااااااثة...

وفي كل مرَّة كان العد يتوقف عند رقم عشرة.

عشر ثوانٍ هي كل ما يملكه يوسف لينطلق هاربًا بأقصى سرعة، قبل أن يبدأ صلاح مطاردته.

وهنا يجب أن نذكر ـ ومن باب الأمانة ـ أن صلاح لم يغش قطُّ، وأنه

كان ينتظر حتى يصل إلى رقم عشرة في كل مرَّة، ولكن يجب أن نذكر أيضًا أن صلاح كان مع بدانته سريعًا حقًّا.

كان يجذب نفسًا عميقًا يملأ به صدره الضخم، قبل أن يبدأ العدو بسرعة لا تُصدق وأصابعه مفرودة حتى نهايتها لتتحول يداه إلى سيفين يشقَّان الهواء وهو يعدو وراء يوسف الذي كان يخسر في كل مرَّة، لينتهي به الأمر مُتكوِّمًا على الأرض، يتلقَّى الركلات بلا رحمة أو هوادة.

في إحدى المرَّات وجدته الأستاذة صفاء مُدرِّسة العلوم في المدرسة وقد ازرق لونه ويوشك على الموت اختناقًا، فأسعفته وأقنعته بأن يحكي لها كل شيء، فشرح لها يوسف من وسط دموعه تفاصيل لعبة صلاح، ليكون رد فعل الأستاذة صفاء حاسمًا: استدعاء ولي أمر.. توبيخ قاسٍ لصلاح الذي ادَّعى البراءة، وأنه كان يمزح فحسب، بينما أصرَّ والداه على أنها هرموناته هي المُلامَة لا هو.. اتفاق بسيط مع يوسف مفاده أنه لو تعرَّض له صلاح مرَّة أخرى فكل ما على يوسف فعله هو أن ينادي الأستاذة صفاء بأعلى صوت، وستنقذه هي على الفور.

هكذا أضيفت تفصيلة جديدة للعبة «المسَّاكة» لم يرضَ عنها صلاح قطُّ.. ففي كل مرَّة كان ينتهي فيها من العدِّ كان صوت يوسف يتعالى مناديًا ملاكه الحارس الأستاذة صفاء، والتي كانت تظهر من العدم لتنقذه من براثن صلاح.

هذه التفصيلة الجديدة كانت تنقذ يوسف كل مرَّة، إلى أن أتى اليوم الذي أصيب فيه بالتهاب حاد في أحباله الصوتية لسوء حظِّه.. التهاب أفقده صوته ومنح صلاح فرصة ذهبية، ليمارس لعبته التي اشتاق إليها طويلًا.

يومها انتحى به صلاح وجسده يرتعش لفرط حماسه ولهفته، ليخبره بإضافة جديدة على لعبته:

ـ هذه المرَّة حين أُمْسِك بك.. سأقتلك.

ويومها لم يَشُك يوسف ولو للحظة في أنه سيفعلها حقًّا.

وأنه لو أمسك به.. فسيقتله!

لهذا وحين دفن صلاح وجهه في الجدار وبدأ يعد:

ـ واااااااحد.. اثنااااااان...

كان يوسف قد بدأ رحلة هروبه الكبير بالفعل.. وعلى الرغم من أن حرارته يومها كانت مرتفعة، وأن التهاب أحباله الصوتية كان يُعيق تنفسه، فإنها كانت أسرع مرَّة عدا فيها يوسف في حياته.

ساقاه فقدتا اتصالهما بالجاذبية الأرضية، والموجودات من حوله تحولت إلى خطوط متسارعة.. ومن حوله تبدلت المشاهد بسرعة.. الفصل.. ممرات المدرسة.. البوابة.. الشارع.

شيء واحد فقط لم يتبدل، وهو صلاح، الذي اندفع وراءه بأقصى سرعة هو الآخر وقد احمرَّ وجهه وانفردت أصابعه ويداه كسيفين يشقَّان الهواء، مزمعًا شيئًا واحدًا فقط.. الإمساك بيوسف.. وقتله!

وبينهما أخذت المسافة تقل تدريجيًّا.. وتقل.. وتقل.. و.. و..

وسمع يوسف صوت الفرملة الحادة وصراخَ بعض المارة، فتوقف في اللحظة التي طار فيها جسد صلاح فوقه ليسقط أمامه تمامًا مهشم العظام، وقد غطت الدماء وجهه.. وفكه السفلي يلامس أذنه اليسرى، وقد أخذت

عيناه تحدقان بثبات في يوسف تتهمه وبوضوح بأنه السبب، فأخذ يوسف يحدِّق فيه غير مصدق.

لقد مات صلاح!

مات قبل أن يقتله.. مات ولم يعد عليه أن يخشاه بعد اليوم أبدًا.

المارَّة تجمعوا حول الجثة يصيحون بأشياء كثيرة لم يُولِ لها يوسف بالًا، وقائد السيارة التي صدمت صلاح خرج منها ملتاعًا يبحث عن معجزة ما يعيد بها ضحيته إلى الحياة.

أما يوسف فواصل طريقه بهدوء إلى منزله متجاهلًا هذا كله.

لكنه هذه المرَّة كان يبتسم.

* * *

والآن تذكَّر يوسف صلاح وهو يعدو في الغابة هاربًا.

تذكَّره وتذكَّر لعبته فمنحته هذه الذكرى سرعة إضافية، وفي أعماقه تمنى لو كان مطارِدُه هذه المرَّة هو صلاح لا الشيء في ذلك الجسد الضخم القادر على تهشيم عنقه الذي لم يتوقف عن النزيف لحظة.

الشيء الذي لم يظهر حتى الآن ولم يبدُ عليه أنه يحاول مطاردته حتى، وهي نقطة انتبه لها يوسف ليقترف أشهر خطأ يقترفه أي شخص يهرب من مطارده.

التفت إلى الوراء.

التفت فتعثر فسقط على وجهه في الطين فصرخت كل آلام جسده

معترضة، لكنه استغل الطاقة التي منحها لها رُعْبُه، ليهبَّ واقفًا على الفور وليجد أن أمنيته قد تحققت.

فأمامه.. وفي ظلام الغابة.. كان صلاح يقف ينتظره!

* * *

كان يقف أمامه على مسافة بضع خطوات تمامًا كما رآه يوسف آخر مرَّة.

الدماء تغطي رأسَه، وفكُّه السفلي يلامس أذنه اليسرى، وباقي عظام جسده مهشمة لتتدلى أطرافه في أوضاع عجيبة، وكان ينظر إلى يوسف مباشرة بعينين تتهمانه: أنت السبب!

رآه يوسف فحاول أن يشهق ذاهلًا، لكن جرح عنقه منعه من هذا، فشهق قلبه في صدره وفقد التحكم في ركبتيه.. ومرَّت لحظات صمت طويلة عليهما قبل أن يدفن صلاح وجهه في أقرب جذع شجرة له، ليبدأ العدَّ:

ـ واااااااحد...

إنه هو.. هو صلاح.. عاد من الموت لينتقم منه.

ـ اثناااااان...

عاد ليلعب لعبته الأثيرة للمرَّة الأخيرة.

ـ ثلاااااااااثة...

وهنا لا توجد أستاذة صفاء لتنقذه.. وحتى لو كانت موجودة فهو لا يملك صوتًا لينادي عليها.

ـ أربـــــــــعة...

هنا بدأ يوسف يعدو من جديد.

وهنا كانت أمنيته الوحيدة هي أن يستعيد صوته ليصرخ بكل الرعب الذي استبد به.. لكنها أمنية لم تتحقق.

إلى أين سيعدو هذه المرَّة؟ بعيدًا عن صلاح!

ـ سبــــــعة...

متى قال خمسة وستة؟ لا يهم.. يجب أن يهرب فحسب.

ـ ثماااااااانية...

وهذه المرَّة اصطدم يوسف بكل شجرة وبكل صخرة في طريقه، لكنه كان يواصل في كل مرَّة مرغمًا.

ـ تســـــــعة...

صلاح وعده بأنه لو أمسكه فسيقتله.. وعدًا لم يحققه سابقًا، لكن لن يمنعه أحد من تنفيذه هذه المرَّة.

فهذه المرَّة هو ميت بالفعل.

ـ عشـــــــرة.

ثم بدأ صلاح في مطاردته!

* * *

بجسده البدين وبأصابع مفرودة ويدين كسيفين يشقان الهواء شقًّا انطلق صلاح.

لم يتعثر ولم يصطدم بالأشجار ولم يمنعه تأرجح فكه المهشم من الانطلاق بأقصى سرعته.. وهذه المرَّة كان أسرع من الضوء ذاته.

صحيح أن يوسف كان قد ابتعد لمسافة لا بأس بها، إلا أن صلاح بدأ يقترب منه في لحظات معدودة.. شعر به يوسف من دون أن يراه، لكنه لم يقوَ على أن يزيد من سرعته أكثر من هذا.. إنه بالفعل يعدو بآخر طاقة حياة متوفرة في هذا الجسد الذي وجد فيه نفسه.. فقط عاد القمر إلى السماء ليكتشف يوسف أنه خرج من نطاق الأشجار، وأنه الآن يتجه إلى حافة تقود إلى هاوية، ليجد نفسه أمام اختيار جديد لهذه الليلة.

يمكنه أن يتوقف ليواجه صلاح.. أو أن يقفز إلى الهاوية!

وأمام هذا الاختيار سطعت حقيقة لا جدال فيها في عقل يوسف: إنه هالك لا محالة.

لو قفز من الهاوية فسيهلك.. ولو واجه صلاح فسيهلك.. ولو هرب منه حتى فلن يتحمَّل جسده هذا أكثر مما تحمَّله بالفعل وسيهلك.. إذن الحل الأخير أمامه الآن هو.. التوقف!

ومستسلمًا لهذه الحقيقة توقف يوسف مكانه لاهثًا، ومنتظرًا مصيره الذي سيخرج له من الغابة في أي لحظة، لكن من خرج أمامه في النهاية لم يكن صلاح.

كان الشيء!

بجسده العملاق وبوجهه الجامد وعينيه المتوهجتين خرج له الشيء من ظلام الغابة، يسير تجاهه بخطوات متأنية واثقة، فانهار يوسف على ركبتيه وسالت الدموع من عينيه، لينتزع كلمة واحدة من حلقه انتزاعًا:

ـ لماذا؟

هنا وقف الشيء أمامه مباشرة ليجيب بالصوت ذاته المخيف الذي اعتاده يوسف، قائلًا:

ـ *لقد كانت أمامك الخيارات.*

قالها ثم مدَّ يده ليقبض على عنق يوسف النازف، فكان آخر ما سمعه يوسف في هذا المكان وهذا الزمان صوت عنقه وهو يتهشم.

بعدها أظلمت الدنيا تمامًا.

١٤

وحين فتح يوسف عينيه هذه المرَّة وجد أنه عاد إلى غرفته في الفندق على فراشه، فلم يشعر بذرة سعادة أو دهشة.

فقط تكوَّر على نفسه وأخذ يبكي بحرقة إلى أن جفَّت دموعه.

الآن فهم لعبة الشيء.. والآن فهم أول خطأ ارتكبه فيها.

لقد كانت أمامه الفرصة ليقضي على الشيء قبل أن يولد، لكنه أضاعها حين ترك المرأة على قيد الحياة.. أضاعها ولهذا وجد الشيء.. ولهذا ظلَّ موجودًا حتى يومنا هذا.

لقد كان أمامه الخيار ولقد أخطأ.

وها هو الآن يدفع الثمن.

ساعات طويلة مرَّت على يوسف تلك الليلة وهو متكوِّر على نفسه في الفراش كأنما يخشى الخروج منه، إلى أن انتبه إلى آخر سؤال عليه أن ينتبه إليه: لقد أخبره الشيء بأنه سيعطيه الحقيقة قطعة قطعة.. في كل مرَّة سيمنحه قطعة.. وسيأخذ منه قطعة.. فما الذي كان يقصده؟

لكن سؤاله هذا لم تطل إجابته.

فحين غادر يوسف فراشه أخيرًا وجد أنه فقد الرؤية بعينه اليسرى!

١٥

وفي الأسابيع التالية قرأ يوسف كثيرًا في التاريخ.

بعين واحدة، وبإرادة ولَّدها الخوف، وبيقين بأن الكابوس الذي يحيا فيه هو واقع لا مخرج منه، أخذ يوسف يقرأ في كتب التاريخ التي منحته إياها سوسن قبل أن تختفي.. سوسن التي قرر أنها لا بد أنها هلكت في مكان ما أو زمن ما.

أسابيع عرف فيها يوسف الكثير عن الحضارة الفينيقية والفرعونية والآشورية.. أسابيع عاش فيها في طيبة والفرات والأندلس، عاش مع قبائل وممالك وإمبراطوريات اندثرت، عاش فيها مع جيوش وفرق تركت بصمات دامية لا تُنسى على صفحات التاريخ.

أسابيع لم يزره فيها الشيء ولم يحدث له فيها أي جديد.

لم يحاول البحث عن سوسن، فما كان يبحث عنه الآن أهم بكثير.

كان يبحث عن الشيء.. عن طقوس استدعائه.. وعن طقوس القضاء عليه.. وكان يشعر به طيلة الوقت هناك.

في التاريخ.

في كل حرب سقط فيها الآلاف.. في كل وباء تفشَّى في أي عصر.. في كل مذبحة وكل مؤامرة وكل حضارة تلاشت من على وجه الأرض من دون أسباب أو تفسير.

ومع مرور الوقت تشكلت في أعماقه النظرية ذاتها التي تشكلت في أعماق الدكتور مجدي وأعماق سوسن من قبله.. نظرية أنه في التاريخ لم تكن هناك مصادفات.. بل هو الشيء.

شيء ما تسبب في كل فترة مظلمة من فترات تاريخ البشرية، وهو الآن بيننا بلا جسد يستعد للفصل الثاني من لعبته التي أصبح يوسف بطلها رغمًا عنه.. والفصل الثاني اقترب، لكن يوسف لا يعرف هذا بعد.

لكنه سيعرف.

* * *

يمكننا الآن أن نبدأ بصباح ذلك اليوم البارد من أيام الشتاء الذي بدأ يعلن عن نفسه بنوبات متقطعة من أمطار غزيرة منحت الهواء تلك الرائحة الرطبة المميزة التي لا تعني ليوسف إلا المزيد من نوبات الصداع النصفي.. ففي هذا الصباح وجد يوسف أنه أوشك على الانتهاء من قراءة الكتب التي تركتها له سوسن، من دون أن يعثر على ما يبتغيه، وأن عليه الحصول على المزيد.

كان هذا يعني بالنسبة إليه أن يغادر غرفته في الفندق، والتي لم يغادرها طيلة الأسابيع الماضية، فشعر برهبة مَنْ عليه أن يواجه العالم الخارجي بعد طول انقطاع.. سيترك وحدته هنا وسيخرج إلى مدينته التي لم يرها

منذ زمن طويل، فهل ستتعرَّف عليه بعد أن استطالت لحيته ونحل جسده أكثر؟ وهل سيراها هو بعين واحدة كما كان يراها بعينين؟

كانت حياته قد تحولت إلى روتين لا بأس به.. يستيقظ في تمام السادسة مساءً ليقضي ليله كله في القراءة مختلسًا النظرات إلى كل ركن مظلم من أركان غرفته متوقعًا ظهور الشيء ـ الذي أصبح كأن لم يكن ـ ثم في ساعات الصباح الأولى يتناول وجبة تُعدها صاحبة الفندق وتتركها له على باب غرفته بناء على طلبه، قبل أن يعود إلى القراءة من جديد إلى أن ينام حين تنتصف شمس الظهيرة في كبد السماء.

روتين ممل، لكنه كان قد حظي بما يكفيه وأكثر من الإثارة، وأصبح الملل بالنسبة إليه متعة لا توصف.

لا قتلى.. لا شيء يبحث عنه ليقتله.. وحتى صوت سوء حظه لازم الصمت طيلة الفترة الماضية، كأنه يخشى أن يفسد عليه قراءته التي لا تنتهي.

لكن اليوم يختلف.. اليوم سيكسر هذا الروتين وسيخرج من غرفته ليبتاع بكل ما تبقى له من مال المزيد من كتب التاريخ، وما عليه الآن هو تحديد أي الكتب التي سيقرأها في الأيام المقبلة.. حاول كتابة قائمة افتراضية بما سيبتاعه ليجد أنها مضيعة للوقت.. الأفضل أن يذهب إلى المكتبة ليختار مما سيجده وألَّا يضيِّع الوقت في التردد، إذ إن عليه العودة والنوم فالاستيقاظ قبل أن يحل المساء.

هكذا ارتدى ملابس الخروج ليجد أنها اتسعت قليلًا عليه، وأمام المرآة وقف ليجد أنه أصبح أشبه بالمدمنين، وهي ملاحظة تأكد منها حين رأته صاحبة الفندق والعاملون فيه لتبدأ الهمسات والإشارات والأعين معلقة عليه..

لا بأس.. ليفترضوا أنه يتعاطى المخدرات، فهذا سيدفعهم إلى اجتنابه، وهو غير مستعد لبدء أي علاقة إنسانية مع أي شخص على ظهر هذا الكوكب الآن.

وحين خرج من الفندق استقبلته النسائم الباردة فتمسَّك بملابسه يرجوها الدفء، وأخذ يَحُثُّ الخطى باحثًا عن أقرب مكتبة لينتهي به المطاف في تلك المكتبة الأنيقة التي امتلأت بمن يحبون إحساس التواجد في المكتبات أكثر من القراءة ذاتها.. وفي داخلها تجاوز يوسف أرفف أعلى المبيعات والكتب الساخرة، فالرومانسية، فكتب الطبخ، وسخافات التنمية الذاتية، ليتوقف في النهاية أمام أرفف كتب التاريخ التي غطتها الأتربة.. الأستاذ قدري كان مُحقًّا.. الأغلبية لا يقرأون التاريخ لأنهم حمقى.. وهو الآن سيقرأها لأنه مضطر.

ليبدأ اختيار الأزمنة التي سيقرأ عنها إذن وليَنتَقِ العناوين التي توحي بأسوأ الأزمنة وأكثرها إظلامًا وكآبةً.

«ما بعد التاريخ» عنوان قريب مما يبحث عنه.. «معجم الحضارات السامية» قد يحوي شيئًا مفيدًا.. «أسوأ كوارث العالم» بالتأكيد مهم.. «المصادفة في التاريخ» وهو الآن يعرف أنه لا توجد مصادفات بل يوجد *الشيء*.. «منهج البحث الأثري» يبدو مملًّا أكثر من اللازم، لا داعي له.. «أسوأ الفترات في التاريخ» رائع.. «بداية ونهاية الـ...»...

ـ أين كنت؟

تعالى الصوت فجأة فانتفض يوسف، وسقط ما يحمله من كتب أسفل قدمي المُقدِّم عصام، الذي وقف يسدد نظراته الصارمة إلى يوسف، الذي أجابه بنظرة ذاهلة، قبل أن يواصل عصام وبلهجة مَنْ عثر على فريسته:

ـ سقطت يا عزيزي.

ليَهوِي قلب يوسف هذه المرَّة بين قدميه.

* * *

تركه عصام في سيارته يتلظى بنيران القلق واللهفة، فأدرك يوسف أنه تعمد هذا.

طوال الطريق لم يتبادلا حرفًا واحدًا، ولم يجرؤ يوسف على أن يكون البادئ بحديث لن يعرف كيف سينتهي، ثم.. وأمام أحد الأكشاك.. توقف عصام وغادر السيارة ليبتاع علبة سجائر، وليقف يدخن واحدة بهدوء شديد.. تاركًا يوسف «ينضج» بلغة رجال الشرطة، وعلى الرغم من أن يوسف كان يدرك هذا جيدًا فإنها كانت طريقة ناجحة بالفعل.

وحيدًا جلس يوسف في سيارة عصام يُقَلِّبُ الاحتمالات في رأسه، ليجد أنه يتنقل ما بين أسوأ الاحتمالات، وما هو أسوأ منها بكثير.

عصام كان يبحث عنه.. هذا مؤكد.. لكن لماذا؟! رجل شرطة لا يبحث عن مواطن عادي إلا لو كان شاهدًا أو متهمًا.. ولأنه يوسف، فلا بد أنه متهم.. إنه أذكى من أن يضيِّع وقته في دراسة الاحتمال الأول.

متهم بماذا؟ بقتل الدكتورة ليلى!

عند هذه النقطة سرت قشعريرة باردة في جسد يوسف، وفي رأسه تصاعدت ذكريات ليست ببعيدة.. ذكريات حملت صوت ليلى إذ أخذت تنادي عليه:

ـ يووووووووسف.. أين أاااانت؟

هل عثر على جثة ليلى في قبو منزلها مع باقي الجثث؟ هل عثر على بصماته هناك؟!

بالطبع ترك يوسف بصماته هناك.

تركها على باب منزلها.. على باب القبو.. على سلمه.. على مقبض السكين الذي قتل به الدكتورة ليلى، وعلى أسنان جثة ابنتها.

وما حدث من السهل تخيله.

بلاغٌ من أحد الجيران بأن رائحة كريهة تتصاعد من الفيلَّا.. أحدهم حاول الدخول للاطمئنان فوجد المقبرة الجماعية في القبو فأبلغ الجميع ليتم استدعاء المُقدِّم عصام الذي انطلق إلى هناك ليوزع أوامره على الجميع بلا استثناء، مرددًا:

ـ ابحثوا عن البصمات.. لا بد أن هناك بصمات.

والبصمات الوحيدة الغريبة عن المنزل كانت بصماته هو.

«يوووووووسف.. أنا أعرف أنك هنااااااا..»

الممرضة في العيادة ستشهد بأنه جاء، وبأنه دفع ثمن عنوان الدكتورة ليلى.. إذن أركان القضية شبه مكتملة، فلدينا الدليل، ولدينا الشاهد، وكل ما ينقص المُقدِّم عصام الآن هو الدافع.. سيدخل عليه الآن وسيسأله:

ـ أين سوسن؟

قالها عصام داخلًا السيارة، فتبدَّت المفاجأة على يوسف، وحدق في عصام بغباء استفزه ليصيح:

ـ لا تتظاهر بأنك لا تعرفها.. أنا أعرف أنك التقيتها وأنك كنت تبحث عنها.. والآن أنصحك بأن تجيب عن سؤالي.. أين هي؟

فانتزع يوسف نفسه من ذهوله بمشقة ليجيب بصدق حقيقي:

ـ لا أعرف!

ـ يوسف.. لا تضيِّع وقتي.. لقد عثرنا على الجثة بالفعل، وبصماتها كانت تملأ مسرح الجريمة.

ـ جثة من؟

ـ جثة المهندس سامح.. خطيبها السابق.

فتعاظمت الحيرة في عين يوسف، ليشعر عصام بأنه لا يخدعه بالفعل، فلانت لهجته وهو يقول:

ـ يوسف.. أنا أعرفك منذ زمن.. وأكره أن أراك متورطًا في هذه القضية.. لهذا عليك أن تساعدني وإلَّا...

لكن يوسف لم يُجب.. ففي أعماقه.. وعلى الرغم من دقة الموقف.. شعر بالخلاص!

لم يعثروا على جثة الدكتورة ليلى إذن.. إنه ليس متهمًا.. بل هو شاهد.. وكل ما عليه الآن هو أن يجيب عن سؤال المليون دولار، الذي كرره عصام بصرامة هذه المرَّة:

ـ أين سوسن؟

ـ لا أعرف.

قالها يوسف بكل ثقة، وهو الذي يتمنى أن يعثر عليها أكثر من المُقدِّم عصام ذاته.. والآن.. أصبح يتمنى أن يعثر عليها أولًا.. فلو سقطت في قبضة عصام أولًا فهي النهاية.. نهايتها على الأقل!

ـ يوسف.. سأفترض جدلًا أنك لا تعرف مكانها كما تدعي.. لكن في هذه الحالة أريد أن أعرف علاقتك بها.. لماذا التقيتها؟ عن ماذا تحدثتما؟ أين رأيتها آخر مرَّة؟ ولماذا كنت تبحث عنها؟

وكلها أسئلة لن يُفلح معها الصدق إلا لو أراد يوسف الانضمام إلى قائمة المتهمين أو المجاذيب.. هنا تصاعد صوت سوء حظه في رأسه بعد طول غياب ليمنحه الحل الوحيد:

ـ *اكذب.. اكذب كما لم تكذب من قبل.*

وهذا ما فعله يوسف بكل حماس، إذ أجاب:

ـ لقد كنت أُجري معها حوارًا بصفتها إحدى طالبات الدكتور مجدي.. إنه التحقيق الذي كنت أعمل عليه كما تعرف.. لكني لم أحصل منها على شيء مفيد.. هذا هو كل شيء.

ـ ولماذا بحثت عنها بعد ذلك؟

ـ لأنني شعرت بأنها تُخفي شيئًا ما، وأردت معرفته.. لكني لم أعثر عليها قطُّ.

ـ ولماذا تركت عملك في مجلة «المجلة»؟

ـ لأني فشلت في كتابة التحقيق.. كان هذا رغمًا عني.

ـ ولماذا تركْتَ شقتك؟

ـ لأنني أحتاج إلى المال بعد أن تركت عملي.. سأعرضها للبيع، وسأبحث عن مكان أصغر وأرخص.

هكذا توالت إجابات يوسف، وهكذا هنأه سوء حظه في رأسه برضا:

ـ *أحسنت*.

لكنَّ عصام منحه نظرة شك طويلة، تحمَّلها يوسف بجلد، قبل أن يقول عصام في النهاية:

ـ سأتركك الآن.. لكني سأتصل بك في أي لحظة، وستأتي إليَّ على الفور.. أتفهم؟

فهزَّ يوسف رأسه على الفور ليشير إليه عصام لكي يخرج، فلم يتردد يوسف لحظة واحدة.

خرج من السيارة وظل واقفًا مكانه يرمق سيارة عصام التي أخذت تبتعد عنه حتى غابت في نهاية الشارع، لينهار أخيرًا على ركبتيه يلهث وقلبه يخفق في قوة.

لقد نجا هذه المرَّة.. لكنه لن يعتمد على حظه في المرَّة المقبلة بالطبع.

لقد نجا هذه المرَّة، لكنها مسألة وقت قبل أن يأتي دوره.

فقط.. وفي طريقه إلى الفندق.. وفي أعماقه.. أخذ يردد سؤال عصام بلا توقف: أين سوسن؟

* * *

لكن سوسن لم تظهر في هذه المرحلة.

بالطبع ستظهر لاحقًا، فدورها في هذه القصة لم ينتهِ بعد، لكننا لن نتوقف عندها الآن وسننتقل إلى مكان آخر زرناه من قبل.

إلى قبو فيلًا الدكتورة ليلى.

لم يتبدل المشهد كثيرًا عمًّا رأيناه في المرَّة الأخيرة.. لكننا الآن وعلى الضوء الشاحب المتسلل من نافذة القبو يمكننا أن نرى المشهد أفضل.. لدينا جثة زوج الدكتورة ليلى بنصف رأس، يرقد على أحد المقاعد وقد بدأت جثته في التحلل فعليًّا.. بجواره رقدت جثة ابنه يحتضن دميته وقد بدا غافيًا أكثر منه ميتًا، لكن جثة أخته جاحظة العينين نفت هذه الحقيقة، وقد افتقد فمها ذلك المفتاح الذي حصل عليه يوسف في زيارته الوحيدة للقبو.

وعلى الأرض أمامهم رقدت جثة الدكتورة ليلى كما تركها يوسف تمامًا.. شعثاء الشعر.. مطعونة.. يحمل وجهها تعبيرًا مخيفًا، هو مزيج من الألم وعدم التصديق والجنون.

مرَّت أسابيع على جريمة يوسف، لذا لك أن تتخيل حالة الجثث والرائحة التي أفعمت القبو، ثم لك أن تتخيل ما الذي كان سيصيب يوسف لو رأى ما يحدث في القبو الآن.

فببطء عجيب بدأت جثة الدكتورة ليلى في التحرك!

كانت ترقد هناك على أرضية القبو وصدرها يحمل أثر الطعنة النافذة التي طعنها يوسف، وقد أحاطت بها دماؤها في دائرة شبه مكتملة، لكنها.. وعلى الرغم من هذا.. تحركت!

لا.. لم تعد إلى الحياة بالمعنى المفهوم.. الجثث لا تعود إلى الحياة بعد أسابيع من قتلها.. يمكنك أن تقرر أنها تحركت فحسب.

تحركت كأن أحدهم يتحكم في جسدها الذي لم يعد يحوي قلبًا ينبض أو دماءً لينبض بها.

رفعت رأسها ببطء.. ثم اعتدلت جالسة وسط دمائها لتظل على هذه الوضعية لدقائق طويلة ساد فيها الصمت التام على المكان.. ثم في النهاية وقفت.

لم تفتح عينيها، ولم يبدُ عليها أنها في حاجة إليهما.. فقط وقفت، ثم أخذت تخطو بقدميها الحافيتين على دمائها التي تحوَّلت إلى كتلة شبه صلبة لتتجاوزها، ولتتجه إلى سلم القبو، الذي أخذت درجاته تئن من جديد، إذ أخذت ليلى تصعده ببطءٍ واثقة، لتبلغ نهايته، ولتخرج منه إلى ردهة فيلتها في مشهد لو رآه يوسف ـ أو سواه ـ لفقد عقله هلعًا.

وبالبطء ذاته اتجهت الدكتورة ليلى إلى هاتف منزلها لتقف أمامه مغمضة العينين للحظة، قبل أن تمد يدها لتمسك به، ولتطلب رقمًا قصيرًا.. أتاها صوت محدثها فلم تسمعه، لكنها نطقت بصوت خرج من حنجرة ميتة:

ـ أريد أن أُبلغ عن جريمة قتل.

ولم يستغرق باقي المكالمة منها أكثر من دقيقة واحدة، أتمت فيها المطلوب، ثم أعادت سماعة الهاتف مكانها، لتستدير عائدة بالخطوات البطيئة ذاتها إلى القبو.

وللمرَّة الثانية تصاعد أنين درجات سلم القبو، ثم توقف حين بلغت الدكتورة ليلى مكانها وسط بركة دمائها لترقد عليها من جديد، وكأنَّ شيئًا لم يكن.

ومرَّة أخرى عاد الصمت التام إلى قبو فيلَّا الدكتورة ليلى.

لكنه صمتٌ لن يدوم طويلًا.

* * *

ومِن القبو إلى أحد شوارع الإسكندرية ننتقل لتستقبلنا شوارع المدينة الساحرة في أفضل حال ممكنة..

للإسكندرية سحر خاص يمتد بطول السنين ذاتها، لكنها في الشتاء تحديدًا تكتسب تلك اللمسة التي تُحولها من مدينة ساحلية إلى لوحة أسطورية يمتزج فيها الواقع بالخيال في مزيج لن تراه في أي مكان آخر على ظهر هذه البسيطة.. ثم إن الساعة الآن تجاوزت السادسة مساءً، وليل الشتاء أتى مبكرًا لتتوهج الإسكندرية بأضواء مصابيح الإنارة وبالرضا المطلِّ من وجوه من يجوبون شوارعها يتنسمون روح الإسكندرية وعبيرها الذي توزعه عليهم بلا حساب.

لسنا هنا لنشاركهم متعتهم مع الأسف، بل لنتابع السيارة الأجرة التي توقفت قرب الكورنيش، والتي ترجل منها الأستاذ قدري، وقد أحاط وجهه بكوفية لا تعرف إن كانت للتدفئة أم لإخفاء ملامحه التي حملت اللهفة والتوتر معًا بنسب متساوية.. أنقدَ قائد السيارة أجرته ثم أحكم الكوفية حول وجهه وانطلق إلى وجهته بخطوات سريعة واسعة.

استقبلته المدينة الساحرة مبتسمة، لكنه لم يبادلها الابتسام.. إنه هنا ليحصل على إجابة عن سؤال واحد شغل عقله طويلًا، ولم يعد يستطيع أن يتحمَّل فضوله أكثر من هذا.. لهذا أخذ يحث الخطى بين المباني العتيقة لتقود خطواته إلى شبكة من الشوارع الجانبية الضيقة، والتي قلَّت فيها حركة المارة تدريجيًّا حتى لم يعد هناك سواه تدق قدماه الأرض من أسفله بصوت مسموع.

بعد قليل سيحصل على إجابة سؤاله.. لقد تأكد من هذا قبل أن يتجشم عناء السفر.. فقط ليأمل أن تكفيه الإجابة التي سيحصل عليها وألّا تكون كأي شيء آخر في هذه الحياة.. مجرد بداية لأسئلة جديدة بلا إجابة.

انتهى به طريقه أمام بوابة حديدية صدئة، استقر على جانبها زر جرس يتحداه أن يضغطه، فقبل الأستاذ قدري التحدي.. وما هي إلا لحظات حتى تصاعد صوتٌ مفعم برائحة التبغ:

ـ من؟

ـ قدري.

ـ ادخل وبسرعة.

ثم تعالى صوت الأزيز فدفع قدري البوابة الحديدية واستجابت هي له ليدخل.. صعد الدرج بأقصى سرعة سمحت له بها سِنهُ المتقدمة، وأمام تلك الشقة وقف يهمُّ بضغط الجرس من جديد، لكن مستقبِله لم يمنحه الفرصة.

فأمامه انفتح الباب ليظهر من خلفه عجوز نحيل، تتدلّى لفافة تبغ من فمه، ليقول من وسط دخانها:

ـ لماذا تأخرت؟

ـ إنني قادم من القاهرة.

ـ ادخل.

فدخل الأستاذ قدري شقة هي أقرب إلى كونها متحفًا لم يزره أحد من قبل.. كل شيء عتيق، وكل شيء تغطيه الأتربة، وكتب التاريخ تملأ

أي فراغ مسموح به لتمنحك انطباعًا عن هواية صاحب الشقة الذي وقف وسط هذا كله مواجهًا قدري، قائلًا:

ـ لقد ترجمت النقوش.. أخبرني أولًا.. من أين حصلت عليها؟

ـ كانت مرسومة على مفتاح عتيق رأيته بالمصادفة.

ـ وأين هو هذا المفتاح؟

ـ ليس معي.. إنه مع صحفي شاب يُدعى يوسف.. هو من حصل عليه.. لقد حفظت شكل النقوش ورسمتها لأرسلها إليك فحسب.

فأشعل مضيفه لفافة تبغ جديدة ليقول:

ـ سيِّئ الحظ هو يوسف.. مَن يحصل على هذا المفتاح لا بد أن يكون سيِّئ الحظ.

ـ لماذا؟!

ـ تعالَ معي.

قالها فتبعه قدري إلى غرفة ضيقة من غرف المنزل لم تحوِ سوى مقعدين، بينهما طاولة، استقرت عليها رسوم وأوراق ومخطوطات يمتد عمر بعضها إلى آلاف السنين.. أشار إليه مضيفه بأن يجلس، فجلس قدري واللهفة تطل من عينيه، ليجلس مضيفه أمامه وليبدأ:

ـ لم تكن ستتمكن من ترجمة هذه النقوش بمفردك مهما حاولت.. إنها لا تعود إلى زمن تعرفه أو قرأت عنه في حياتك.. إنها آتية من هناك.. منذ ما قبل أن يبدأ التاريخ ذاته.

ـ لهذا لجأت إليك.

ـ أحسنت صنعًا.. لقد استغرقت مني بعض الوقت لكني تمكَّنت من ترجمتها في النهاية.. لكن ما توصلت إليه غير مكتمل.. إنه المفتاح الأول من اثنين.. بغير الثاني لا يمكننا أن نعرف الرسالة كاملة.

فتبدت الدهشة في وجه قدري، وقال:

ـ أهي رسالة؟

ـ رسالة أقرب إلى التحذير.. وموجَّهة إلى من يحمل المفتاح.. أعتقد أنه سيكون من الأفضل أن تقرأ ما ترجمتُه بنفسك.

قالها ودفن يده وسط مهرجان الأوراق والمخطوطات على مكتبه، ليخرجها بورقة ناولها إلى قدري الذي اختطفها منه بلهفة، ليبدأ قراءتها على الفور.

لم تستغرق قراءتها منه أكثر من ثوانٍ معدودة، لكنها كانت كافية ليتحول فضوله ودهشته إلى هلع حقيقي!

لقد كان يخشى أن تكون الإجابة مجرد بداية لأسئلة جديدة، لكن ما عرفه جعله يدرك أن هناك ما هو أسوأ.

ما قرأه في تلك الليلة جعله يقرر.. وبلا ذرة واحدة من التردد أو الندم.. أن دوره في هذه القصة قد انتهى تمامًا.. مهما حدث ومهما سيحدث فلن يحاول أن يعرف المزيد.

أبدًا!

كان قد فقد قدرته على النطق لفرط خوفه وذهوله، فقال مضيفه وهو ينفث المزيد من الدخان مع كلماته:

- ألم أقل لك إن يوسف هذا سيِّئ الحظ؟!

فلم يجبه الأستاذ قدري.. هذا سؤال لم يعد يحتاج إلى إجابة.. فقط وقف مستعدًّا للرحيل، وإن تذكَّر أن يقول لمضيفه قبل أن يفارقه:

- احرق ما ترجمتَه وتخلَّص من رسمة النقوش التي أرسلتها إليك.. هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكننا فعله.

- هذا ما سأفعله.. وعلى الفور.

ومن دون أن يتبادلا كلمة وداعٍ واحدة تركه قدري ورحل.

الليلة سيعود إلى القاهرة، وسيدمر كل شيء له علاقة بالمفتاح والنقوش ويوسف والدكتور مجدي.. وبهذا سيكون دوره قد انتهى في قصتنا هذه، ولن نحتاج إلى العودة إليه من جديد.

والآن يمكننا أن نعود إلى يوسف في غرفته في الفندق، والتي لن يدوم بقاؤه فيها طويلًا، لأسباب لم يعد هناك حاجة لشرحها.

١٦

حين عاد يوسف إلى غرفته في الفندق في ذلك اليوم كان قد اتخذ قرارين: أولهما أنه لن يخرج من غرفته ثانيةً مهما كان السبب.. لقد ابتاع ما يكفيه من كتب التاريخ، وسيستغرق شهورًا لو أراد قراءة هذا كله، فلا داعي للمخاطرة من جديد. أما القرار الآخر فكان يتلخص في أنه يجب أن يعثر على سوسن، وبسرعة قبل أن يعثر عليها عصام أولًا.. سوسن التي يبدو أنها متهمة بقتل سامح الذي لا يعرف عنه أي شيء.

كيف سيبحث عنها من دون أن يفارق غرفته؟ هذه مشكلة سيفكر في حلِّها لاحقًا، أما الآن فعليه أن يحاول إنقاذ ما تبقى من اليوم، فالليل اقترب، وهو لم يقرأ بعدُ حرفًا مما ابتاعه، والأسوأ أنه لم ينم، وهو لا يملك رفاهية النوم ليلًا.

المشكلة هنا أنه اعتاد روتينه طويلًا.. وأيام الشتاء تغري بالنوم حقًّا.. أضف إلى هذا نوبة الصداع النصفي التي بدأت تُعلن عن نفسها، وستجد أن خيار عدم النوم هو أسوأ الخيارات الممكنة، لكن يوسف لا يملك سواه مع الأسف.

لهذا جلس على الفراش وأمسك بأحد الكتب التي ابتاعها، ليبدأ القراءة، محاولًا تجاهل نبض الألم الذي بدأ يتصاعد من جيوبه الأنفية، ولهذا مرَّت عليه ساعات مريرة لم يستوعب فيها حرفًا مما قرأ، لكنه قاوم محاولًا التركيز بكل طاقته.

تبدأ نوبة الصداع النصفي عادة بشعور كاسح بالجوع لا تملك معه إلا أن تملأ فمك بأي طعامٍ متاحٍ أمامك.. لكن يوسف كان يعرف أنه لو أكل فلن يقاوم النعاس، لهذا لم يأكل، ولهذا تجاوز مرحلة نوبة الجوع إلى مرحلة نبضات الألم التي تبدأ عادة في الجيوب الأنفية، قبل أن تزحف إلى نصف رأسه الأيسر ليشعر كأن مطارق حديدية تهوي عليه بلا توقف.

في هذه المرحلة يجب اللجوء إلى مسكنات الألم، وهي لا تجدي في المعتاد، لكنها ـ على الأقل ـ تخفف من ساعات العذاب المقبلة.. لكن.. لا مسكنات ألم هنا، ولن يُخاطر بالخروج من غرفته مجددًا ليبتاع بعضًا منها.

يمكنه أن يطلب من صاحبة الفندق أن ترسل من يبتاع له بعض المسكنات، لكنها تفترض أنه مدمن، فكيف سيكون شعورها لو طلب منها شراء مسكنات ألم قوية المفعول؟!

مع الوقت تشتد حدة الألم، وتتحول المطارق إلى جمرة متقدة تومض في رأسه، ويتفق عدد ومضات الألم مع عدد نبضات قلبه، فكم نبضة ينبض بها قلب الإنسان الطبيعي في الدقيقة الواحدة؟ وكم نبضة ينبض بها قلب رجل خائف منهك يتألم؟

بعدها تبلغ نوبة الصداع النصفي ذروتها وينتشر إنهاك عجيب في الجسد

تصاحبه رغبة في القيء، وتغدو القراءة مستحيلة، وتتلخص الخيارات المتاحة كلها في خيار واحد غير مسموح به في حالة يوسف.. النوم.

لكنه لن ينام.. سيقاوم.. نوبة الصداع النصفي ستدوم لساعات، لكنه سيقاوم.

سيقاوم، وسيحاول أن يقرأ ورأسه ذاته يهتز مع نبضات الألم التي تعصف به.. نعم سيقرأ.. إن الساعة الآن الثامنة مساءً، وشمس الشتاء ستشرق بعد اثنتي عشرة ساعة لا أكثر.. وحتى لو لم تشرق.. فمن العسير على يوسف أن يتخيل أن الشيء سيزوره بعد الثامنة صباحًا.

بعدها ومع ذروة الصداع النصفي تكتسب العين البشرية حساسية فائقة ضد الضوء.. أي ضوء.. فما بالك بمحاولة القراءة على ضوء مصباح الغرفة المتوهج فوق رأسه كألف شمس؟

ربما كان عليه أن يسترخي في الظلام قليلًا.

لا.. لن ينام.. فقط سيُرخي جفنيه وسيظل جالسًا في الظلام محاولًا تجاوز هذه النوبة إلى أن يتوقف رأسه عن الاهتزاز على الأقل.

بعدها سيعود إلى القراءة وسيتماسك حتى يأتي الصباح.

حينها سينام وسيستيقظ ليتناول أكبر وجبة ممكنة، ثم ينام من جديد ليستيقظ قبل أن يحل الظلام.

خطة محكمة لا تحتاج إلا لاثنتي عشرة ساعة لتنفيذها.. المهم أن يتماسك، وألَّا ينام مهما اشتد الألم.. ومهما أغراه الظلام.. ومهما اشتدت برودة ليل الشتاء.

الساعة الآن الثامنة وعشر دقائق ليلًا، ويوسف يرقد الآن على فراشه يشعر برغبة عارمة في البكاء.

الساعة الآن الثامنة وخمس عشرة دقيقة، والألم يشتد ويشتد ويشتد.

الساعة الآن الثامنة والثُّلث، وجسده كله الآن ينتفض ألمًا وإرهاقًا وجوعًا.

الساعة الآن الثامنة والنصف إلا خمس دقائق، ويوسف يحاول أن يغادر فراشه بمشقة كيلا يستسلم لنعاس وجد لنفسه مكانًا في رأسه وسط نبضات الألم.

الساعة الآن الثامنة والنصف، ويوسف الآن نائم بعمق على المقعد المجاور لفراشه!

نائم بعد صراع لم يدم طويلًا، ونومه ذاته لن يدوم إلا لساعة أو أكثر.. فبعدها.. سيغادر يوسف جسده وزمنه وسينتقل إلى حيث ينتظره الشيء.

١٧

ما حدث هو أن يوسف وجد نفسه في ذلك المنزل.

لم يكن قد غادر مقعده المجاور للفراش في غرفة الفندق، لكن الفراش لم يعد هناك.. لا هو ولا الغرفة كلها.

من حوله تبدَّل المكان تمامًا ليفتح يوسف عينه مستيقظًا بغتة، وليجد نفسه في قاعة متسعة يكسوها الظلام والبرودة، فأدرك أنه غفا، على الرغم من مقاومته ليظفر به الشيء وليأخذه من عالمه وزمنه إلى مكان جديد.. لكن...

أين؟

أهذا هو الفصل الثاني من اللعبة؟

كان وحيدًا.. لكنه حين وجد نفسه في تلك الغابة في المرَّة الأولى كان وحيدًا أيضًا.. وحيدًا وفي جسد ينزف، لم يكن جسده بل جسد ذلك الرجل في ذلك الـ... مهلًا.. إنه في جسده هذه المرَّة!

نعم.. ها هي ذراعاه النحيلتان.. ساقاه اللتان ترتعشان.. هذه هي لحيته

التي استطالت.. وها هو يرى بعينه اليمنى التي تبقت له بعد أن أخذ منه الشيء اليسرى.. أهذا هو الفصل الثاني من اللعبة أم لا؟

يبدو أن عليه أن يحصل على إجابات أسئلته بنفسه، فجال ببصره في القاعة التي تسلل إليها ضوء شاحب عبر نوافذ عالية مغلقة، ليرى تلك اللوحات العجيبة التي غطت جدران القاعة، والتي لم ترسمها يدٌ بشرية.. فلا يوجد بشري قادر على رسم لوحات تتحرك!

تتحرك كأنها شاشات بلازما تعرض مشاهد تتكرر بلا نهاية، ثم إنه يرى نفسه في كل لوحة من اللوحات المعلَّقة!

في اللوحة الأولى كان يجلس مع الدكتور مجدي في غرفة الزيارة في السجن.. تحديدًا في اللحظة التي نزع فيها الدكتور مجدي قلم يوسف من عنقه لينثر دماءه في وجهه وقد تراجع يوسف في اللوحة ذاهلًا مشمئزًا من الدماء التي أغرقت وجهه وملابسه.. والمشهد أمامه يتكرر بلا توقف.. ينزع الدكتور مجدي قلمه.. تتناثر الدماء في وجهه.. يتراجع هو بعد فوات الأوان.

وهنا تساءل يوسف من جديد: أين هو؟

في اللوحة الثانية رأى يوسف نفسه في ذلك الكافيه يجلس مع سوسن التي أخذت تتلفَّت حولها باحثة عن شيء ما غير موجود، فتذكرها يوسف وتساءل في أعماقه للحظة عن مصيرها قبل أن يولد السؤال الثاني في رأسه: مَن الذي رسم هذه اللوحات؟

انتقل بصره إلى اللوحة الثالثة، فرأى يوسف نفسه يعدو في تلك الغابة الضبابية وقد استبد به الهلع، وكان صلاح يجري وراءه بفك يتأرجح

وأصابع مفرودة ويدين كسيفين يشقان الهواء شقًّا، لتستحيل دهشة يوسف إلى الهلع ذاته الذي شعر به حين خاض تلك المطاردة، وليفهم أن هذه اللوحات تحكي قصته.

كل ما حدث له على مدى الأسابيع الماضية تحكيه هذه اللوحات باختصار كئيب.. لكن.. ماذا عن باقي اللوحات؟

هكذا انتقل إلى اللوحة الرابعة التي رأى فيها نفسه مرتديًا ملابس لا تمت إلى عصره بصلة وهو يعدو من جديد هابطًا درجًا صخريًّا يمتد بلا نهاية، وقد بدا عليه أنه يهرب من شيء ما من دون أن تعرض له اللوحة ماهية هذا الشيء مع الأسف.. هذا المشهد لم يحدث بعد.. لكنه لا يحتاج إلى ذكاء استثنائي ليدرك أنه سيحدث.

اللوحات تحكي له ما حدث وما سيحدث إذن.

في اللوحة الخامسة كان يوسف يقود تلك العربة التي تجرها الأحصنة، وكان ما تحمله هذه العربة هو قفص استقرت فيه امرأة أمسكت بقضبان هذا القفص وقد لاح جنون مطبق من نظراتها.. لكن الأسوأ من جنونها كان السرعة التي اندفع بها يوسف بالعربة كأنه يهرب من جديد من خطر آخر لم تعرضه اللوحة أيضًا.

مَنْ هذه المرأة؟ سيعرف حين ينتقل إلى عصرها.

اللوحة السادسة وباقي اللوحات كانت أبعد من مجال رؤيته، وكان الظلام قد تكفَّل بسترها، فهمَّ يوسف بأن يغادر مقعده ليرى ما سيؤول إليه مصيره، لولا أن تصاعد صوت الشيء فجأة من أمامه، لينتفض يوسف فاقدًا القدرة على الحركة والتنفس:

_ *كانت أمامك الفرصة للقضاء عليَّ منذ البداية.. لكنك تأخرت.*

وعلى الرغم من صدمته أدرك يوسف على الفور ما يقصده.. المرأة في الغابة.. كان عليه أن يقتلها قبل أن تمنح الشيء جسد زوجها، لكنه اختار أن يتركها.. وأن يتركه!

وفي الظلام أمامه توهجت عينا الشيء معلنًا عن نفسه وهو يواصل:

_ *لكن اللعبة لم تنتهِ بعد.. ما زلنا في البداية.. والقواعد لم تتغير.. سيكون لك الاختيار مرَّة أخرى.. وستحصل على قطعة جديدة من الحقيقة.. وفي المقابل.. سآخذ أنا منك قطعة.*

فارتجف يوسف ووجد نفسه يتخيل رغمًا عنه القطعة الجديدة التي سيأخذها منه الشيء: عينه اليمنى؟ لسانه؟ قلبه؟

_ *هذه المرَّة ستفهم أكثر.*

قالها الشيء فلم يعرف يوسف ما عليه فعله ليستعد.. فقط أدرك أنه لا يريد مواصلة هذه اللعبة، وهو إدراك لا ثمن له أمام يقين لا يتزحزح بأنه ليس اختياره.. اللعبة ستستمر حتى النهاية.

نهايته.. كما أخبره الشيء!

ومن حوله بدأ الظلام زحفه على اللوحات متجهًا إلى يوسف الذي أرخى جفنيه شاعرًا به يجثم على صدره، قبل أن يشعر فجأة بأنه يَهوِي لتتسلل تلك الصرخة من فمه ولتذوب في الظلام بمجرد ملامستها له.

وفي اللحظة التالية وجد يوسف أنه قد انتقل إلى الفصل الثاني من اللعبة.

* * *

وهذه المرَّة وجد نفسه يرقد على ذلك الفراش.. ويد قاسية تهزه بلا توقف وقد أخذ صاحبها يردد:

ـ استيقظ.. استيقظ.. فيجب أن نتحرك الآن وقبل أن يرحل.

ففتح يوسف عينه مضطرًّا ليحدق ذاهلًا في وجه صاحب اليد، وقد أخذ عقله يستوعب الحقائق الجديدة بسرعة من مرَّ بهذا الموقف من قبل.

لقد انتقل مرَّة أخرى.. ترك ذلك المنزل بلوحاته العجيبة وانتقل إلى تلك الغرفة صخرية الجدران، والتي تضيئُها مشاعل معلَّقة تتلوى النيران فيها كأنها ترقص مرحبة به... هذه هي أول حقيقة استوعبها عقله.

الحقيقة الثانية: هذا ليس جسده، فهو لم يكن أبدًا أشقر الشعر، ولا شاحب البشرة، ولم يَرْتَدِ أبدًا تلك الملابس التي لم يرَ مثيلًا لها إلا في اللوحة الرابعة.. إذن فهو الفصل الثاني من اللعبة.

والحقيقة الأخيرة: هذا ليس زمنه ولا وطنه، فاللغة التي يتحدث بها من أيقظه لا تمت للعربية بصلة، لكنه فهمها ليجد أنه يقول:

ـ استيقظ.. يجب أن نتحرك الآن.. الجميع في انتظارك.

لكن استيعاب الحقائق لا يقتل الأسئلة، لهذا واصل يوسف التحديق في ذلك الضخم، وعقله يلفظ سيلًا لا نهاية له من الأسئلة التي تحتاج إلى إجابات سريعة.

مَن هو؟ أين هو؟ مَن هذا الضخم؟ ومَن الذين ينتظرونه؟ لماذا ينتظرونه؟ وبالطبع السؤال الأهم هو: ما الذي عليه فعله هذه المرَّة؟

لكنه ليس وقت الحصول على إجابات كما هو واضح من لهفة وتوتر الضخم، الذي قال:

ـ هيا أَسْرِع.. يجب أن نفعلها الليلة.. هيا قبل أن يهرب.

قالها ليمنح يوسف سؤالين جديدين: نفعل ماذا؟ ومَن الذي سيهرب؟

لكن الضخم لم يكن هنا ليمنحه إجابات، بل لينتزعه من فراشه، فاستسلم له يوسف وقد أدرك أن جسده الضئيل هذا لن يتحمل مقاومته، ليدس الضخم سيفًا في يده، وليأمره:

ـ اتبعني.

فتبعه يوسف آملًا أن يقوده الضخم إلى حيث سيحصل على أي إجابة لأيٍّ من أسئلته.

* * *

وكانت أولى الإجابات التي حصل عليها يوسف هي أنه في قصر.

الممرات الصخرية التي امتدت متشابكة تضيئُها المشاعل أخبرته بأنه في قصر.. ضخامة كل صخرة في كل جدار أخبرته بأنه في قصر.. وصدى صوت خطواته، إذ أخذ يحثها محاولًا اللحاق بالضخم، أخبره بأنه في قصر.

قصر هائل الضخامة أشبه بمدينة صغيرة تنتمي إلى قصص الأساطير، لكن يوسف يعرف أنها ليست أسطورة، بل هو قصر حقيقي في زمن حقيقي، والشيء الوحيد الخارق للمعتاد هو وجوده الآن فيه في هذا الجسد الذي يلهث بلا توقف.

كان يجاهد ليلحق بذلك الضخم الذي لم ينطق بحرف واحد وهو يقوده عبر الممرات، لكنه في أعماقه شعر بامتنان حقيقي لوجوده معه..

على الأقل هذه المرَّة هناك آخرون يتحدثون وقد يمنحونه إجابات لبعضٍ من أسئلته.. فقط عليه أن يبلغهم وبسرعة.

صحيح أن يوسف قضى أسابيع طويلة يقرأ في كتب التاريخ وبلا توقف، لكنه على الرغم من هذا لم يتعرَّف أي شيء مما يحيط به.. هذا هو الفارق بين قارئ التاريخ ودارسه.. لو كانت سوسن مكانه لميزت الطراز المعماري للقصر واللغة التي تحدث بها الضخم، ولتأملت الرسوم على دروعه، لتحدد وبدقة المكان والزمان الذي انتقلت إليه، لكن يوسف لا يملك خبرتها، وكل ما استطاع التوصل إليه هو أنه في الماضي البعيد، وأنه في مكان ما في الشمال، فالثلوج تتساقط خارج النوافذ بلا توقف لتمنحه تفسيرًا مؤقتًا للبرودة التي يشعر بها طوال الوقت.

عظيم.. إذن هو في قصر.. في الشمال.. في الشتاء كما هو واضح.. وكل ما يحتاج إليه الآن هو شخص واحد عاقل يخبره بالمزيد، وهذا الشخص كان ينتظره الآن في أحد أبراج القصر، يتصاعد البخار من فمه، ويتبدى التوتر والقلق في ملامحه، وقد أخذت الثلوج المتساقطة في التجمع على لحيته البيضاء الطويلة، إذ أخذ يتأمل تلك المدينة الغافية بعينين لا تطرفان.

كتمثال من الرخام الأبيض وقف ذلك الأشيب ينتظر يوسف الذي بلغ البرج أخيرًا مع الضخم، ليلتفت إليه على الفور، وليبادره بصوت رجل يدرك خطورة الساعات القليلة المقبلة:

ـ أأنت مستعد؟

فأجابه يوسف وبلغته ذاتها وبصوت ليس هو صوته:

ـ مستعدٌّ لماذا؟

فتبدت الدهشة في عيني الأشيب والضخم، وتبادلا نظرة سريعة، قبل أن تعود عينا الأول إلى يوسف، ليجيب:

ـ لقتله.. أنت من سيقتل «فلاد».

وهنا كانت الدهشة من نصيب يوسف!

* * *

فيما بعد.. وحين سيعود يوسف إلى زمنه.. سيقرأ الكثير عن «فلاد الوالاشي»، وسيعرف كل شيء عن عصره الرهيب.

سيعرف متأخرًا ما كان عليه أن يعرفه منذ البداية، لكننا هنا نملك رفاهية لا يملكها هو، وهي أننا قادرون على التوقف لنعرف ولنفهم أكثر قبل أن نواصل قصتنا.. لهذا اسمح لي بأن أعرِّفك المكان والزمان وبعدها سنعود إلى يوسف الذي عليه أن يقتل «فلاد الوالاشي» بنفسه كما يبدو.

ما يعرفه العامة عن الرجل هو أنه كان أمير «والاشيا» (تُنطق «فالاكيا» بالمناسبة لو شئت الدقة) ومصدر الإلهام الذي استوحى منه «برام ستوكر» روايته الأشهر «داركيولا»، و.. وإلى هذا الحد تتوقف معلومات الأغلبية، مع أن حقيقة هذا الرجل أشد هولًا من كل روايات مصاصي الدماء التي كتبت جمعاء، لذا اسمح لي بأن آخذك معي إلى القرن الخامس عشر.. إلى عام ١٤٣١ تحديدًا، ففي شتاء هذا العام وُلِد «فلاد الوالاشي» ووُلِدت معه أسطورته.

أبوه هو «فلاد الثاني»، والسبب في لفظة «دراكيولا»، إذ إنه كان أحد أعضاء تنظيم التنين «دراكول» الذي أقسم على محاربة المدِّ الإسلامي المتمثل في العثمانيين.. وكلمة «إيولا» تعني «ابن له».. أي أن «دراكيولا» تعني «ابن التنين»، و«فلاد الثاني» لم يكن يستحق لقبه تمامًا، إذ إنه وجد أنه من العبث محاربة جيوش محمد الفاتح، فقرر عقد صفقة معهم مخالفًا التعليمات الصارمة للتنظيم الذي منحه لقبه.

والصفقة كانت بسيطة: سيترك له العثمانيون «والاشيا» ليحكمها مقابل دفع الجزية السنوية، وهو ما ارتضاه «فلاد الثاني» بأريحية، مثيرًا غضب الكنيسة، ولكن «فلاد» لم يكن ليخاطر بحرب لن يخرج منها منتصرًا بأي حال من الأحوال.. لهذا عقد صفقته مع محمد الفاتح، ولهذا أرسل إليه ولديه «فلاد الثالث» وأخاه الأصغر «رادو»، ليكونا في خدمته وليتعلما من العثمانيين أصول القتال والفروسية، وهو الأمر الذي اعتبره «فلاد» بمثابة نفي له، لكنه لم يكن ليجرؤ على الاعتراض.

سنوات طويلة قضاها «فلاد» مع الأتراك هو و«رادو» الذي راقت له الحياة هناك، فاعتنق الإسلام وانضم إلى جيوش محمد الفاتح، الأمر الذي اعتبره «فلاد» خيانة تستحق الإعدام، لكنه احتفظ بمشاعره لنفسه، إلى أن أتى اليوم الذي نفَّذ فيه النبلاء في «والاشيا» مؤامرة ضد أبيه ليقتلوه هو وأخاه الأكبر محاولين القفز على العرش.. مؤامرة كادت أن تنجح لولا أن تصدى لها محمد الفاتح ليرسل «فلاد الثالث» إلى «والاشيا» ولينصِّبه أميرًا عليها، وكان هذا عام ١٤٤٧، لكنه حكمٌ لم يَدُمْ سوى شهرين، غزت بعدهما المجر «والاشيا» لتطيح بـ«فلاد» الذي هرب إلى «مولدافيا» ليختبئ مع عمه الذي اغتيل لاحقًا، ليقرر «فلاد» المخاطرة وليسلم نفسه إلى ملك

المجر عارضًا خدماته ومعلنًا عن كراهيته العميقة للعثمانيين ورغبته في الانتقام منهم.

ولأنه كان يعرف الكثير عنهم من خلال الفترة التي قضاها أسيرًا معهم، راقت الفكرة لملك المجر، فنصب «فلاد» أميرًا على «والاشيا»، ليكون واجهة الدفاع أمام جيوش العثمانيين التي أخذت تحرز نصرًا تلو الآخر في طريقها لاسترداد «والاشيا» من جديد.

هكذا وفي عام ١٤٥٦ استرد «فلاد الثالث» عرش أبيه وحكم «والاشيا» التي وجدها في أسوأ حال ممكنة، ليقرر التصرف بسرعة وليبدأ عصره الذي هو واحد من أسوأ العصور في تاريخ البشرية وأكثرها إظلامًا.

وكانت الحقيقة الأولى التي تعلَّمها الجميع هي أن «فلاد» لا يَنسى.

فلم يكد الأمير الشاب يتربع على العرش حتى دعا جميع نبلاء «والاشيا» إلى مأدبة كبيرة كانت الأضخم والأشهر في تاريخ المقاطعة، وحضرها هو ليرمق النبلاء إذ أخذوا يعبُّون الطعام والشراب بِنَهَم، حتى اطمأن إلى أن بطونهم قد امتلأت عن آخرها ليلقي القبض عليهم في أماكنهم وليعدمهم فورًا بوضعهم على الخوازيق!

عشرات الآلاف من النبلاء وأُسرهم هلكوا في هذه الليلة من دون أن يجدوا حتى الفرصة لاستيعاب صدمتهم.. وطريقة الإعدام كانت قاسية بحق.. قاسية وبطيئة!

تخيَّل أن تأتي برجل.. تربط أطرافه إلى أربعة أحصنة تجذبها إلى أن تتمزق أوصاله وتنحل أربطة جسده.. ثم بعدها يتم دس خازوق خشبي حاد في جسده، ليعلَّق عليه حيًّا يصرخ ويتلوى ولتتكفل الجاذبية الأرضية بالباقي!

سعداء الحظ كانوا يهلكون بعد أيام متصلة من العذاب والخازوق يمزق أحشاءهم ببطء، أما تعساء الحظ فكان عذابهم يستمر لأسابيع تتعفن أجسادهم فيها وهم أحياء، إلى أن يهلكوا في النهاية، لتظل جثثهم معلَّقة شاهدة على انتقام «فلاد» الرهيب.

وكانت هذه هي البداية فحسب.

والحقيقة الأخرى التي تعلَّمها الجميع هي أن «فلاد» لا يَرحم.

من تبقوا أحياء من هذه المجزرة هم وآلاف من أهل «والاشيا» تم اقتيادهم إلى قصر «بوناري»، الذي كان عبارة عن أطلال مهشمة ترقد على تل مرتفع، ليأمرهم «فلاد» بإعادة بنائه، وعلى الفور، فلم يجرؤ أحد على الاعتراض.

ولأشهُر طويلة عمل الجميع في ظروف غير آدمية في ترميم القصر، ليتساقط الرجال والأطفال والنساء من الجوع والبرد، وليواصل الباقون العمل عرايا، وقد ذابت ملابسهم، وتمزَّقت بعد أشهُر من العناء، في بناء القصر بالحجارة، وبجثث من سقطوا، إلى أن اكتمل البناء أخيرًا، لينتقل «فلاد» إلى قصره الجديد، وليبدأ اتخاذ قرارات سريعة حاسمة للنهوض بمملكته وللاستعداد لحربه المقبلة مع العثمانيين.

هناك سرقات في المدينة.. كل من يقبض عليهم بتهمة السرقة يتم تعليقهم على الخازوق. هناك من يُبدون تخوفهم أو اعتراضهم على أوامر «فلاد».. كل من يعترض أو يجرؤ على التفكير في الاعتراض يتم تعليقه على الخازوق. هناك فقراء وشحاذون يجوبون طرقات المدينة.. هؤلاء دعاهم «فلاد» إلى مأدبة أكلوا فيها وشبعوا قبل أن يشعل النار فيهم أحياءً، ليقضي على الفقر في بلاده بطريقة مبتكرة حاسمة!

وهنا يجب أن نعترف بأن الرجل استطاع تحقيق نهضة حقيقية، وفي زمن قياسي، بجنونه وقسوته.. ومن رحم ظُلمِهِ وُلِد نوع خاص ونادر من العدالة.. يكفيك أن تعرف أنه استطاع بناء مدينته كاملة في أشهُر معدودة، قضى فيها على الفقر والجريمة، لدرجة أنه كان يضع كؤوسًا ذهبية في ساحة كل مدينة في متناول يد الجميع، من دون أن يجرؤ أحد على سرقتها أو الاقتراب منها.

في هذه الأشهر حصل «فلاد» على لقبه الأشهر: «فلاد المُخوزِق».

حصل عليه كتكريم له لتفننه في الإعدام بالخازوق، إذ كان يشترط أن تظل الضحية على قيد الحياة لأسابيع تتعذَّب فيها، وإلَّا لقي صانع الخازوق ذات المصير.. لهذا كانت الخوازيق تصنع من الخشب، وتُغمس في الزيت؛ لضمان الحصول على أفضل نتائج ممكنة.. ولإتقانه هذا سقط آلاف الضحايا وقُطعت آلاف الأشجار على حد سواء، قبل أن ينتهي «فلاد» من تجهيزاته، ليستعد لحربه المقبلة مع العثمانيين، الذين سمعوا عن الأهوال التي يرتكبها «فلاد» في «والاشيا» ليقرروا التدخل وقد أدركوا ـ بعد فوات الأوان ـ أنهم سمحوا لمجنون سادي بالوصول إلى العرش.

هكذا أرسلوا له وفدًا يطالبه بإبداء الطاعة ودفع الجزية، فاستقبل «فلاد» وفد العثمانيين ليستمع إليهم بلا اهتمام، وقد طلب منهم أن ينزعوا خوذاتهم في حضوره، فتبادل أعضاء الوفد نظرات الدهشة قبل أن يرفضوا معلنين أنهم لا يتبعون إلا تقاليدهم، ولا يمنحون احترامهم إلا لسلطانهم، فأمر «فلاد» بأن تُدق خوذاتهم في رؤوسهم بالمسامير كيلا يتمكنوا من نزعها أبدًا، وأعادهم من حيث أتوا حاملين رفضه الانصياع إلى السلطان الذي

اعتبر ما حدث بمنزلة إعلان حرب، ليحشد كتيبة مكونة من عشرة آلاف فارس، ويرسلهم إلى «والاشيا» في مهمة واضحة: اقتلوا «فلاد»!

لكن «فلاد» كان مستعدًّا.. لهذا.. وبينما هم في طريقهم إليه.. فاجأهم هو بهجومه قبل أن يقتربوا من «والاشيا»، ليقتلهم جميعًا وليعلِّق جثثهم على الخوازيق احتفالًا بانتصاره عليهم.. من بقوا على قيد الحياة ورأوا هذا المشهد الرهيب لاذوا بالفرار وعادوا إلى محمد الفاتح يروون له ما حدث، ليجن جنونه وليرسل هذه المرَّة جيشًا مكونًا من تسعين ألف فارس، وبقيادة «رادو» شخصيًّا.. أخي «فلاد» الأصغر.

وهذه المرَّة أدرك «فلاد» أن الأمر سيخرج عن سيطرته، وأنه لا قِبل له بمواجهة هذا الحشد العظيم إلا لو استطاع أن يُضعف من شوكتهم بقطع الإمدادات عنهم.. ولأن أي جيش يحصل عادة على المُؤن من المدن التي يحتلها في طريقه إلى المعركة، استعد «فلاد» لاستقبالهم بأن أحرق كل المدن والقرى المحيطة بـ«والاشيا» بمن فيها!

عشرات الآلاف هلكوا على يد «فلاد» فقط لتصل جيوش العثمانيين ليجدوا المقابر الجماعية والرماد ورائحة الشواء في انتظارهم.. حتى آبار المياه سمَّمَها «فلاد» قبل أن يغادر، فلم تجد الجيوش المنهكة من طول الرحلة المأوى أو الطعام أو الشراب، وبدأ الإنهاك يتسلل إليهم قبل أن تبدأ المعركة.. والأخطر أن الهلع تسلل إلى قلوبهم وهم يتأملون غابات الجثث المحترقة والمُخوزَقة، ليبدأوا التساؤل: إن كان «فلاد» يفعل هذا في أهل بلده، فما الذي سيفعله بهم؟

وإجابة هذا السؤال أتتهم سريعًا، في صورة هجمات متتالية خاطفة من «فلاد»، استطاع فيها أن يقتل أكثر من أربعين ألفًا من جيش «رادو»

الذي لم تعد مهمته هي تنفيذ أوامر السلطان؛ بل إنقاذ «والاشيا» ذاتها من جنون أخيه.

لهذا واصل «رادو» المعركة وجمع من تبقَّى من جيوشه ليبدأ محاصرة «فلاد» الذي احتمى بقصر «بوناري» يبحث عن مخرج من هذا الحصار، ليبدأ أيامه الأخيرة كأمير لـ«والاشيا» بعد ست سنوات تسبب فيها في هلاك أكثر من مائة ألف ضحية.

نحن الآن في عام ١٤٦٢.. في قصر «بوناري» الذي بُنِي بالدم والجثث والحجارة.. وفي واحدة من أسوأ ليالي الشتاء فيه.

هناك يقف يوسف الآن من دون أن يعرف ما نعرفه نحن، يحدق ذاهلًا في العجوز والضخم وقد تلقَّى منهما أخطر مهمة ممكنة.

عليك أن تقتل «فلاد»!

* * *

هكذا مرَّت لحظات ثقيلة بطيئة على يوسف والضخم والأشيب، وقد أخذت الثلوج في التساقط عليهم تحاول تغطيتهم.

كانت الدهشة بادية على وجوه الجميع، لكن أكثرهم دهشة كان يوسف الذي أدرك الآن أنه في «والاشيا»، وأنه ـ بحكم ثقافة الأغلبية ـ مطلوب منه أن يقتل «دراكيولا» شخصيًّا، فوقف هناك ينتظر أن يخبره الأشيب بمكان التابوت قبل أن يمنحه الوتد الخشبي الذي سينفذ به مهمته المقدسة! لكن الأشيب انتزع نفسه من ذهوله ليصيح غاضبًا هذه المرَّة:

ـ ما الذي تنتظره؟ «فلاد» سيهرب الليلة لو لم نقتله أولًا!

ـ «فلاد الوالاشي»؟

قالها يوسف ليتبادل الأشيب والضخم النظرات من جديد، ليقول الضخم مستنتجًا:

ـ إنها الثلوج.. لقد تجمدت أفكاره.

وهو تفسير ساذج لم يكن ليكفي للإجابة عن السؤال الدائر في عقل يوسف الآن: أهذا ما أرسله الشيء من أجله هذه المرَّة؟ ليقتل «فلاد الوالاشي»؟ لكن...

ـ لماذا؟

نطق بهذا السؤال فاحمر وجه الأشيب غضبًا، وأجاب:

ـ تريد سببًا لقتل «فلاد»؟ لا بأس.. سأمنحك سببًا.

وأمسك بمعصم يوسف ليجذبه، فاستسلم له يوسف، ليقتاده الأشيب إلى نافذة البرج وليشير إلى بقعة مظلمة في ساحة القصر، قائلًا:

ـ أيكفيك هذا السبب؟

فحدق يوسف في الاتجاه الذي أشار إليه الأشيب محاولًا التغلب على الظلام والثلوج المتساقطة، قبل أن يتمكن أخيرًا من تمييز ما يراه لينتفض قلب الجسد الذي يحتله بين ضلوعه، ولتتسلل صرخة ذهول مستنكرة من بين شفتيه.

فأمامه، وعلى مساحة شاسعة من ساحة القصر، كانت الوجوه تحدق فيه.

آلاف الوجوه لآلاف الجثث التي بدت للحظة وكأنها معلَّقة في

الهواء، قبل أن يميز يوسف الخوازيق التي اخترقت كل جثة من الجثث التي تكاثفت عليها الثلوج، مجمدة ملامح الرعب والألم على وجوه الجميع.

جثث رجال.. جثث نساء.. جثث أطفال.. والأسوأ أن بعضهم كان لا يزال على قيد الحياة يتلوى ألمًا، عاجزًا حتى عن الصراخ، وإن أخذت أطرافهم في الارتعاش بصورة لم يعرف يوسف معها إن كانوا يرتعشون ألمًا أم بردًا!

جثث حفظتها البرودة من التحلل، وجثث تحللت وتجمدت في أسوأ صورة ممكنة، وجثث استحالت إلى هياكل عظمية، حدق فيها يوسف للحظات قبل أن يفرغ معدته على سور البرج، ليتراجع الأشيب مبتعدًا عنه، ولينتظر حتى يُفرغ يوسف ما في جوفه، ليكرر:

ـ أيكفيك هذا السبب؟

فلم يجب يوسف، وإن أخذ جسده في الانتفاض بقوة.. أما الأشيب فتمالك نفسه ليقول بصوت خفيض كأنه يخشى أن يبلغ مسامع الموتى:

ـ لتقتل «فلاد» أو سينتهي بنا الأمر وسطهم.

فلم يَقوَ يوسف على النطق، وإن لم يشعر بأنه حصل على إجابة سؤاله.. لكن.. ما قيمة تساؤله أمام هذه المذبحة؟!

وعلى الرغم من البرودة والثلوج اشتم يوسف رائحة أخرى غير رائحة الموت المتصاعدة.

اشتم رائحة الشيء.

إنه هنا.. هنا في هذا العصر.. هنا وسط كل هذه الجثث وكل هذا الموت.. هنا.. لكن...

أهو «فلاد»؟

سؤال لن يعرف إجابته إلا...

ـ «فلاد» سيحاول الهرب الليلة.. لكننا لن نسمح له.. يجب أن يدفع الثمن أولًا!

قالها الأشيب فالتفت إليه يوسف مصدومًا عاجزًا عن النطق.

إذن فهذا ما عليه فعله في هذا الزمن.. أن يقتل «فلاد الوالاشي».. والسؤال الآن هو:

ـ كيف؟

ـ لدينا خطة.. لكن يجب أن نسرع.. أأنت مستعدٌّ؟

لم يجب يوسف، ولم ينتظر الأشيب إجابته.. فقط أشار له آمرًا:

ـ هيا بنا.

وانطلق فتبعه الضخم ويوسف لا إراديًّا.. ولو كان يوسف يعرف ما سيحدث له هذه الليلة، لما فعل!

* * *

في ممرات القصر تبع يوسف الضخمَ والأشيبَ هذه المرَّة، وكان قلبه يخفق بأسرع من خطواتهما.

وفي عقله المكدود أخذ يحاول استجماع الصورة في محاولة لاستنتاج

ما عليه فعله بالضبط.. إن الموقف كله وعلى الرغم من كل شيء لا يعدو كونه مجرد لعبة من ألعاب الشيء والقواعد لم تتغير بعد.

سيكون له الخيار.. سيحصل على قطعة من الحقيقة.. سيحصل الشيء على قطعة منه إلا إذا أحسن الاختيار هذه المرَّة.

إنه الآن في طريقه إلى «فلاد» ليقتله.. «فلاد» الذي يبدو أن الشيء احتل جسده في هذا الزمن، وإلا فكيف استطاع رجل واحد أن يتسبب في كل هذا الموت الذي رآه؟ سوسن والدكتور مجدي كانا محقَّين.. الشيء كان موجودًا طيلة الوقت في التاريخ، ووراء كل فترة مظلمة فيه.. والشيء هو من أتى به إلى هنا، والفارق الوحيد الآن بين يوسف وكل من عاشوا في هذا الزمن هو أنه يعرف.

يعرف ويستطيع التدخل.. لكن...

ماذا لو نجح في التصدي للشيء في هذا الزمن؟ ماذا لو قتله؟

أيعني هذا أن قصة الشيء ستتوقف في هذا العصر؟

أيعني هذا نهايته ونهاية لعبته الرهيبة؟

التصور أجمل من أن يُصدَّق.. سيتسلل يوسف إلى مخدع «فلاد الوالاشي».. سيقتله والشيء في جسده.. سيعود إلى زمنه ليجد أن الشيء قد اختفى، وأن الدكتور مجدي لا يزال على قيد الحياة هو وزوجته والدكتورة ليلى وعائلتها.. سيجد أنه استرد بصره وستنتهي مأساته عند هذا الحد.. نعم.

هذا تصوُّر أجمل بكثير من أن يتحقق!

ثم إنه لن يتمكن من القضاء على الشيء حتى لو قتل «فلاد»، فالشيء لا يموت بموت الجسد الذي يحتله، وإلا لكان الدكتور مجدي فعلها حين قتل ابنه الذي هو ليس ابنه.. كل ما سيحدث له هو أنه سيتحرر وسيبحث عن جسد جديد.

لا.. لن يموت الشيء، والطريقة الوحيدة للقضاء عليه هي طقوس النهاية كما أخبرته سوسن.. تلك الطقوس التي أمرته بالبحث عنها في كتب التاريخ، وها هو الآن وقد انتقل إلى الماضي ليعيش التاريخ بنفسه، فهل يعرف أحدهم هنا طقوس القضاء على الشيء؟

بل هل يعرفون بوجوده أصلًا؟

كلها أسئلة لا وقت لها الآن، وربما لو تمكَّن من قتل «فلاد» ونجا لوجد الوقت الكافي ليجوب هذا الزمن، وليبحث عن طقوس النهاية و... لكن مهلًا.. ماذا لو كان قتل «فلاد» هو الخيار الذي عليه أخذه؟

ماذا لو كان الخيار الصحيح هو تركه حيًّا؟

إنه سؤال يستحق التفكير، وربما كان سيدفع يوسف للتراجع عن مهمته التي لم يخترها، لولا أن مرَّ في طريقه على تلك الفتاة، ليتوقف وليحدق فيها ذاهلًا غير مُصدقٍ لما يراه.

فأمامه كانت الفتاة، التي لم يتجاوز عمرها الثانية عشرة بأي حال من الأحوال، معلَّقة بأغلال حديدية في جدار الممر، وقد نحل جسدها الذي لم تغطِّه سِوى أَسمالٍ بالية على الرغم من برودة الطقس، كاشفة عن عظامها البارزة، وقد بدا عليها أنها على هذه الحال منذ زمن طويل!

زمن كافٍ لتموت أطرافها التي لا تصل إليها الدماء لقسوة الأغلال

الحديدية التي تكبلها، لتبدأ ذراعاها وساقاها في التحلل كاشفة عن عظامها، لكن المسكينة كانت لا تزال على قيد الحياة!

آثار التعذيب تطل ممَّا انكشف من جسدها، وفي وجهها غارت عيناها، وإن أخذ فمها يتحرك بضعف شديد، هامسةً، فقرَّب يوسف أذنه منها ليجدها تقول:

ـ الملح.. لقد نسيت الملح.. في الحساء!

فتراجع يوسف ذاهلًا وتكفل الأشيب بالشرح قائلًا:

ـ إنها «ميشكا».. لقد كانت خادمة «فلاد».. أخطأت وعاقبها هو بتركها هكذا حتى الموت.

فانتزع يوسف اعتراضه من حلقه ليصيح:

ـ لمجرد أنها نَسِيَت الملح في الحساء؟!

ـ آخرون لقوا مصيرًا أسوأ لمجرد أن «فلاد» وجد البال الرائق لتعذيبهم حتى الموت.

فحدق فيه يوسف للحظات عجز فيها عن استيعاب الموقف، قبل أن تنتزعه الفتاة من ذهوله هامسة:

ـ أرجـ.. ـوك.. اقتـ.. ـلني!

قالتها بآخر ما تبقَّى لها من وعي قبل أن تغيب في غيبوبة أدرك يوسف أنها لن تستيقظ منها قطُّ، فظل مكانه يحدق فيها وقد أخذ ذهوله يتحول إلى غضب جارف لا مكان للمنطق معه.. غضب لم يشعر به حين رأى آلاف الجثث.

مَن الذي قال إن مصرع شخص واحد مأساة، بينما مصرع الآلاف مجرد إحصائية؟ أيًّا ما كان لقد كان محقًّا.

لحظات طويلة مرَّت على يوسف لم يجرؤ الأشيب ولا الضخم على الاعتراض فيها، وقد أخذا يطالعان الفتاة بمزيج من الإشفاق والعجز، قبل أن يشير إليهما يوسف هذه المرَّة بغضب لم يشعر بمثيل له من قبل:

ـ هيا بنا.

فهزَّ الأشيب رأسه وعاد يواصل طريقه ليتبعه الضخم، ويوسف الذي حسم قراره.

سواء كان الشيء يحتل جسده أم لا.. لم يعد هذا ليشكل فارقًا.

«فلاد» يجب أن يموت!

* * *

انتهى بهم المطاف في إحدى غرف القصر وأمام نافذة مفتوحة ترسل أسهم البرد لتنغرس في أجسادهم.

ومن صندوق في ركن الغرفة أخرج الضخم حبلًا غليظًا طويلًا، أشار به للأشيب:

ـ لنبدأ.

ففهم يوسف ما سيحدث فورًا، لكنه انتفض رغمًا عنه متسائلًا بحذر:

ـ أنتما لن تطلبا مني ما أظن أنكما ستطلبانه.

ـ لقد شرحت لك الخطة من قبل.. لكني سأراجعها معك للمرَّة

الأخيرة، فلا وقت أمامنا.. غرفة «فلاد» أسفلنا تمامًا.. لكننا لن نستطيع دخولها من بابها مع كل الحرس الذين يقفون أمامها.. لهذا ستدخلها أنت من النافذة.

ـ ولماذا أنا؟!

ـ لأنك أصغرنا حجمًا لسوء حظك.. سنربط هذا الحبل حول وسطك وسنساعدك على الهبوط إلى نافذة غرفة «فلاد».. ستفتحها بحذر لتدخل من دون أن يشعر بك.. بعدها اقتربْ من فراشه، وحين تقف أمامه مباشرة...

وأخرج الأشيب خنجرًا ضخمًا من حزامه دسَّه في يد يوسف الذاهل، مردِفًا:

ـ اغرسه في قلبه حتى مقبضه.. هذا هو كل شيء.

لكن يوسف كان يعرف أن هذا ليس كل شيء إطلاقًا.. بل هناك أشياء وأشياء، أولها الثلج المتساقط.. وثانيها طول الحبل، وإن كان سيكفيه ليبلغ غرفة «فلاد» أم لا، وإن كان سيتحمَّل ثقله أصلًا.. هناك أيضًا الطريقة التي سيفتح بها نافذة غرفة «فلاد» من الخارج وهو معلَّق في الهواء، وهناك السؤال الأخطر: ما الذي سيحدث لو شعر به «فلاد»؟

ما الذي سيحدث له ولهما؟ وأين الشيء من هذا كله؟

رأى الأشيب التردد في عين يوسف، فقال:

ـ لا توجد طريقة أخرى.. إنه نائم الآن لكنه سيستيقظ بعد قليل ليبدأ رحلة الهرب.. لقد خسر حربه مع العثمانيين، وهو يدرك هذا جيدًا..

لكنه لن ينتظر حتى يسقط حيًّا في أيديهم.. ليس بعد الذي فعلته زوجته.

ـ ما الذي فعلته زوجته؟

تساءل يوسف، فأشار الأشيب عبر النافذة إلى نهر أحاط بجانب القصر وقد أخذت أمواجه تندفع هاربة من برودة الطقس، ليجيب:

ـ لقد ألقت بنفسها في النهر.. اختارت الموت بدلًا من الأسر، فهي كانت تعرف المصير الذي ينتظرها كزوجة لـ«فلاد».. وهو لن يفعل مثلها.. «فلاد» لن يختار الموت لنفسه ولو دفع العالم كله ثمن بقائه حيًّا.. لهذا سنمنحه نحن هذا المصير بأيدينا.

فأطل يوسف برأسه من النافذة ليلقي نظرة سريعة على النهر المظلم، قبل أن يعيد رأسه إلى الداخل وقد غطتها الثلوج ليقول:

ـ خطتك هذه لن تنجح.. سينتهي بي الأمر في النهر لو كنت محظوظًا.

ـ صدقني.. سيكون هذا أفضل من أن تسقط في يد «فلاد».. والآن...

وأشار الأشيب برأسه للضخم، الذي اتجه على الفور إلى يوسف ليبدأ عقد الحبل حول وسطه، من دون أن يقاومه يوسف أو يعترض، وإن عاد قلب الجسد الذي يحتله إلى الخفق بسرعة لا تُتحمَّل.. أما الضخم فانتهى من عقد الحبل وجذبه بقوة ليتأكد من متانته ثم أعلن:

ـ سَيَفِي بالغرض.

ليعطي الأشيب إشارة البدء ليوسف بعينيه.. وفي عقله راجع يوسف الخطة بسرعة.. سيُلقي بنفسه عبر النافذة.. سيفتح نافذة غرفة «فلاد»

ويتسلل إلى الداخل.. ثم يغرس الخنجر في قلبه حتى مقبضه.. خطة ساذجة لا ينتظرها إلا الفشل، لكنه سيجرب حظه الذي لم يخذله سُوؤُه من قبل.

لهذا دسَّ يوسف الخنجر في حزامه وجذب نَفَسًا عميقًا، ليقول:

ـ أنا مستعد.

ومن دون أن يتبادل كلمة وداع واحدة مع الأشيب أو الضخم، بدأ الهبوط من حافة النافذة إلى حيث ينتظره الموت بأكثر من طريقة.

١٨

استقبلته الثلوج ببرودة لا ترحم، واشتدت الرياح فجأة كأنها تعلن عن استنكارها لما هو مُقدم عليه، لكنه قرر تجاهلها وقبض على الحبل بأصابع مرتعشة، ليبدأ رحلة هبوطه.

وعلى حافة النافذة وقف الضخم قابضًا على الحبل، ليأخذ في إدلائه إلى الأسفل ببطء، وبجواره وقف الأشيب يراقب الموقف بعينين لاح فيهما القلق والخوف ممَّا هو قادم، لكن يوسف تحاشى النظر إلى عينيه موجهًا تركيزه وإرادته إلى الحبل الذي يقبض عليه، مدركًا أنه لو أفلت من بين أصابعه لأي سبب فستكون نهايته في أعماق نهر تكاد مياهه أن تتجمد.

ولسبب ما افتقد يوسف صوت سوء حظه في رأسه، وقد لاحظ أنه لا يصاحبه في رحلاته الزمنية هذه، بل يظل هناك.. في جسده الأصلي في زمنه الذي سيبدأ بعد هذا الزمن بمئات السنين.

لكن لا بأس.. سيعود إليه، وسيجده في انتظاره بعد أن ينتهي من مهمته

في هذا الزمن، ومَن يدري.. ربما وضع نهاية للشيء في هذا الزمن لو نجح في مهمته الانتحارية هذه.

وببطء حَذِر بدأ يوسف الهبوط إلى الأسفل محاولًا تثبيت قدميه على صخور جدران القصر الزلقة.

ورويدًا رويدًا أخذ وَجْهَا الأشيب والضخم في الابتعاد عن مجال رؤيته، حتى لم يعد يرى أمامه سوى الجدار والثلوج المتساقطة، ليفكر يوسف للحظة في أن يلقي بنظرة سريعة إلى الأسفل بحثًا عن نافذة غرفة «فلاد»، لكنه لم يجرؤ على فعلها.

حين تتعلق بحبل من على هذا الارتفاع لن تجرؤ على النظر إلى الأسفل، ولو كانت هناك فرقة من الحسناوات يرقصن ويغنين في انتظارك، لهذا قاوم رغبته هذه وواصل الهبوط ببطء شديد.. فقط ليتمنى أن يتحمَّل الحبل ثقله إلى أن يبلغ هدفه وألا يفلته الضخم فجأة.. وإلا...

هذا الخاطر دفعه لأن يزيد من سرعته نوعًا ما، وقد انتبه إلى أن الشيء اختار له جسد هذا النحيل ليضعه خصيصًا في هذا الموقف، فاستبد به الغضب، وإن لم يفهم بعد ما الذي سيجنيه الشيء من هذا كله.. حتى لو نجح وقتل «فلاد».. فما الذي سيجنيه الشيء؟ وأين هو الآن؟ ولماذا لم تظهر نافذة غرفة «فلاد» اللعينة بعد؟!

الحبل يكاد يبلغ نهايته، وكل ما يراه أمامه وبصعوبة بالغة هو جدار القصر الصخري، ولو لم تظهر النافذة خلال لحظات فلن يكون أمامه إلا أن يتسلقه صاعدًا هذه المرَّة، ليعود إلى مرسلَيْه وليبلغهما بحماقة خطتهما

وفشلها.. حينها لن تكون هناك فرصة لتجربة خطة جديدة، وحينها سيبدأ رحلة بحثه من البداية عن الشيء و.. و..

وفجأة.. ولسبب لم يره يوسف أفلت الحبل من بين يدي الضخم، ليبدأ يوسف رحلة السقوط إلى موت محقق ينتظره بشغف!

* * *

وما حدث في الأعلى هو أن الضخم شعر بأن طول الحبل لن يكفي، فأخرج جذعه كله عبر النافذة محاولًا أن يزيد طوله، ولو سنتيمترات قليلة قد تصنع فارقًا في نجاح الخطة أو فشلها.. لكن ما حدث قبل هذه الليلة بيومين كان هو السبب في الكارثة التي حدثت حالًا، وهو موقف سريع أعتقد أننا نملك الوقت الكافي لنحكيه بسرعة.

الضخم ـ واسمه «ناندرو» بالمناسبة ـ هو واحد من رجال «فلاد».. واحد من كتيبة من كتائب حرسه الشخصي تحديدًا، والأشيب هو قائد هذه الكتيبة، وصاحب قرار وخطة اغتيال «فلاد».. وقبل يومين من هذه الليلة كان «ناندرو» يصحب «فلاد» في جولة في «والاشيا»، لم يكن من ورائها غرض إلا أن يجد «فلاد» من يعدمه من باب الترفيه عن النفس.

«فلاد» الذي كانت الحرب قد أرهقته وشغلت باله طويلًا، وحين وجد أنه عاجز عن التفكير بصفاء ذهن، قرر أن على أحدهم أن يدفع الثمن.. لهذا جمع حرسه، ولهذا أخذ يجوب شوارع «والاشيا» بحثًا عن ضحيته القادمة، فاختبأ الجميع في منازلهم مؤثرين السلامة، وبدأوا في الصلاة والدعاء بأن يمرَّ هذا اليوم عليهم وهم أحياء.

هكذا وجد «فلاد» الشوارع الخاوية في انتظاره، يغطيها الثلج،

وهكذا تبعه «ناندرو» متحاشيًا النظر إليه وقد أدرك أنه قد يحظى بلقب «الضحية القادمة» عند أقل خطأ أو استفزاز، لكن اللقب كان من نصيب زوجة مزارع مسكين، وجد أن عليه العمل في حقله لو كان يريد عشاءً في هذه الليلة.

رآه «فلاد» فاتجه إليه، لينتفض المزارع المسكين وليتلو صلاته الأخيرة، لكن «فلاد» سأله:

ـ أين زوجتك؟

وهو سؤال غريب، أجاب عنه المزارع على الفور:

ـ في المنزل يا سيدي.

ـ ولماذا لم تأتِ لتساعدك في العمل في الحقل؟

فلاحت الدهشة في وجه المزارع، لكنه أجاب:

ـ لأنني طلبت منها هذا.. إنها مريضة.

لكن الإجابة لم تَرُقْ لـ«فلاد»، فأعلن:

ـ بل هي كسولة.. وأنا لن أسمح للكسالى بالحياة في مملكتي.

قالها ففهم المزارع المسكين ما يقصده فورًا، وانخلع قلبه في صدره لكنه لم يجرؤ على الاعتراض أو الرفض.. فقط أخذ يرتعش وتبدى الرجاء والتوسل في عينيه من دون أن ينطق بحرف، بينما أشار «فلاد» لـ«ناندرو» آمرًا:

ـ اذهب وعُدْ إليّ بزوجته.

فانطلق «ناندرو» على الفور إلى منزل المزارع وقد أدرك أنه سيعود بها ليجد خازوقًا ينتظرها.

لكنه لم يكن ليجرؤ على الاعتراض هو الآخر، ولا التأخر حتى في تنفيذ أوامر «فلاد»، لهذا حثَّ الخطى إلى منزل المزارع المسكين، واقتحمه ليجد الزوجة المريضة ترقد على الفراش تئن وقد فقدت شعورها بالعالم الخارجي من الحُمَّى.

رآها «ناندرو» فوقف أمامها للحظة مترددًا، قبل أن يقرر أنه لن يرحمها ليحتل مكانها على الخازوق، فحملها من دون أن تشعر هي به، وأسرع بها عائدًا إلى «فلاد».. وفي أعماقه عَزَّى «ناندرو» نفسه بحقيقة أنها في شبه غيبوبة وقد لا تشعر بما سيحدث لها، وحتى لو شعرت فلن يدوم عذابها طويلًا وهي في هذه الحالة.

مبرر قذر كمهمته، لكنه لا يملك الخيار.. ولو سار كل شيء على ما يرام فسينتقم لها بعد يومين حين يساعد في تنفيذ خطة اغتيال «فلاد»، لكن الآن...

عاد «ناندرو» إلى «فلاد» حاملًا الزوجة المريضة، فسالت الدموع من عيني المزارع المسكين حين رآها، وهمس باسمها، وقد تحول في مكانه إلى لوحة كلاسيكية للقهر والهوان. وكان «فلاد» قد أمر حراسه بنصب الخازوق فعلًا، وكان في حاجة حقيقية لأن يَرَى من يوضع عليه.. لهذا أشار إلى «ناندرو» إشارة ذات مغزى، فأرقد «ناندرو» جسد الزوجة أمام مَن سينفذ عملية الإعدام، وتراجع مشيحًا بوجهه محاولًا تجاهل ما سيحدث لها بعد لحظات.

وكان هذا هو خطأه الوحيد!

فبلا مقدمات هوى «فلاد» على أنفه بمقبض سيفه، ليهشمه ببساطة انفجرت معها الدماء من أنف «ناندرو» الذاهل، قبل أن يفسر له «فلاد» تصرفه قائلًا بهدوء:

- لا تشح بوجهك واستمتع معي.

فاحتاج «ناندرو» إلى لحظة واحدة ليتغلب على ذهوله وألمه، وليعيد وجهه الغارق في الدماء صوب الزوجة التي بدأت تشعر بما سيحدث لها، لتحاول الصراخ بصدر أرهقه السعال.

وكما توقع «ناندرو» لم يَطُل عذابها كثيرًا، فهي لم تتحمَّل الهواء البارد أصلًا، فما بالك بقائم خشبي يخترق جسدها ببطء؟ وحين انتهى الأمر كان «فلاد» يبتسم وقد شعر بنوع من التحسن، وكان المزارع قد انهار على ركبتيه باكيًا، وكان «ناندرو» يتحسس أنفه محاولًا إيقاف النزيف.

هذا هو ما حدث يومها، وعلاقة قصتنا هذه بما حدث في الليلة التي بدأ فيها يوسف رحلة سقوطه هي أنف «ناندرو»!

فحين خرج «ناندرو» بجذعه من النافذة ليطيل الحبل الذي يقبض عليه يوسف قدر المستطاع، ضرب الهواء البارد أنفه الذي لم يلتئم جرحه بعد، ليشعر «ناندرو» كأنما سدد أحدهم لكمة باردة إلى أنفه.

صحيح أنه تحمَّل الألم وحاول تجاهله، لكنه انتشر بسرعة ليغزو وجهه كله، وليشعر «ناندرو» برأسه كله ينبض ألمًا، فأمسك الحبل بيد واحدة وبالأخرى حاول تغطية أنفه ليقيها التجمد، وكان هذا هو خطأه الثاني.

نعم الجسد الذي يحتله يوسف في هذا الزمن ضئيل.. لكنه يظل أثقل من أن يُحمل بيد واحدة.

لهذا أفلت «ناندرو» الحبل رغمًا عنه!

ولهذا هوى يوسف بجسده الجديد في الظلام!

* * *

في لحظة وجد يوسف جسده يَهوِي فلم يجد حتى الفرصة ليصرخ.

فقط تسارع المشهد أمامه، ليرى صخور جدار القصر تمر أمامه بسرعة فائقة، ثم لاح إطار نافذة غرفة «فلاد» أمامه، فدفع يوسف بيديه إلى الأمام ليتشبث في اللحظة الأخيرة بإطار النافذة، ليتوقف جسده عن السقوط، وليشعر بأصابعه تكاد تتهشم مع توقفه المفاجئ، ومع البرودة الشديدة التي تكاد يداه تتجمدان منها.

لكنه توقف عن السقوط، وهذا هو المهم.

ولم يصرخ، وهذا هو الأهم!

هكذا ظلَّ مكانه معلَّقًا للحظات احتاج إليها ليتغلب على هذه المفاجأة، قبل أن يشعر بيديه تنزلقان ببطء، فدفع جسده إلى الأعلى متمسكًا بالحياة عن الموت، محاولًا دخول غرفة «فلاد» من نافذته المغلقة.

ولم يكن الأمر سهلًا على الإطلاق.

الجاذبية الأرضية كانت تجذبه إلى الأسفل، وأصابعه كانت تنزلق تدريجيًا، وحين حاول تثبيت قدميه على الجدار ليخفف من ثقله على

يديه، وجد أنه يدفع جسده إلى الأسفل أكثر.. لكنه جذب نَفَسًا عميقًا ثم شحذ كل قوة الجسد الذي احتله، ودفع به إلى الأعلى بحركة سريعة.

استقبلته النافذة المغلقة، فلم يجد يوسف أمامه إلى أن يتعلق بيد واحدة وأن يحاول بالأخرى فتح النافذة، مخاطرًا بالسقوط لو كانت محكمة الإغلاق، لكنها ـ ولدهشته ـ استجابت له وانفتحت بدفعة واحدة، ومن دون أن تصدر أدنى صوت!

انفتحت فعاد يوسف يقبض على إطار النافذة بيديه الاثنتين، ثم دفع بجسده إلى الأعلى ثانية ليبدأ التسلق داخلًا الغرفة.

ببطء وحذر فعلها، وفي النهاية وجد نفسه يرقد على أرض الغرفة يلهث غير مصدقٍ أنه نجا.

لكنه وبمعجزة ما فعلها، فتمالك نفسه ووقف ببطء، ليجد نفسه أخيرًا يقف في الغرفة يتحسس مقبض الخنجر في حزامه، وقد أصبح أمامه شيء واحد ليفعله.

أن يقتل «فلاد الوالاشي».

* * *

الغرفة كانت أضخم من قدرة يوسف على التخيل، وهو الذي قضى أسابيعه الأخيرة في غرفة الفندق الضيقة.

وفي وسطها رقد فراش هائل الحجم تحيط به ستائر تحجبه عن باقي الغرفة، لكن يوسف ميَّز الجسد الراقد عليه وقدَّر أنه لـ«فلاد الوالاشي»، فانتزع الخنجر من حزامه بحذر، ثم اقترب من الفراش ببطء شديد.

ومع كل خطوة أخذ يخطوها تجاه الفراش أخذت ضربات قلبه تتسارع.. وتتسارع.

ومتأخرًا جدًّا أدرك يوسف الفارق بين أن تتخذ قرارًا بقتل أحدهم.. وبين أن تحاول تنفيذه عمليًّا!

وعلى بعد ثلاث خطوات من الفراش توقف مكانه وقد كاد قلبه يتوقف في صدره لفرط سرعته ولانحباس أنفاسه، لكنه تذكر وجوه الجثث التي حدقت فيه، وتذكر الخادمة المعلَّقة على جدار ممر القصر، ليتغلب على تردده وليواصل طريقه متقدمًا نحو الفراش.

سيقتل «فلاد» لأنه يستحق الموت.

سيقتله لأنه يجب أن يدفع الثمن.

سيقتله لأنه الشيء، أو لأن الشيء أرسله إلى هنا ليقتله، أو لمجرد أن يغير التاريخ بقتله.

سيقتله.. وبعدها.. فليكن ما يكون.

هكذا بلغ يوسف الفراش أخيرًا.

رفع الخنجر بيمناه متأهبًا.

أزاح الستائر المحيطة بالفراش بحركة سريعة.

ثم شهق بذهول جارف حين رأى المفاجأة التي كانت في انتظاره!

١٩

لم يكن يوسف قد رأى «فلاد الوالاشي» من قبل، لكنه لم يحتَجْ لأن يراه ليعرف أن الراقد على الفراش أمامه هو شخص آخر.

فأمامه رقد على الفراش عجوز ضامر الجسد، وقد أخذ يحدق فيه بعينين متسعتين ملأهما الرعب، ليدرك يوسف أنه مجرد بديل وضعه «فلاد» على فراشه ليلقى مصيره لو حاول أحدهم اغتياله.

حتى في هذا الزمن كان الحكام يخشون الموت على أيدي رعيتهم، ويلجأون لحيل تبقيهم على قيد الحياة وعلى مقاعد السلطة.

وهذه المرَّة كانت الحيلة بسيطة، لكنها فعَّالة حقًّا.. حتى لو تسلل أحدهم إلى غرفة «فلاد» فلن يجده، وسيجد نفسه أمام الاختيارين اللذين وجد يوسف نفسه أمامهما.. إما أن يخاطر بترك العجوز على قيد الحياة ويحاول الهرب.. وإما أن يقتله!

«في كل مرَّة سيكون أمامك الخيار».

قالها الشيء ولم يكن يمزح، ولم يكن يوسف يظن أن الخيار سيكون بهذه القسوة كل مرَّة.

ها هو الآن يقف يحدق ذاهلًا في العجوز الذي يحدق فيه بخوف، وفي اللحظات التالية عليه أن يتخذ قراره.

إما أن يكون الموت من نصيب العجوز.. وإما أن يكون من نصيبه هو.

إنها لعبة الشيء، وعليه أن يلعبها حتى النهاية.

المرَّة الأولى التي وجد يوسف نفسه فيها أمام هذا الخيار كانت في الغابة في الزمن الأول.. كان عليه أن يقتل المرأة التي نفذت طقوس استدعاء الشيء لأول مرَّة، لكنه تراجع وتركها فاستحضرت هي الشيء وبدأت معها المأساة التي دفع ثمنها الآلاف من الضحايا على مرِّ التاريخ انتهاءً به هو شخصيًّا.

والآن أمامه الخيار ذاته.. كل ما عليه هو أن يقتل ذلك العجوز الذي يكاد يبلل الفراش لفرط خوفه، متناسيًا حقيقة أنه لا ذنب له في كل ما يحدث، وأنه كان ينفذ أوامر «فلاد» مضطرًّا.

كل ما عليه هو أن يَهوِي بالخنجر على جسده الضامر المرتعش وأن يتسلل من النافذة مرَّة أخرى ليحاول الهرب من دون أن يشعر به أحد، فهل سيفعلها؟

هل سيقتله؟

وبصوت مرتجف مرتعش قال العجوز:

- لن.. لن أصدر أدنى صوت.. صدقني.. فقط لا تقتلني.. أرجوك لا تقتلني!

قالها فشعر يوسف بغضب عجيب لا حدود له.

غضب من أن «فلاد» اختار ذلك العجوز بدلًا من أن يختار حارسًا ضخمًا يقبض على من يحاول اغتياله.

غضب من أن المنطق يقول إن الخيار الآمن الآن هو أن يقتل هذا العجوز.. غضب من أنه اضطر إلى المجيء لهذا الزمن، لهذا الموقف، ليجد نفسه أمام هذين الخيارين.

غضب جارف تملكه تجاه العالم بأسره بكل مَن فيه، وكل ما فيه، وكل زمان مرَّ عليه، قبل أن يسيطر عليه في النهاية ليهمس:

ـ سامحني!

ثم أغمض عينيه وهوى بكل قوته على جسد العجوز بالخنجر.

* * *

وفي اللحظة الأخيرة.. وقبل أن يبلغ الخنجر جسد العجوز، تساءل يوسف عن سر اختيار «فلاد» له بالذات ليكون مكانه.

وفي اللحظة التالية.. وحين انغرس الخنجر في جسده، عرف يوسف الإجابة حين تصاعدت صرخة العجوز هائلة مدوية ترج جدران القصر، معلنة فشل خطة اغتيال «فلاد» تمامًا.

ونهاية يوسف!

* * *

وما حدث بعدها كان أشبه بكابوس مرير تعجز معه عن تمييز الواقع من الخيال.

العجوز أطلق صرخته قبل أن يُسلم روحه إلى بارئها.. يوسف تجمَّد في مكانه من المفاجأة.. أصوات أقدام تعالت قبل أن يقتحم حرس «فلاد» الغرفة ليحيطوا به شاهرين سيوفهم.. ثم حدثت أشياء كثيرة لم يشعر يوسف بأغلبها، ولم يعد له انتباهه إلا حين وجد نفسه يقف في النهاية مع الضخم والأشيب أمام «فلاد الوالاشي» في إحدى غرف القصر، ليراه يوسف أخيرًا، كيف استطاع رجل كهذا ارتكاب كل الأهوال التي سمع عنها والتي قرأ عنها لاحقًا؟!

لم يكن «فلاد» ضخم الجثة ولا مخيف الملامح.. مجرد رجل عادي ذي شارب ضخم يشطر وجهه نصفين، أسفله فم دقيق، وأعلاه عينان خاملتان تحملان ثقة رجل يدرك جيدًا أنه أيًّا ما كان ما يريده فسينفذ له على الفور.

رجل اعتاد رؤية الموت وتوزيعه.. اعتاد رائحة الجثث والدماء.. اعتاد القتل حتى أصبح هواية يمارسها باستمتاع لا حَدَّ له.

رجل تأمل يوسف والضخم والأشيب بهدوء بالغ، قبل أن يسأل حرسه:

ـ مَن منهم الذي تسلل إلى غرفتي؟

فأشار أحدهم صوب يوسف الذي لم يتغلب بعد على شعوره بأن كل ما يحدث الآن هو جزء من كابوس سيفيق منه بعد قليل، ليأمر «فلاد» حرسه مشيرًا إلى الضخم والأشيب:

ـ ضعوهما على الخوازيق.. واختاروا لهما خازوقين يليقان بمكانتيهما.

قالها ببساطة فشحب وجه الأشيب واستسلم لحرس «فلاد» وقد تضاعف عمره فجأة، بينما قاوم «ناندرو» وصرخ وتوسل وبكى، لكنهم

في النهاية سيطروا عليه وحملوه حملًا خارجين به من الغرفة، تاركين يوسف الذي وقف ينتظر مصيرًا أسوأ من الإعدام على الخازوق، لكن «فلاد» أشار إليه قائلًا:

ـ أما أنت فتعالَ معي.. إنه يريد رؤيتك.

فلم يحتج يوسف لأن يسأله عن هوية من يتحدث عنه.

إن عيني «فلاد» لا تتوهجان، وهذا يعني أن الشيء لا يحتل جسده.. لكنه موجود في هذا الزمن بالطبع.. إذن فهو من ينتظر يوسف الآن.. وفي هذه الحالة...

ولدهشة «فلاد» ابتسم يوسف مستسلمًا لمصيره، ليقول:

ـ ما الذي تنتظره؟ هيا بنا.

* * *

وللمرَّة الثالثة أخذ يوسف يجوب ممرات القصر تابعًا «فلاد الوالاشي» هذه المرَّة.

لكن الممرات هذه المرَّة كانت تختلف.. لم تكن مضاءة بالمشاعل كسائر ممرات القصر، بل كان الضوء الوحيد فيها هو ضوء المشعل الذي حمله «فلاد»، إذ تقدمه فواكب يوسف سرعته ليحافظ على مجال الرؤية أمامه، وكانت هذه الممرات أشد برودة من الطقس خارج القصر، ليوقن يوسف أنه في طريقه للقاء الشيء هذه المرَّة.

لم تَطُلْ رحلتهما في الممرات طويلًا، ولم يستغل «فلاد» الوقت في أحاديث جانبية أو محاولات للتعرُّف إلى يوسف، أو حتى السبب الذي

طلب الشيء من أجله لقاءه.. لقد كان ينفذ أوامر الشيء لا أكثر، ومن الواضح أنه اعتاد هذا، فتساءل يوسف للحظة إن كان الشيء هو من أمره بقتل كل من قتلهم أم أنه فعله بإرادته، قبل أن يجد أن سؤاله هذا بلا قيمة.

حتى لو كان الشيء أمر «فلاد».. فإن «فلاد» اختار أن يوافق على تنفيذ طلباته، وفي كل الأحوال هو المسؤول عمَّا اقترفته يداه.

ثم إن هناك أشياء أهم ليشغل باله بها.. أشياء كمصيره هو، والذي سيتحدد بعد قليل على يد الشيء ذاته.

انتهى بهما المطاف أمام باب معدني محكم الإغلاق، فتحه «فلاد» لتهب رياح باردة أطفأت المشعل الذي يحمله، ليطبق الظلام عليهما فجأة، وليتعالى صوت «فلاد» فيه:

ـ ادخل.

فتقدم يوسف داخلًا الغرفة ليسمع صوت الباب المعدني يُغلق من ورائه، ثم صوت «فلاد» يقول بلهجة أقرب إلى الطاعة والخوف:

ـ لقد أحضرته لك.

قالها لتشتعل فجأة عدة مشاعل متناثرة في جدران الغرفة، فأغمض يوسف عينيه غريزيًّا مع الضوء المفاجئ، قبل أن يفتحهما ببطء، ليبدأ لقاؤه الجديد مع الشيء.

* * *

كان الشيء يرقد أمامه في بقايا جسد بشري.

كان هناك رأس يرقد على جذع، لكنه فقَدَ ذراعه اليسرى وساقيه من

أسفل الرُّكبة وأجزاء لا بأس بها من لحم جسده، وشعرا الرأس واللحية استطالا حتى غطيا الجسد كله، لكن.. ومن بين الخصلات أطل الشيء بما تبقى من وجه الجسد الذي احتله، ليلقي نظرة على يوسف.. وليبتسم.

أمام هذه البقايا انحنى «فلاد» بطاعة أقرب إلى العبادة، مانحًا يوسف تفسيرًا منطقيًّا لجنونه الذي سيكتب عنه المؤرخون مئات الصفحات، لكن الشيء تجاهله وواصل تحديقه في يوسف بعينين متوهجتين، ليستعيد يوسف هلعه الذي لا يشعر به إلا في وجوده.. وحين نطق الشيء خرج صوته متحشرجًا وإن احتفظ بنبرة العبث:

_ *أجسادكم تبلى سريعًا.. كيف تُطيقون العيش فيها؟*

فلم يجب يوسف بالطبع.. ولم يكن ليملك إجابة لو حاول.. فقط أخذ يحدق بمزيج من الرعب والامتعاض في البقايا التي رقدت أمامه على أرضية الغرفة، والتي انتصب «فلاد» واقفًا أمامها، ليقول:

_ سيدي.. أنا.. أ...

_ *اخرج.*

قالها الشيء فلم يتردد لحظة واحدة.. بل إن يوسف لمح الرعب في عينيه إذ أسرع خارجًا من الغرفة ليتركه يواصل لقاءه الرهيب بمفرده.. مرَّت لحظات ثقيلة من الصمت البارد، قبل أن يقول الشيء:

_ *تريد جزءًا من الحقيقة.. وها قد حصلت عليه.*

وفي هذا كان محقًّا.. فعلى الرغم من هلع يوسف بدأ جزء جديد من الصورة يتضح في عقله.

المرأة في الغابة في الزمن الأول منحت الشيء جسده الأول لكنه غادره.. غادره وتنقل في الأجساد والأزمنة حتى انتهى به الأمر في هذا الجسد البالي الراقد أمامه.. لهذا لجأ الشيء إلى «فلاد» لينفذ له مخططه، وليتسبب في مصرع مئات الآلاف من الضحايا.. ولكن..

ـ لماذا؟

كان هذا هو أول ما نطق به يوسف، فأجاب الشيء بلهجته العابثة:

ـ لأن كل يوم آخذه من أعماركم.. يضاف إلى عمري.

لهذا إذن قتل الشيء كل من قتلهم على مرِّ كل هذه السنوات!

ها هي الصورة تتضح أكثر وأكثر.. والآن أصبح يوسف يعرف لماذا يقتل.. إذن فالسؤال الثاني هو:

ـ من أنت؟!

ـ في هذا الزمن لن تحصل إلا على جزء واحد من الحقيقة.. ومقابلها سآخذ أنا قطعة منك.. هذه هي قواعد اللعبة.

فسرت قشعريرة باردة في جسد يوسف، وقد تذكر هذه القاعدة اللعينة، ليتساءل عن الجزء الجديد الذي سيأخذه منه الشيء هذه المرَّة.. لكن الشيء لم يمنحه الفرصة للتساؤل، إذ واصل:

ـ والآن يأتي الاختيار.

فماتت الأسئلة في عقل يوسف، وحلت الدهشة محلها!

الاختيار؟!

ألم يكن قتل العجوز في غرفة «فلاد» هو اختياره؟

لو لم يكن هو اختياره في هذا الزمن، فما هو؟

أجابه الشيء وكأنما أصغى إلى سؤاله:

ـ في ركن الغرفة ستجد قوسًا وسهمًا واحدًا.. وفي الجدار ستجد فتحة كافية لتطلق منها سهمك إلى سماء المدينة.. إنها الإشارة التي ينتظرها الجيش الذي يحاصر المدينة ليقتحمها وليفتك بكل من فيها.. لو فعلتها فستقضي على «فلاد»، وعلى جسدي هذا، لكنك ستتسبب أيضًا في قتل الآلاف هنا.. ولو لم تفعلها فستدفع الثمن غاليًا.. ها هو خيارك.. فما الذي ستفعله؟

وهنا فقد يوسف قدرته على التفكير تمامًا.

ضع نفسك مكانه وحاول أن تختار.

أمامك الفرصة لتقضي على الشيء ـ على جسده على الأقل ـ لتوقف مجازره التي يرتكبها عبر «فلاد الوالاشي» ـ والذي سيدفع أخيرًا ثمن جرائمه ـ لكنك ستتسبب في الوقت ذاته في مصرع آلاف لا ذنب لهم.. إما هذا وإما أن تدفع الثمن في هذا العصر لتهلك أنت، وأغلب الظن أن نهايتك ستكون الموت البطيء على أحد خوازيق «فلاد».. فما الذي ستختاره؟

حين قتل يوسف العجوز في غرفة «فلاد» كان يشعر بغضب عارم ساعده على اتخاذ قراره.. لكنه الآن لا يشعر إلا بالعجز.

العجز التام عن التفكير وعن اتخاذ القرار.

ـ *اتخذ قرارك وبسرعة.. فلا وقت أمامك.*

يقولها الشيء فيبدأ عقل يوسف العمل ببطء، ليلخص له الموقف بصورة واضحة: يمكنه الآن أن يقتل الآلاف لينجو هو.. أو أن يهلك هو في هذا الزمن ليبقى الشيء وليواصل لعبته معه.

خيار مرير وقاسٍ، لكن يوسف توقف أمام سؤال واحد منحه له ضميره لسوء حظه: لو اختار النجاة لنفسه وقتل الآلاف.. فما الفارق بينه وبين «فلاد»؟

لقد رأى بنفسه الجثث.. رأى الخادمة.. رأى الموت يبتسم.. فهل سيبادله الابتسامة؟

هل يفعلها؟

إن القرار الصحيح ينمو في أعماقه، لكنه لا يجرؤ على النطق به، لهذا لم يعلنه.. لكن الشيء عرفه، فقال:

ـ *إنه اختيارك إذن.*

فأغمض يوسف عينيه منتظرًا مصيره، وفي هذه اللحظة فتح «فلاد» باب الغرفة ليدخلها، حاملًا لجسد امرأة هلكت غرقًا في الليلة الماضية.. جسد زوجته!

عند باب الغرفة وقف «فلاد» حاملًا الجسد حتى أشار إليه الشيء بأن يتقدم، فاتجه إليه «فلاد» وأرقد الجسد أمامه، ففتح يوسف عينيه وتبدت فيهما الحيرة حين رأى الجسد الواهن الذي فارقته الحياة، والذي أشار إليه «فلاد» ليقول:

ـ أخبرتني بأنك ستعيدها إلى الحياة.

فأجابه الشيء:

ـ ولن تموت بعدها أبدًا.. أنت تعرف الطقوس.

فانتفض يوسف على ذكر كلمة «الطقوس» وشحذ انتباهه كله ليتابع اللحظات المقبلة، وليحدق في «فلاد» الذي قال:

ـ سأنفذها كما شرحتها لي تمامًا.

قالها ثم انحنى على ركبتيه ليبدأ تلاوة طقوس، سمعها يوسف من قبل.

سمعها في الزمن الأول إذ ردَّدتها المرأة التي كانت تظن أنها ستعيد زوجها إلى الحياة.

سمعها ليفهم كل شيء في لحظة وليصيح بلوعة:

ـ توقف أيها الأحمق.. إنك تمنحه جسدها.

لكن «فلاد» لم يتوقف.. فقط واصل ترديد الطقوس بخشوع أقرب إلى الصلاة، حتى اقترب من نهايتها، ليفعل آخر شيء توقعه يوسف على الإطلاق.

فمع نهاية الطقوس استلَّ «فلاد» خنجرًا من حزامه فجأة ليصيح:

ـ إنني أقدم لك هذا الجسد.. جسدي.

ومن دون ذرة تردد أولج الخنجر حتى مقبضه في قلبه هو!

* * *

فيما بعد.. وحين فكَّر يوسف فيما حدث توصل إلى الاستنتاج التالي: «فلاد» عقد صفقة مع الشيء بأن يعيد زوجته إلى عالم الأحياء.. بل إنه وعده بأنها ستحيا إلى الأبد، وهي النقطة التي أغرت «فلاد» ودفعته لقراره بأن يمنحه جسده هو بدلًا منها طمعًا منه في الحياة الأبدية، من دون أن يعرف أن كل ما سيحدث هو أنه سيهلك وأن الشيء سيحتل جسده.

هذا الاستنتاج منطقي ويصلح لتفسير الموقف كاملًا، لكن يوسف لم يتوصل له حينها وقد استبد به الفزع، أمام ما حدث في تلك الليلة مع «فلاد» والشيء.

ففي اللحظة التي أولج فيها «فلاد» الخنجر في قلبه صرخ هو والشيء في اللحظة ذاتها لتمتزج صرختاهما في صرخة واحدة هائلة مدوية، بدت كأنها تخرج من حناجر ألف رجل مجتمعة، قبل أن يهمد جسد الشيء فجأة، بينما انتصب «فلاد» ـ الذي لم يعد «فلاد»! ـ واقفًا في الغرفة وقد توهجت عيناه بقوة.

وكان كل ما عرفه يوسف ليلتها هو أن الشيء احتل جسد «فلاد».

وكان كل ما قاله الشيء بذات الصوت العابث:

ـ *والآن.. اهرب.*

* * *

وللمرَّة الأخيرة في هذه الليلة جاب يوسف ممرات القصر، لكنه كان يعدو بأقصى سرعته.

كان يهرب.

بكل الهلع الذي اجتاحه وبكل طاقة الرغبة في البقاء حيًّا، حاول الهرب.

ومن حوله تسارعت الموجودات حتى فقد القدرة على التمييز بينها.. ممرات.. مشاعل.. أدراج.. بوابة القصر.. حرس يطاردونه.. ضحكات الشيء بصوت «فلاد» تتردد من حوله ومن كل اتجاه.

ثم وفي النهاية وجد يوسف نفسه يهبط درجًا طويلًا بطول التلة التي يرقد عليها قصر «بوناري» الرهيب.. درجًا بدا كأنما يمتد بلا نهاية، يمكنك أن تراه في أي صورة للقصر، ورآه يوسف من قبل في اللوحة في ذلك المنزل الذي أخذه الشيء فيه قبل أن يأتي به إلى هذا الزمن.

اللوحات كانت تعرض له ما سيحدث حقًّا ولم تكن تكذب.

ها هو الآن يعدو وقد فقد حتى القدرة على التوقف.

الثلوج تضربه.. عضلات الجسد الذي يحتله تصرخ ألمًا.. صدره يجاهد لدفع بعض الأنفاس الباردة فيه.. والقصر من ورائه يبتعد ويبتعد ويبتعد.

لكن الدرج لا ينتهي!

إلى أين سيذهب لو نَجَا؟ لا يهم.. المهم أن ينجو.

المهم أن يبتعد.

المهم أن ينتهي هذا كله و.. و..

وتعالى فجأة صوت صفيرٍ حادٌّ انتهى بذلك السهم الذي انغرس في ظهر يوسف، ليندفع جسده إلى الأمام ويواصل هبوط الدرج متدحرجًا عليه بقوة تهشمت لها عظامه، وتفجرت معها دماؤه، لتكسو الثلوجَ باللون الأحمر القاني.

وأمام يوسف اختلط المشهد ما بين درج ودماء وعظام وسماء تتساقط منها الثلوج.

ثم أظلمت الدنيا فجأة.

وانتهى كل شيء.

٢٠

وحين عاد يوسف إلى زمنه هذه المرَّة وجد نفسه على أرضية غرفته في الفندق يسعل بقوة تناثرت معها الدماء من فمه.

أخذ يسعل.

ويسعل.

ويسعل.

وفي النهاية رقد على أرضية الغرفة يلهث عاجزًا عن التنفس أو التصديق.

هكذا انتهى الفصل الثاني من اللعبة إذن.

وحين سيقرأ يوسف لاحقًا عن زمن «فلاد» سيعرف أن جيش «رادو» الذي كان يحاصر المدينة اقتحمها، وأن «فلاد» هرب متجهًا إلى ملك المجر الذي أمر بسجنه فور وصوله، ليقضي «فلاد» هناك سنوات طويلة انتهت بأن تزوج أخت الملك ـ بمعجزة ما ـ قبل أن يختلف المؤرخون حول نهايته.

بعضهم قال إنه قُتل على أيدي العثمانيين، وإنهم قطعوا رأسه وعادوا به إلى محمد الثاني ليضعه على خازوق نصبه على مدخل قصره.. والبعض يقول إن «فلاد» اختفى تمامًا وبلا أدنى أثر.. وحتى قبره، الذي زعم البعض أنه دُفن فيه، نُبش لاحقًا فلم يجد فيه أحد جثمانه، ولا أثر على أنه دُفن فيه على الإطلاق!

المهم أن عصره المظلم انتهى، وأن مصير «فلاد» ظل حتى يومنا هذا مجالًا للتأويل والاقتراح من دون إجابة واحدة شافية.

والمهم أن يوسف سيعرف هذا لاحقًا، لكن ما سيعرفه الليلة حين سيذهب إلى ذلك المستشفى القريب من الفندق هو القطعة الثانية التي حصل عليها الشيء من جسده.

فبعد فحوصات سريعة وبعض «الأشعات» دخل عليه الطبيب المقيم ليعلن بدهشة من يعجز عن تفسير ما يقوله:

- إنها رئتك اليمنى.. لقد ماتت!

٢١

وفي فيلَّا الدكتورة ليلى كانت مقبرة جماعية في انتظار المُقدِّم عصام.

وفي اللحظة التي خطت فيها قدماه الفيلَّا أدرك أن للأمر علاقة بجثة ذلك المهندس الشاب التي طاردته في أحلامه طوال الليالي الماضية، بعد أن ميَّز أنفه رائحة الموت التي أفعمت المكان، والتي اشتمَّها من قبل في شقة ذلك المهندس الذي كان يُدعى سامح سمير، قبل أن يتحول اسمه إلى رقم ملفه المفتوح في النيابة.

للموت رائحة مميزة، وهي حقيقة يعرفها البعض، لكن بالنسبة إلى عصام فلكل موت رائحته الخاصة، وهو قادر على التمييز بين هذه الروائح بعد سنوات لا بأس بها من الخبرة.. هناك رائحة الموت المفعم بالكراهية.. هناك رائحة الموت الذي يحمل لفح الغضب.. هناك رائحة الموت المؤسف غير المقصود.. هناك رائحة القتل مع سبق الإصرار والترصد.. وهناك تلك الرائحة التي اشتمها أول مرَّة في منزل الدكتور مجدي، لكنه في أعماقه رفض الربط بين ما حدث لمجدي وابنه وللمهندس الشاب وبين ما حدث هنا في فيلَّا الدكتورة ليلى.

نعم.. إنها الرائحة ذاتها المفعمة بالقسوة والبرودة، لكنه كان قد اتخذ قراره بأن قضية الدكتور مجدي انتهت باعترافه ـ الذي لم يقتنع به قطُّ وإن احتفظ بهذه الحقيقة لنفسه ـ ولم يعد باقيًا منها إلا زيارته الأخيرة لمنزله مع يوسف الذي بدأ يتحول إلى علامة استفهام في رأسه، عليه أن يجيب عنها لاحقًا.

لهذا قرر إخراج الدكتور مجدي وابنه من المعادلة، والتفرغ للربط بين ما حدث في شقة المهندس سامح وبين ما حدث هنا، وهو أمر ليس بيسير، فهو لم يبدأ فحص الفيلّا بعد، ولم يجد أي تفسير لما حدث للمهندس الشاب أبدًا.

صحيح أنه عثر على بصمات سوسن في شقة سامح ـ والمشكلة هنا أن سوسن كانت تلميذة الدكتور مجدي ـ لكنه لم يتمكن قطُّ من التوصل إليها، ولا إلى الطريقة التي قتلت بها ضحيتها.. لا هو ولا خبراء المعمل الجنائي.. ولا حتى الطبيب الشرعي استطاع أن يمنحه تفسيرًا لموت رجل بالغ بهذه الطريقة العجيبة.

لا توجد أصلًا طريقة معروفة تستطيع أن تحرق بها رجلًا من الداخل إلى الخارج، وحتى إن وجدت.. فلماذا فعلتها سوسن؟

لماذا قتلتْ سامح؟

سؤال لن يحصل على إجابته إلا منها، لكنها اختفت، وهو بحث عنها طويلًا من دون جدوى، والآن هو مضطر لأن ينساها مؤقتًا، وأن يفرغ ذهنه تمامًا للتركيز فيما حدث هنا.

ما يعرفه حتى الآن هو أن جريمة قتل حدثت في الفيلّا، وأن أحدهم

اتصل من داخل الفيلَّا ليبلغ عنها.. متصلة على وجه الدقة، لكنها لم تفصح عن هويتها، وهذا يضعها في قائمة المشتبه فيهم، مما يستدعي القبض عليها واستجوابها، فقط لو عرف مَن هي.

أهي سوسن؟

علامة استفهام أخرى تستحق إجابة، لكن ليس الآن.. الآن عليه التظاهر بالأهمية والثقة أمام رجال المعمل الجنائي، ليحافظ على هيبته، وعليه أن يبدأ عمله الذي يتلخص في توزيع الأوامر والنظر بتأفف إلى كل شيء يحيط به.. لهذا أشار بتأفف إلى مطفأة سجائر على إحدى الطاولات آمرًا أحد رجال المعمل الجنائي:

ـ ابحث عن آثار تبغ وحدد نوعيته.

فأسرع الرجل ينفذ ما طلبه على الفور من دون أن يجرؤ على ذكر أن مطفأة السجائر خاوية.. إنها مزيَّة أن تمنح نفسك الهيبة اللازمة.. الكل سينفذ أوامرك من دون نقاش أو اعتراض.

لهذا ترك الرجل يضع مطفأة السجائر في حقيبة بلاستيكية عازلة تمهيدًا لفحصها ورفع البصمات عنها، ووقف يتأمل الفيلَّا بعينين خبيرتين، محاولًا استشفاف الموقف، قبل أن يهبط إلى القبو حيث ترقد الجثث كما أخبروه.. جثث لا جثة واحدة، لكنه لا يعرف ما ينتظره بعد، ولهذا وقف يتأمل أثاث الفيلَّا بهدوء ليشعر بما شعر به يوسف ذاته حين دخلها أول مرَّة.

الوحدة.

هذه الفيلَّا تعاني الوحدة.

نعم هناك صور عديدة لصاحبتها الدكتورة ليلى مع زوجها وطفليها يبتسمون فيها بمرح لم يعرف طريقه إلى هنا منذ زمن طويل، لكن الأتربة التي تغطي كل شيء تعلن وبصراحة أن الفيلَّا كانت خاوية لوقت كافٍ لتتجمع فيه هذه الأتربة وتغطي فيه كل شيء بدرجة متساوية متقنة.. ثم إن كل شيء موضوع في مكانه لم يتحرك على نحو يستحيل حدوثه في مكان يعيش فيه طفلان في عُمر الطفلين اللذين يراهما في الصور.. نعم.. هذه الفيلَّا كانت خاوية منذ زمن.. خاوية أو أن أحدهم كان يعيش فيها كشبح وحيد من دون أن يُعنى بتنظيف المكان أو تحريك أي شيء فيه من مكانه.

على مرمى البصر لم تكن هناك دماء أو آثار اقتحام أو عنف.. هذا يعني أن القاتل كان يعرف طريقه جيدًا وأنه دخل إلى الفيلَّا بصورة شبه مشروعة.. ربما كان يعرف سكان الفيلَّا أيضًا، لكن.. لو كانت سوسن هي القاتلة فما علاقتها بالدكتورة ليلى؟ ولماذا قتلتها؟

لا.. لقد قرر أنه سيتجاهل سوسن مؤقتًا، لذا لن يسمح لها بالتسلل إلى أفكاره مجددًا.. على الأقل إلى أن يثبت له أن هناك علاقة بينها وبين ما حدث هنا، وما عليه الآن إلا أن يتقدم هابطًا القبو ليرى بنفسه ما حدث، متجاهلًا نظرات رجال المعمل الجنائي المتوترة ومحاولاتهم الواضحة تحاشي النظر إلى مدخل القبو.. لقد سبقوه ورأوا الجثث، ويبدو أن ما ينتظره يستحق الاجتناب حقًّا، لكنه عمله ليس اختياره.. لهذا حافظ على تماسكه وتأففه وبدأ هبوط سلم القبو.

أسفله تصاعد الأنين الخشبي فتجاهله مواصلًا طريقه إلى قائد المعمل الجنائي الذي وقف عند نهاية الدرج ليستقبله، وقد حمل وجهه التعبير ذاته الذاهل الرافض الذي حمله في شقة المهندس الشاب سامح، فسرت

القشعريرة في جسد عصام قبل أن يرى الجثث حتى.. وقد أدرك أن لحظات سوداء في انتظاره.. لكنه حاول الحفاظ على قناع التماسك على وجهه وانتزع السؤال من حلقه ليلقيه في وجه قائد المعمل:

ـ ما الذي حدث هنا؟

ـ أربع جثث.. العائلة كلها!

قالها من أسفل الكمامة التي يرتديها، ولم يحتج عصام لأن يسأله عن سببها هذه المرَّة، فالرائحة كانت أوضح من اللازم.

رائحة موت مرَّ عليه زمن طويل.

لكل موت رائحته المميزة، وهذه المرَّة اشتم عصام القسوة والبرودة.. ورائحة التحلل، لكنه جاهد ليتحمَّلها، وليواصل:

ـ كيف؟

فأجابه قائد المعمل الجنائي بنظرة طويلة صامتة كانت أسوأ من أي رد ممكن، قبل أن يفسح الطريق أمام عصام الذي هبط آخر درجتين في سلم القبو، ليتجه إلى ما كان قائد المعمل الجنائي يخفيه بجسده عن مجال رؤيته، ليحدق ذاهلًا فيما كان ينتظره في قبو الدكتورة ليلى.

وأنت تعرف ما الذي كان في انتظاره، لذا لا داعي لوصفه من جديد.. فقط سأخبرك بأن عصام لم يتحمل ما رآه هذه المرَّة، وأنه أفرغ معدته في ركن القبو بقوة كاد يلفظ معها روحه من جسده، قبل أن يقف في النهاية يترنح ويلهث، فمنحه قائد المعمل الجنائي الوقت الذي يحتاج إليه، إلى أن نطق عصام أخيرًا ليكرر سؤاله الأول متقطعًا لفرط لهاثه:

ـ ما.. الذي حدث.. هنا؟

ـ كلهم قُتلوا.. الرجل والطفلان تهشمت رؤوسهم بأداة ثقيلة.. المرأة طُعنت ونزفت حتى الموت.. هذا هو ما حدث.

وهي إجابة لا تجيب عن أي شيء.

لكنَّ عصام لم يقوَ على المزيد، فتطوع قائد المعمل الجنائي، ليجيب عن السؤال المنطقي الثاني:

ـ هناك بصمات.. الكثير منها هذه المرَّة.. لكن هذا ليس كل شيء!

قالها واتجه إلى جثة الطفلة التي لم يعد من الممكن تمييزها إلا من حجمها، ليشير إلى فمها المفتوح، مردفًا:

ـ هناك شيء ما معدني كان يستقر في فمها لزمن طويل.. زمن كافٍ لأن يترك أثره على لسانها.. شيء لم يعد هناك لأن القاتل أخذه على الأرجح.

فجاهد عصام مرَّة أخرى لينتزع السؤال من وسط لهاثه وقد داهمته رغبة عنيفة في القيء من جديد:

ـ ما هو.. هذا الشيء؟

ـ مفتاح.. الذي كان في فمها مفتاح.

* * *

وهذا المفتاح كان بين أصابع يوسف الآن، يتأمله محاولًا تخيل ما الذي يمكن أن يفتحه.

برئة واحدة وعين واحدة قضى يوسف الأيام الماضية ما بين القراءة في

كتب التاريخ وتأمل المفتاح، وفي أعماقه كان شعور عجيب بالاستسلام لقدره ينمو، فلا يخالطه إلا تخيلات لأبواب لا وجود لها يفتحها هذا المفتاح، لتقوده إلى خلاصه.

ثلاثة أيام مرَّت عليه منذ أن عاد من زمن «فلاد».. ثلاثة أيام قرأ فيها كل شيء عن عهده الرهيب وانتابه فيها إحساس لم يشعر به أي قارئ للتاريخ في هذه الدنيا.

إحساس من كان هناك!

ثلاثة أيام تأقلم فيها يوسف على التنفس برئة واحدة، من دون أن يجهد نفسه بالتفكير في كيفية موت رئته داخل جسده.. ذلك الأمر الذي أصاب الطبيب الذي فحصه بالذهول والحيرة، وقد عجزت معلوماته الطبية عن الإجابة عن هذا السؤال، فتركه يوسف يبحث عن الإجابة في الكتب والمراجع الطبية، وعاد هو إلى كتب التاريخ محتفظًا بالإجابة لنفسه.

لقد أخذها الشيء.

إنها قواعد اللعبة.. في كل مرَّة سيمنحه قطعة من الحقيقة.. ويأخذ منه قطعة.

ـ لكنه منحني المفتاح بلا مقابل.

قالها لنفسه وهو يرقد على فراشه يتأمله بين أصابعه بنقوشه العجيبة التي حفرت عليه، محاولًا ألا يسترجع في رأسه باقي أحداث الليلة التي حصل عليه فيها.. نعم.. لقد منحه الشيء المفتاح بلا مقابل ولسبب ما لم يعرفه بعد.. ثم بدأت لعبة الشيء الزمنية وبدأت عملية تبادل الحقائق بأعضاء جسده، وحتى الآن خسر يوسف عينًا ورئة، ولكن...

ولكن ما الحقائق التي حصل عليها حتى الآن؟

لقد عرف كيف كانت بداية الشيء، وعرف أنه كان يمكنه التدخل ومنع ظهوره لأول مرَّة، لكنه اختار ترك المرأة في الغابة ودفع ثمن الاختيار.. هكذا نفذت المرأة طقوس الاستدعاء لأول مرَّة، وهكذا وُلد الشيء في عالمنا، وهكذا بَقِيَ!

ماذا أيضًا؟

إنه الآن يعرف لماذا يقتل الشيء كل مَن يقتلهم.. لأن كل يوم في أعمارنا يضاف إلى عمره.. والشيء قتل الآلاف.. ربما الملايين عبر التاريخ.. إذن فهو باقٍ إلى يوم الدين لو لم يقضِ عليه أحد، ويوسف لم يعرف بعدُ طقوس القضاء عليه!

ماذا أيضًا؟

لقد عرف أن الشيء يستمتع بوقته حقًّا!

إنه لا يقتل كوباء لا عقل له، بل إنه يستمتع بما يفعله.

ربما لأنه رآه أولًا في صورة ابن مجدي ـ الذي هو ليس ابنه ـ أو ربما في النبرة العابثة في صوته، قرر يوسف أن هذا الشيء أشبه بطفل سادي يمارس هواية لعينة حُرم منها طويلًا، وهو رأى ما الذي يصيب الأطفال الساديِّين الذين يحرمون من هوايتهم، فهو لم ينسَ صلاح قطُّ، ولن ينساه أبدًا بعد لقائهما الرهيب في الغابة.. المشكلة هنا أن صلاح تكفلت سيارة مسرعة بالقضاء عليه، أما الشيء فيحتاج إلى طقوس خاصة لا يعرف إن كان سيعثر عليها قبل فوات الأوان أم لا.. طقوس مدفونة في صفحات التاريخ تنتظر من ينفض التراب عنها، تمامًا كما حدث مع طقوس البداية التي استدعت هذا الشيء إلى عالمنا.

ماذا أيضًا؟

لقد عرف أنه في الزمن المقبل سيكون مع امرأة.

امرأة احتلت مكانها بجدارة في صفحات التاريخ السوداء ـ لو طبَّق عليها القاعدة ذاتها التي طبقها الشيء مع «فلاد» ـ وهو رهان غير مضمون، لكنه لا يملك سواه.. الشيء يختار دومًا من هم ذوو سطوة ونفوذ لينفذ مخططه عبر أجسادهم، وليمنحهم في المقابل الخلود في صورة طغاة لن ينساهم التاريخ أبدًا.. وهنا يأتي سؤال جدلي لا إجابة له:

أهؤلاء الذين اختارهم كانوا طغاة قبل أن يحتل أجسادهم، أم أنه هو من حولهم إلى طغاة بعد أن احتلها؟

أهم طغاة حقًّا أم مجرد ضحايا من ضحايا الشيء؟

سؤال جدلي لا إجابة له، ولا فارق ستصنعه أي إجابة.. المهم أنه أصبح يعرف الآن أين يبحث في كتب التاريخ، والدور الآن على امرأة.. فمن هي؟

امرأة يلوح جنون مطبق من عينيها وترقد في قفص على عربة تجرها الأحصنة يقودها هو.. كما رأى في اللوحة.

امرأة يجب أن يعرف عنها كل شيء ممكن، وأن يحاول استنتاج ما سيفعله معها.

ففي الفصل الثالث من اللعبة.. سيكون لقاؤه معها.

* * *

أما عصام فكان يعرف هوية المرأة التي يطاردها، ويعرف كل شيء عنها من دون أن تفيده معرفته هذه بشيء.

اسمها سوسن.. في الثانية والعشرين من العُمر.. طالبة في السنة النهائية في كلية الآداب قسم التاريخ.. نحيلة، ترتدي نظارة طبية تمنحها ذكاءً واضحًا، وتخفي نظراتها الحادة المتوترة.. والدها كان يعمل محاسبًا في أحد البنوك، ووالدتها كانت ربة منزل قبل أن يختفي الاثنان كسوسن بلا أثر أو تفسير.. والأسوأ من هذا كله أنها كانت تلميذة الدكتور مجدي، وهي التفصيلة التي لم يعد بإمكانه تجاهلها أكثر من هذا.

سوسن كانت خطيبة سامح ـ كما عرف من التحريات ـ ولقد تركت بصماتها في مسرح جريمته، ما يمنحها لقب «مشتبه فيه»، والرابط الوحيد بين هربها وبين العثور على بصماتها هو أنها «مرتكبة الجريمة».. هكذا يصبح الخيار الوحيد أمام عصام هو القبض عليها فاستجوابها للحصول منها على اعتراف يغلق به قضيتها، لكنه عاجز تمامًا عن العثور عليها على الرغم من كل محاولاته.

لقد راقب منزلها.. كليتها.. استجوب جيرانها وزملاء دراستها.. استدعى بعضًا منهم إلى مكتبه، ومارس عليهم كل فنون الاستجواب المسموح بها وغير المسموح بها، فلم يخرج منهم بشيء.. زار منزل جدها الراحل ثم حصل على قائمة بكل المكالمات التي أجرتها من هاتفها قبل أن تغلقه، فوجد أنها لم تكن من هواة استخدامه، وأن الوحيد الذي كانت على اتصال به قبل اختفائها هو يوسف، الذي زعم أن اتصاله الوحيد بها كان من أجل تحقيقه الصحفي اللعين.

يوسف الذي ترك منزله هو الآخر ولاذ بتلك الغرفة في ذلك الفندق القذر، وهي تفصيلة سيعود إليها في الوقت المناسب، لكن الآن عليه أن يتفرغ للعثور على سوسن فحسب، وعليه أن يتجاهل حقيقة أنه يفعل هذا

بدافع الفضول أكثر من أي دافع مهني مقبول.. إنه يثق بأنه ـ بدرجة أو بأخرى ـ يريد أن يعرف منها «كيف» قتلت سامح أكثر من «لماذا» قتلته.

كيف فعلت ما عجز الجميع عن تفسيره أو فهمه.

إنه لم يتعرض إلى موقف مشابه لهذا إلا في جريمة الدكتور مجدي، لكن جريمة هذا الأخير تبدو الآن أكثر بساطة وشاعرية.. الرجل هوى بمِطرقة على رأس ابنه حتى غرسها في جدار غرفة نومه، لكن سوسن.. لكن سوسن..

لكن سوسن أحرقت سامح من الداخل إلى الخارج!

نعم.. إنه يريد أن يعرف كيف فعلتها مهما كان دافعها.. فقط لو عرف «كيف» فسيتمكن من النوم من جديد، وهو لم ينم منذ أن رأى جثة سامح، والآن لن يجرؤ حتى على تمني النوم بعد أن رأى المذبحة التي كانت تنتظره في فيلَّا الدكتورة ليلى.

تقرير الطبيب الشرعي لخص له الموقف كالتالي: زوج الدكتورة ليلى وطفلاها تهشمت رؤوسهم بأداة ثقيلة هوت على رؤوسهم وهم نائمون في أسِرَّتهم ـ تمامًا كما حدث مع ابن الدكتور مجدي ـ قبل أن يجرَّ قاتلهم جثثهم إلى القبو ليضعهم هناك في وضع الجلوس على مقاعد قديمة بالية كأنه يدعوهم إلى اجتماع عائلي بهيج، لكنه ـ ولسبب ما ـ ترك الدكتورة ليلى على قيد الحياة.

التقرير يؤكد أن أسابيعَ مرَّت بين وفاة الدكتورة ليلى وبين وفاة عائلتها، وهنا يأتي سؤال مهم يستحق إجابة.

لماذا لم تُبلغ الدكتورة ليلى عن مقتل عائلتها طيلة هذه الفترة؟

لقد كانت معهم في الفيلّا طيلة هذه الأسابيع كما أكد جيرانها.. كانت تحيا في المكان ذاته الذي ترقد فيه جُثَثُ زوجها وطفليها.. فلماذا.. لم.. تبلغ.. عن.. مقتلهم؟

سؤال منطقي إجابته الوحيدة هي أنها قاتلتهم، وهو على استعداد لتصديق هذا التفسير بعد أن رأى ما الذي فعله الدكتور مجدي في طفله الوحيد، لكن حتى لو قبل بهذه الفرضية فسيجد نفسه مطالبًا بالإجابة عن أسئلة أخرى:

لماذا قتلت الدكتورة ليلى عائلتها بهذه الوحشية؟

لماذا دسَّت مفتاحًا في فم جثة طفلتها؟

كيف تحمَّلت البقاء مع جثثهم في المنزل ذاته طيلة هذه الفترة؟

لماذا لم تهرب أو تحاول الهرب حتى؟

والأهم من هذا كله: مَن قتل الدكتورة ليلى وسرق المفتاح من فم ابنتها؟

أهي سوسن؟

سوسن التي تأبى إلا أن تطارد أي نسيج أفكار يُغزل في رأسه.. سوسن التي يتخيلها الآن وهي تقتل الدكتورة ليلى لتسرق المفتاح الذي كان في فم جثة ابنتها ولتفتح به بابًا سحريًّا يقود إلى مخبَئِها الذي لا يَعرِفُ له طريقًا.

سوسن التي قد تكون هنا «القاتلة» أو «المتصلة» أو «مجرد شاهدة» أو قد لا تكون لها أي علاقة بهذه الجريمة على الإطلاق.

على أي حال السؤال الأخير هيِّنٌ وسيجيب عنه تقرير المعمل الجنائي

بعد قليل، فهم عثروا على بصمات في مسرح الجريمة تكفي لصنع مجلد من الحجم الكبير، ومنها سيَعرف إن كانت سوسن قد خطت بقدميها فيلّا الدكتورة ليلى يومًا ما أم لا، لكن.. لكن..

لكنه الآن وفي أعماقه عاجز تمامًا عن تحديد إن كان يتمنى أن تكون سوسن هي قاتلة الدكتورة ليلى أم لا.

لو كانت هي القاتلة فسيأتي سؤال: «لماذا» فعلتها؟

ولو لم تكن هي فسيأتي سؤال: «مَن» القاتل إذن؟

الاحتمال الأول يعني أن قضية سوسن ستزداد تعقيدًا، والاحتمال الثاني يعني أنه أصبح أمام قضيتين لا قضية واحدة، وكل واحدة منهما أسوأ من الأخرى، فما الذي عليه أن يتمناه الآن؟

أن تكون سوسن أو ألا تكون؟

علامات الاستفهام في رأسه تنمو وتتكاثر حتى لَيَكادُ رأسه أن ينفجر بها في أي لحظة وهو لم يعد يتحمَّل.. إنه لم ينم منذ أن كان في منزل سامح منذ ثلاث ليالٍ، والآن عليه أن يحظى ولو بساعة واحدة من نومٍ يستحقه جسده عن جدارة.. يجب أن يفعلها كما فعلها حين رأى جثة ابن الدكتور مجدي، وهو لم ينم طويلًا بعد أن رآها، لكنه في النهاية فعلها.

هكذا تراجع عصام في مقعده وألقى ساقيه على سطح مكتبه ثم ألقى رأسه إلى الوراء وأغمض عينيه محاولًا إفراغ المشهد في رأسه من كل علامات الاستفهام المتناثرة فيه.

إنه وقت النوم، وهو لن ينتظر حتى يعود إلى منزله لينام في فراشه..

سينام هنا والآن.. فقط لو استطاع أن ينسى سوسن.. سامح.. مجدي.. ليلى.. زوج ليلى وطفليها.. والمفتاح الذي كان في فم ابنتها.

الأمر سهل، وكل ما عليه هو أن يسترخي.. أن يتخيل شاشة سوداء أمامه.. أن يتنفس ببطء إراديًّا.. وأن يتذكر كيف كان النوم يداهمه أيام الدراسة، وكيف كان يستسلم له حتى انتهى به الأمر في كلية الشرطة!

وفي الشاشة السوداء في مخيلة عصام بدأت علامات الاستفهام تتناقص ببطء شديد.

وتدريجيًّا بدأ السواد يَسُودُ المشهد أمامه، وبدأت أنفاسه الانتظام البطيء، ثم بدأت عضلاته الانبساط واحدة تلو الأخرى سامحة لدمائه بالتجمع فيها مغادرة عقله حيث احتشدت طويلًا.

وعلى الرغم من أنه لم يغب في النوم تمامًا فإنه بدأ يسمع في رأسه أصواتًا اختلطت فيها الحقيقة بالخيال والذكريات، فأخذ يحاول تتبع مصدرها في عالم الأحلام، وقد أدرك أنه سيدخله في أي لحظة، قبل أن يعوِي هاتفه المحمول فجأة لينتزعه من هذا كله، ولينتفض عصام رغمًا عنه معتدلًا بسرعة كاد معها أن يسقط مِن على مقعده، لكنه تمالك نفسه واختطف هاتفه ليرد عليه صائحًا:

ـ أهي سوسن؟

فأتاه صوت قائد المعمل الجنائي يجيب بحيرة:

ـ من سوسن؟ أتقصد تلك التي عثرنا على بصماتها في منزل المهندس الشاب؟ في هذه الحالة الإجابة هي: لا.. ليست سوسن.

قالها فشعر عصام بإحباط عجيب اختنقت معه الكلمات في حلقه.. ليست سوسن.. إذن فهي قضية أخرى.

لكنه.. وقبل أن يشرد عند هذه التفصيلة.. أتاه صوت قائد المعمل الجنائي يواصل:

- لقد كانت البصمات لرجل هذه المرَّة.. بحثنا عن صاحبها في السجلات وعرفنا هويته.. إنها لصحفي شاب يُدعى يوسف خليل.. أتعرفه؟

وهنا تصاعدت كل الدماء من جسد عصام إلى رأسه الذي تلاشت منه علامات الاستفهام تمامًا، لتحتل مكانها علامة تعجب هائلة ساطعة، أفقدته قدرته على النطق أو التفكير أو الاستيعاب.

مِن الهاتف أخذ صوت قائد المعمل الجنائي يتعالى، لكنَّ عصام شعر كأن صوته يأتي إليه من بعيد.. بعيد.

وببطء تراخت يده الممسكة بالهاتف فهوت به على سطح المكتب، لكنَّ عصام لم يلتفت إليها حتى.. وقد شعر كأنه يغوص بجسده في ماء بارد مظلم.. وللحظات لم تَطُل، انتاب عصام شعور عجيب بالسكينة، وقد فقد اتصاله بالعالم الخارجي، قبل أن يسترد شعوره بالزمان والمكان بغتة ليهبَّ واقفًا والغضب يسيل من عينيه وأنفه.

وفي رأسه أخذت كل الدماء التي احتشدت هناك في الغليان.

٢٢

فتش عن المرأة.

قالها «ألكساندر دوماس» أول مرَّة، وكان يقصد بها المعنى الذي يعرفه الجميع.

أينما وَجدتَ جريمةً أو كارثةً أو أحداثًا غير منطقية فستجد شذى امرأة متسببة فيما حدث، وهي حقيقة أثبتها التاريخ مرارًا وتكرارًا.. وهذا ما كان يوسف يفعله الآن مع اختلاف الموقف والمعنى.

إنه لا «يفتش» عن امرأة، فهذا دور عصام الآن، وامرأته هي سوسن، لكن يوسف «يبحث» عن امرأة أخرى عاشت في زمن قديم، سيجد يوسف نفسه فيه قريبًا.. امرأة ـ لو صحت نظريته ـ فسيجدها وسط قائمة أسوأ النساء في التاريخ، فمَن هُن؟

كان قد تفرَّغ للبحث عنهن طيلة الفترة السابقة حتى إنه قام بصنع قائمة بهن، ليجد نفسه في النهاية يمسك بورقة تحمل بعض الأسماء التي قد يبدو بعضها مألوفًا لك، بينما ستسمع البعض الآخر لأول مرَّة، ولنبدأ معه الآن في تفحص هذه القائمة.

الملكة «ماري الأولى».. ملكة بريطانيا وابنة «هنري الثامن»، والتي تربعت على العرش بعد وفاة «إدوارد السادس»، وبعد الملكة «جين جراي» التي تربعت على العرش لتسعة أيام فقط.. كانت مهووسة بإجبار رعاياها على اعتناق الكاثوليكية، فحاربت البروتستانتيين طويلًا، وارتكبت معهم مذابح رهيبة منحتها لقبها الأشهر «ماري الدموية».. عاشت في الفترة ما بين ١٥١٦ و١٥٥٨ ميلادية، أي أنها أتت بعد «فلاد الوالاشي»، ما يجعلها مرشحة لا بأس بها، ولكن..

ولكنها لم يُقبض عليها أو تُسجن قطُّ، وبالتالي فهي ليست المرأة التي كانت في القفص، والتي رآها يوسف في اللوحة.

إذن ليخرجها من دائرة بحثه ولينتقل إلى الاسم التالي في القائمة.

«إلزه كوخ».. ألمانية نازية كانت تُشرف على معسكرات التعذيب، وكانت تتمتع بسادية لا نظير لها، لكن عادتها أن تحتفظ بقطع من جلود ضحاياها هي ما منحها لقب «الساحرة الحمراء».. لكنها لا تصلح كمرشحة، إذ إنها نازية، أي أنها تنتمي إلى العصر الحديث ـ نسبيًّا ـ إذن لا عربة.. لا أحصنة.. لا قفص.. وإلى الاسم التالي في القائمة.

«إيرما جريزه».. نازية هي الأخرى، لذا ستخرج من القائمة للأسباب ذاتها التي استبعدنا بها «إلزه».

ولكن مهلًا.

من قال إن الشيء يحتل جسد المرأة؟

لقد رآها في اللوحة والجنون يطل من عينيها، لكنهما لم تكونا تتوهجان.

ربما كان الأمر وببساطة أن ما رآه في اللوحة كان مجرد حدث من الأحداث التي سيمر بها في زمن هذه المرأة، وأنها ليست بالضرورة بطلة الفصل المقبل من لعبة الشيء.. قد يلتقي هذه المرأة.. قد يقود العربة التي تحمل قفصها.. وقد يتركها بعد ذلك في سلام ليلتقي الشيء في مكان آخر أو موقف آخر لا علاقة له بهذه المرأة من قريب أو من بعيد.

هذه الملاحظة كفيلة بهدم نظريته وتحويل الوقت الذي أضاعه في البحث طيلة الفترة الماضية إلى وقت ضائع، لكن لا.. إنه لا يملك وقتًا ليصاب بالإحباط أو اليأس.. ثم إن القائمة أوشكت على الانتهاء بالفعل.. والاسم التالي فيها هو:

«إليزابـ...».

لكن طرقات قوية هوت على باب غرفته، فانتفض يوسف وهبَّ واقفًا بذهول مَن لم يطرق أحد بابه منذ أن أتى إلى هنا، وفي صدره بدأ قلبه الطرق على ضلوعه بسرعة.. وبلا توقف.

مَن الذي طرق باب الغرفة؟

أهو أحد العاملين هنا؟ أهو أحد قاطني الفندق مثله؟ أهو عصام وقد أتى ليسأله عن سوسن مجددًا؟ أهو الشيء وقد قرر أن يكون مهذبًا هذه المرَّة؟! أهـ...

لكن إجابته أتته في صورة ورقة دسها صاحبها من أسفل الباب، قبل أن يتعالى صوت خطوات تبتعد بسرعة، فتحول توتر يوسف وقلقه إلى مزيج منسجم من الدهشة والحيرة، وهو يقترب مأخوذًا من الورقة.. انحني ليلتقطها ورفعها إلى عينه ليقرأ الكلمة الوحيدة التي خطت عليها:

«اهرب».

* * *

في لحظة واحدة تلوثت دماء يوسف بالأدرينالين الذي أفرزته غدته فاشتم رائحتها وتسارعت قدرته على التفكير.

هذه رسالة تحذير.. تطالبه بالهرب.. هناك من سيأتون من أجله، وأغلب الظن أنهم رجال الشرطة وقد كشفوا أمره أخيرًا.. بالطبع هم رجال الشرطة، فهذا التحذير لا يعني أنه الشيء الذي لن يُجدي معه الهرب.. مَن ترك له الرسالة لا يمزح، فلا أحد يمزح معه ولا أحد يعرفه.. يجب أن يهرب.. إلى أين؟ لا يهم.. مَن الذي ترك له الرسالة؟ لا يهم.

المهم أن يخرج من هنا الآن!

هكذا ألقى يوسف نظرة سريعة على الغرفة التي كانت عالَمه طيلة الفترة الماضية، ليقرر ما الذي سيحمله معه وما الذي سيتركه.. ملابسه.. يكفيه ما يرتديه.. نقود.. لم يعد يملك منها ما يستحق حمله.. كتب التاريخ.. لن يحملها كلها وهو يهرب.. أوراق مهمة.. لا توجد أوراق أهم من أن يهرب الآن.. المفتاح.

المفتاح.

يجب أن يأخذ المفتاح.

لا يمكنه أن يرحل من دون المفتاح.

إياك أن تترك المفتاح.

هذا هو ما تبقّى له من حياته كلها.. مفتاح منحه إياه الشيء، لا يعرف

ما الذي يفتحه، لكنه ـ وهو أمر مثير للشفقة لو فكرت فيه مليًّا ـ الشيء الوحيد الذي سيحمله معه في رحلة هربه من المجهول وإلى المجهول.

يجب أن يأخذ معه المفتاح.. ولكن.. أين تركه؟ على الطاولة بجوار الفراش.

وبالسرعة التي منحه إياها الأدرينالين في عروقه قفز يوسف إلى الطاولة ليبدأ إلقاء الأوراق والكتب من عليها إلى سماء الغرفة، فحلقت فيها للحظة، قبل أن تنتهي على أرضها، حيث ستظل إلى أن يصل فريق المعمل الجنائي لاحقًا.

لكنه لم يجد المفتاح!

أين هو؟!

بحث على الفراش، وهذه المرَّة حلقت الوسادات والملاءة، وقبل أن تلامس الأرض هذه المرَّة كان قد هبط إلى أسفل الفراش ليواصل بحثه، لكنه لم يجد ضالته.

أين المفتاح؟!

بقفزة أسرع بلغ الحمَّام الضيق المرفق بغرفته، وهناك بدأ تهشيم كل شيء يعترض طريقه بحثًا عن مفتاح عتيق يحمل نقوشًا غير مفهومة، لكنه لم يكن هناك.. انتقل بقفزة ثالثة إلى حقائبه فطارت محتوياتها في سماء الغرفة قبل أن يحمل الحقائب ذاتها في الهواء ليبدأ رجها بعنف كأنه يطرد الأرواح الشريرة التي احتلتها، فتصاعدت أصوات سقوط أشياء لم يعد لها في حياته قيمة، من دون أن يُدوي الرنين المعدني الذي ينتظره، فوقف في النهاية يلهث ويرتجف وبصره يتنقل بين حياته التي سكبها على أرض

الغرفة يبحث فيها، قبل أن يرتد إليه بصره خائبًا عاجزًا عن رؤية الشيء الوحيد الذي يجب عليه أن يراه ويجده.

أين المفتاح؟!

ليبدأ البحث من جديد وبسرعة أكبر هذه المرَّة ولتفرز غدده كل مخزونها من الأدرينالين، فسيحتاج إلى كل قطرة منه في اللحظات المقبلة، وليعثر على مفتاحه بأي ثمن و.. و..

وفجأة تصاعدت أصوات أقدام تسرع إلى باب غرفته!

* * *

والأدرينالين كان يسري كالحمم في عروق عصام في ذات اللحظة.

كان يقود سيارته بسرعة استحالت معها الموجودات من حوله إلى خطوط مضيئة متصلة تسللت من بينها صرخات المارة وصرير السيارات التي توقفت في اللحظة الأخيرة قبل أن تعترض طريقه، لكنه لم يكن يرى أمامه إلا صورة يوسف بجسده النحيل ولحيته الجديدة يبتسم له بسخرية.

يوسف خدعه!

الموقف الآن واضح لا يحتمل الجدل.. مجدي قتل ابنه، وتلميذته سوسن قتلت سامح بعد أن التقت يوسف الذي قتل الدكتورة ليلى.. هذا هو الموقف بكل بساطة، والآن على الجميع أن يدفعوا الثمن.

يوسف خدعه!

لقد قتل الدكتورة ليلى، ولهذا هرب من منزله وانتقل إلى ذلك الفندق الحقير، ثم وقف أمامه ومنحه قصة كاذبة ببرود أعصاب لا يعني إلا أنه

يستهين به وبذكائه وهو لا يغفر الإهانة قطُّ.. لا يغفرها ولا يتحمَّلها، ولم يعد يهتم حتى بدافع يوسف لارتكاب جريمته.. فقط عليه أن يدفع ثمن إهانته إياه، وهو ثمن أغلى بكثير من ثمن جريمته.. ويوسف لن يتخيل أبدًا ما سيحدث له على يديه.

مجدي.. ابنه.. سوسن.. سامح.. ليلى.. يوسف.

مجدي وابنه وسامح وليلى ماتوا.

وسوسن اختفت على الرغم من كل محاولاته للعثور عليها.

لكن يوسف ـ ولسوء حظه ـ لم يختفِ بعد.

بل إنه يعرف أين هو الآن.

يعرف، وهو في طريقه إليه.. في طريقه لينتزعه من حياته بيديه، وليلقي به إلى أسوأ كوابيسه.

وهو اقترب.

اقترب فأرخى قدمه التي سحقت دواسة البنزين طويلًا لتتحول الخطوط المضيئة من حوله إلى مبانٍ وأعمدة إنارة ومارة يجوبون الطرقات ما بينهم، قبل أن ينحرف بسيارته إلى أحد الشوارع الجانبية وسرعته تقل تدريجيًّا.

وفي نهاية الشارع الذي وجد نفسه فيه كان الفندق الذي يبحث فيه يوسف الآن عن مفتاحه في انتظاره.

* * *

ثم تذكَّر يوسف فجأة أين وضع المفتاح!

أصوات الأقدام في الخارج كانت تقترب وتقترب، لكن.. في رأسه وللحظة واحدة.. مجرد لحظة واحدة.. رأى يوسف بعين خياله أنه سيجد المفتاح وسط كومة الكتب والأوراق والملابس التي صنعها، وأدرك أنه لن يجد الوقت الكافي ليحصل عليه فصوت الأقدام في الخارج يقترب ويقترب، وكل ما يمكنه فعله الآن هو أن يغمض عينه مستسلمًا لمصيره الذي يسهل عليه استنتاجه.

سيلقون القبض عليه بتهمة قتل الدكتورة ليلى، وسيعترف هو بجريمته، وبعدها لن ينطق بحرف واحد حتى النهاية، فمَن سيصدقه لو نطق؟ نعم.. سيلوذ بالصمت التام وسيتركهم يحكمون عليه بالإعدام وسيقضي ما تبقى له من أيام في السجن حيث سيفقد عقله تدريجيًا، وحيث سيزوره في أحد الأيام صحفي من مجلة «المجلة» ليحاول أن يُجري معه حوارًا يكشف فيه سر قضية يوسف ودكتورة المقطم كما سيصفون جريمته.. هذا ما سيحدث تمامًا.. وحينها..

وحينها لن يكرر يوسف خطأ الدكتور مجدي، وسيغرس القلم في شرايين عنقه حتى النهاية.

الأصوات تقترب وتقترب وابتسامة استسلام مريرة تشق طريقها إلى شفتيه، قبل أن يسمع الأصوات تبتعد وتبتعد!

تبتعد وتخالطها ضحكات تعلن وبوضوح أنهم ليسوا رجال الشرطة، وأنهم لم يأتوا للقبض عليه.

لقد نجا.

نجا.

مؤقتًا.

لقد منحه القدر بضع لحظات إضافية، وعليه أن يُحسن استغلالها وبسرعة.. لهذا انتزع نفسه من جموده وألقى بجسده وسط كومة حياته التي سيتركها على أرض الغرفة، ليبدأ البحث عن قميصه الذي كان يرتديه في الصباح.. لقد ترك المفتاح في جيب قميصه لو لم يكن مخطئًا.. ولو كان.. فلن يجد فرصة ثانية للبحث عنه أبدًا.

الموقف الآن يعتمد تمامًا على حظه ـ مع الأسف ـ وهو لم يعتد أن يقف حظه في جانبه قطُّ، لكن صوت حظه تعالى في رأسه ليطمئنه:

ـ ستعثر عليه.. ستعثر عليه لأنه سيقودك إلى حتفك.

وكالعادة لم يكذب عليه سوء حظه، إذ انتزعت يده قميصه من وسط كومة الملابس ليسقط منه مفتاح عتيق هوى على الأرض أمامه كجثة هامدة، فاختطفه ودسه في جيبه بلهفة، قبل أن يقف من دون أن يشعر بذرة واحدة من السعادة أو الخلاص.

فالآن..

سيبدأ رحلة الهرب.

* * *

وفي اللحظة التي دس فيها يوسف المفتاح في جيبه كان عصام يتوقف بسيارته أمام الفندق.

توقف بفرملة حادة جذبت الأنظار إليه، لكنه تجاهل أصحابها واندفع خارجًا من سيارته متجهًا إلى مدخل الفندق وقد استل سلاحه عازمًا على

أن يستخدمه عند أقل تصرف مريب من يوسف.. لو لم تَرُقْه نظرة واحدة في عين يوسف فسيفرغ رصاصاته في جسده، ثم سيقبض عليه بعدها ليستجوبه.

هكذا اقتحم الفندق شاهرًا سلاحه، وهكذا تصاعدت صرخات من فيه حين رأوه، لكنه تجاهلهم جميعًا وأسرع الخطى إلى سلم الفندق ليبدأ صعوده بقفزات سريعة ومنسوب الأدرينالين في دمائه يتعالى أكثر وأكثر.

ليحترق العالم بمَن فيه، ففي الأعلى.. ينتظره يوسف، ولقد أتى إليه حاملًا نهايته معه.

* * *

حاملًا مفتاحه خرج يوسف من غرفته وأسرع إلى سلالم الفندق.

كان يعرف أن عليه أن يخرج من هنا وفورًا، لكنه لم يكن يحمل أي فكرة عن المكان الذي سيتجه إليه.. كل ما كان يعنيه في هذه اللحظة هو أن يكون هذا المكان «بعيدًا» عن هنا.. وللحظة تذكر موقفه حين كان في الغابة ينزف من جسدٍ ليس بجسده، والخيار الوحيد أمامه هو الاتجاه إلى «الأمام».

الموقف مشابه، ولو كان يملك رفاهية الوقت لتوقف ولتأمل فيه مليًّا، لكن.. لا وقت.

يجب أن يهرب.. وبسرعة.

وعلى الرغم من أنه كان يعرف أن ممرات الفندق ضيقة منذ أن دخلها أول مرَّة؛ فإنه شعر هذه المرَّة كأن الجدران تحاول أن تطبق عليه لتمنعه

من هربه، فأسرع الخطى متجهًا إلى نهاية الممر، وقد أخذ صوت سوء حظه يردد:

ـ لقد تأخرت.. تأخرت كثيرًا.

وهو ما كان يشعر به يوسف تمامًا ويحاول تجاهله، وقد أخذت نهاية الممر تقترب أمامه.. وفي مخيلته ارتسمت خارطة المكان.. تحوَّل هو فيها إلى نقطة مضيئة تتحرك بسرعة في طريقها إلى سلم الفندق.. سيبلغ السلم ثم يهبط الدرج بسرعة ثم يصل إلى الاستقبال ليبحث عن المخرج الخلفي للمكان، وبالتأكيد هناك مخرج خلفي، فهو لن يخرج من مدخل الفندق الرئيسي مهما كان السبب.. هو يعرف ما سيحدث له لو حاول.. سيخرج وسيجد كل رجال داخلية مصر يقفون في انتظاره محتمين بسياراتهم ومسددين أسلحتهم تجاهه.. سيصرخون في وجهه طالبين أن يستسلم لهم، وسيحاول هو أن ينطق بشيء ما لن يروق لأحد، ليفرغوا رصاصاتهم في جسده النحيل، قبل أن يُعلنوا أنه تُوفِّي في أثناء القبض عليه بهبوط حاد في الدورة الدموية!

لن يخرج من المدخل الرئيسي، وسيجد المخرج الخلفي ليخرج منه إلى الأمان، وكل ما عليه الآن هو أن يبلغ الدرج و...

ـ توقف.

تصاعد الصوت هذه المرَّة في رأسه، فتوقف يوسف مرغمًا وجسده ينتفض بقوة كادت أن تسقطه.

فهذه المرَّة لم يكن الصوت الذي تصاعد في رأسه هو صوت سوء حظه.. بل كان صوته هو.

صوت الشيء!

النبرة ذاتها الباردة العابثة، واللهجة ذاتها الآمرة، والسؤال الآن هو: كيف؟

أو أنه «لماذا»؟!

ـ اصعد إلى الأعلى.

قالها الشيء في رأسه فاستوعب يوسف الموقف في لحظة.. إنه الشيء يحذره من مواصلة طريقه إلى سلالم الفندق، لأن مَن أتوا للقبض عليه في طريقهم إليه الآن.. إلى أين سيتجه؟ إلى الأعلى.. لماذا يساعده الشيء؟

لأن اللعبة لم تنتهِ بعد، والشيء لن يتركه إلى أن تنتهي.

والخيار الآن أمام يوسف واضح: إما أن يواصل طريقه إلى السجن فالإعدام، وإما...

هكذا استدار يوسف وانطلق يعدو هذه المرَّة بأقصى سرعته عائدًا إلى غرفته.

* * *

ثم بلغ عصام الطابق الذي توجد فيه غرفة يوسف ليقف فيه يلهث بقوة.

لقد صعد الدرج إلى الطابق الخامس قفزًا وهو لم يتمتع يومًا ما بجسد رياضي قادر على بذل مثل هذا المجهود، ولولا الأدرينالين الذي يجري في دمائه لما فعلها.. لهذا توقف وأمسك بصدره محاولًا السيطرة على أنفاسه، ومحاولًا تذكر رقم غرفة يوسف وسلاحه لا يزال يتدلى من يده الحرة.

لقد قرأ رقم الغرفة حين أتته نتيجة التحريات التي طلبها عن يوسف، بعد أن عرف أنه التقى سوسن قبل اختفائها، ومنها عرف عنوان الفندق، ومنها استطاع أن يباغت يوسف في المكتبة القريبة من المكان، لكنه الآن عاجز تمامًا عن تذكر رقم غرفته، وهو لن يقتحم كل الغرف في الممر بحثًا عنه.. لن يخاطر بأن يشعر به يوسف ليحاول الهرب، فهو يريد أن يباغته ثانية.. وهذه المرَّة.. لن يرحمه!

انتظمت أنفاسه أخيرًا فاعتدل وتأمل أبواب الغرف التي تراصت على جانبي الممر، محاولًا تذكر الرقم المنشود مرَّة أخرى.. ونوعًا ما شعر كأنه في أحد برامج المسابقات الشهيرة، والتي عليه فيها أن يختار الباب الصحيح الذي توجد خلفه الجائزة.. كل ما ينقصه الآن هو مقدم برامج صاخب، يصيح محمسًا الجماهير:

ـ ١٠ ثوانٍ هي ما تبقت للمتسابق عصام فتحي، وكل ما عليه الآن هو اختيار الباب الصحيح ليربح معنا الجائزة الكبرى.. فهل سيفعلها؟

فتتحمس الجماهير الوهمية في عقل عصام وتتعلق أعينهم به بترقب، بينما يبدو عليه التردد.. أمامه فرصة واحدة فقط للتجربة، فلو اقتحم الغرفة الخطأ شاهرًا سلاحه فسيصرخ من فيها وسيشعر به يوسف وسيهرب، وحينها سيختفي وإلى الأبد.. تمامًا كما فعلت سوسن.. وفي رأسه واصل مقدم البرامج:

ـ ٨ ثوانٍ وينتهي الوقت المسموح به.. متسابقنا عصام فتحي فشل تمامًا في العثور على سوسن.. وفي حل آخر قضيتين واجههما.. وهذه المرَّة عليه أن يختار الباب الصحيح لو أراد أن يحافظ على منصبه في الداخلية.. وإلا...

يمكنه بالطبع أن يهبط إلى الاستقبال وأن يعرف مِن صاحبة الفندق رقم غرفة يوسف ليصعد من جديد، لكنه لن يخاطر بترك المكان ولن يتحمَّل هبوط خمسة طوابق ثم صعودها عدوًا من جديد.. ثم إنه يعرف رقم الغرفة! يعرفه كما عرف عنوان الفندق، وكما عرف أنها في الطابق الخامس، وكل ما عليه الآن هو أن يهدأ.. يركز.. يتذكر الرقم الصحيح.

ـ المرحلة الأخيرة من المسابقة صعبة بالفعل.. أمام متسابقنا عشرة أبوابٍ على الأقل.. وراء واحدٍ منها توجد الجائزة الكبرى، بينما ينتظره الفشل والإقالة خلف باقي الأبواب.. و٥ ثوانٍ هي ما تبقت في زمن الاختيار.. فهل سيفعلها؟

اللعنة على مقدمي برامج المسابقات في كل زمان ومكان!

أغمض عينيه وحاول طرد مقدم البرامج والجماهير من رأسه ليركز، فبدأ الرقم يتشكل ببطء في رأسه، يحيط به ضباب كثيف.

سيتذكره.. لقد قرأه أكثر من مرَّة، وهو يعرفه.. فقط عليه أن يهدأ وسيتذكره.. سيقتحم الغرفة.. سيجد يوسف في انتظاره وسيقتله من دون مناقشة.. فقط عليه أن يتذكره.. ليتجاهل كل الأصوات في رأسه وخارجها وليـ...

ومن غرفة يوسف دوى صوت تهشم زجاج نافذته، ليمنح عصام الحل الصحيح!

* * *

حين أسرع يوسف إلى غرفته لم يكن يعرف ما الذي سيفعله داخلها، تمامًا كما لم يكن يعرف ما الذي سيفعله لو خرج من الفندق حيًّا.. كان

مجرد رد فعل غريزي لتحذير الشيء له.. لقد أمره بالابتعاد عن السلم.. إذن لِيستدِرْ عائدًا.. وبسرعة.

هكذا هرول عائدًا إلى غرفته، وهكذا مدَّ يده إلى مقبض بابها، يهم بأن يفتحها لكنه تجمَّد مكانه في اللحظة التي تعالى فيها الصوت في رأسه.

لكنه أمرك بالصعود إلى الأعلى.

قالها صوت سوء حظه فانتفض وقد ظن للوهلة الأولى أنه الشيء يحدِّثه من جديد.. لكنه لم يكن هو.. لم تكن النبرة العابثة تطل من صوت سوء حظه.. بل الخوف.. حتى سوء حظه يدرك ما سيحدث له لو قبضوا عليه.

الأعلى أيها الأحمق.. أسرع.

لكن يوسف ظل متجمدًا مكانه للحظة تعلقت فيها يده في الهواء أمام مقبض باب غرفته، قبل أن ينتزع نفسه من ذهوله، ليهرول من جديد مبتعدًا هذه المرَّة عن سلالم الفندق وعن غرفته.. وفي خارطة المكان التي سطعت في رأسه وَمَضتْ كلمة «سلم الطوارئ» فأدرك أنها هدفه المقبل.

هناك سلم طوارئ في نهاية الممر البعيدة ولو بلغه في الوقت المناسب.. فسينجو.

لهذا أسرع إليه ليجد الباب الذي يقود إليه مغلقًا فألقى بجسده عليه ليفتحه، ولتستقبله السلالم المعدنية الباردة، فبدأ في الصعود قفزًا في اللحظة التي انفجر فيها زجاج نافذة غرفته بدويٍّ هائل.

انفجر وكأن قبضة هائلة خفية هوت عليه، فتحرك عصام على الفور

متجهًا إلى غرفة يوسف الذي كان يلهث وهو يواصل قفزه على الدرجات المعدنية متجهًا إلى سطح الفندق.

ولو كان ما يحدث الآن جزءًا من فيلم سينمائي لانقسمت الشاشة أمامنا إلى نصفين، لنرى في أحدهما عصام يقتحم غرفة يوسف بعنف، في اللحظة التي اقتحم فيها هذا الأخير باب السطح ليقف فيه حائرًا هلعًا عاجزًا عن معرفة الخطوة التالية.

الحيرة ذاتها ارتسمت على وجه عصام الذي وجد أمامه الغرفة الخاوية وقد انقلب فيها كل شيء رأسًا على عقب، وقد خلت من الشيء الوحيد الذي أتى من أجله.. يوسف.

لهذا وقف عصام يرمق المشهد أمامه ذاهلًا للحظة، قبل أن تتوقف عيناه عند النافذة المهشمة، ليسرع إليها وليطل بجسده منها متوقعًا أن يجد يوسف يتدلى منها يحاول الهرب، لكنه لم يكن هناك.

لم يكن هناك لأنه الآن يقف على سطح الفندق يتلفت حوله باحثًا عن مخرج، فتعالى الصوت العابث في رأسه يقول:

ـ *والآن.. اقفز.*

كان صوت الشيء، لكنه لم يُفاجأ به هذه المرَّة، بل فوجئ بما قاله.

يقفز؟!

إلى أين؟!

أأتى به الشيء إلى هنا ليطلب منه الانتحار قفزًا؟!

لكنه شعر بمن يدير رأسه ليرغمه على رؤية سطح المبنى المجاور

للفندق، ليلاحظ أنه لا يبعد عن السطح الذي يقف عليه إلا مترين أو أكثر، ليفهم ما عليه فعله.. سيقفز إلى المبنى المجاور ومنه سيهبط إلى حيث سيواصل فراره.

ـ لكنني قد أسقط!

همس بها يوسف وكأنه يحدث الشيء في رأسه، لكنه لم يتلقَّ إجابة.. إنه خياره كالمعتاد: إما أن يقفز وإما أن ينتظر مكانه حتى يبلغه عصام الذي أسرع مغادرًا الغرفة ليواصل بحثه عنه.

دائمًا ما يضعه الشيء في خيارات كهذه، ودائمًا ما يجد يوسف نفسه أمام حلٍّ وحيد منطقي، لذا تراجع إلى نهاية السطح البعيدة عن المبنى المجاور قبل أن ينطلق فجأة بأقصى سرعته يجري تجاه المبنى، حتى بلغ نهاية السطح ليقفز بكل قوته من فوق سوره وليحلق في الهواء للحظات مرَّت عليه كأيام طويلة، قبل أن يرتطم جسده في النهاية بأرضية سطح المبنى المجاور، لتفلت صرخة ألم من فمه وقد شعر بعظامه تتهشم.

لكنها لم تتهشم.

لم تتهشم بدليل أنه تحامل على نفسه في النهاية ليقف متغلبًا على الدوار الذي اكتنفه، ليسرع إلى باب السطح ومنه إلى سلالم المبنى المجاور، في اللحظة التي بلغ فيها عصام سطح الفندق، ليجده قد اختفى، لتخرج من حلقه صرخة غضب هادرة أصغت لها السماء المظلمة بلامبالاة تامة.

أما يوسف فكان الدوار الذي يشعر به يشتد أكثر وأكثر مع هبوطه الدرج بأقصى سرعته، لينتهي به الأمر أخيرًا إلى مدخل البناية المجاورة

للفندق، فخرج منها يترنح إلى الشوارع التي تصاعدت فيها أبواق سيارات شرطة تقترب.

إنهم قادمون من أجله.

لكنه نجا.

نجا وعليه الآن أن يواصل طريقه.

أن يبتعد.. أن يبلغ سيارته.. وأن يقودها إلى أبعد مكان ممكن عن هذا الفندق.. أن يتغلب على الدوار الذي يشعر به وأن يهرب قبل فوات الأوان.

هكذا استدار موليًا ظهره للشارع وراء الفندق، وحث الخطى متجهًا إلى سيارته التي تركها في أحد الشوارع الجانبية، فوجدها تقف هناك في انتظاره تحمل له الخلاص ممَّا هو فيه.

في هذه اللحظة شعر ولأول مرَّة بالأمل يتصاعد في أعماقه مع الدوار، فزاد من سرعته وقد أخذت سيارته أمامه تقترب وتقترب و.. و..

وهوت فجأة ضربة على رأسه أفقدته الوعي وأرسلته إلى حيث سيواصل هربه في زمن لا يمت إلى زمنه بصلة.

٢٣

ثم وجد يوسف نفسه على عربة تجرها الأحصنة تحمل قفصًا رقدت فيه امرأة يطلُّ من عينيها الجنون.

هكذا ومن دون مقدمات بدأ الفصل الثالث من اللعبة، ليجد يوسف نفسه يقبض بيدين غليظتين يكسوهما شعر أحمر غزير على لجام انتهى بثلاثة أحصنة انطلقت بسرعة لم يقد بها يوسف سيارته قطُّ، ومِن ورائه أخذت المرأة في القفص تصرخ بلا توقف:

ـ أسرع.. أسرع إنهم وراءنا!

لكنه لم يستجب لها ولم يكن ليستطيع حتى لو حاول.

عقله كان منهمكًا تمامًا في محاولة تشكيل صورة للموقف الذي وجد نفسه فيه.. والموقف هذه المرَّة كان مثيرًا بحق.

تخيَّل أن تجد نفسك فجأة وقد تحوَّلت إلى عملاق أحمر الشعر والأنف، تقود عربة تجرها أحصنة ثائرة على طريق شبه ممهد وسط غابة تعصف بأشجارها ريح عاتية، حتى لتكاد أن تقتلعها من جذورها، مصدرة

صفيرًا لا ينقطع في أذنيك إلا بصراخ المرأة المجنون، فلا تعرف إن كان صراخها هلعًا أم غضبًا:

ـ أسرع.. أسرع وإلا لحقوا بنا!

مَن هم؟

سؤال سيعرف إجابته حين يعرف إجابات أسئلة أكثر أهمية: أين هو؟ متى هو؟ مَن هي؟

لكن الآن تخيَّل أيضًا أنك تهرب من هؤلاء الذين يحاولون اللحاق بك، من دون أن تعرف إلى أين أنت ذاهب أصلًا، وأن السماء الملبَّدة بالغيوم من فوقك تنذر بوابل من الأمطار كافٍ لإغراق الأرض وما عليها، وأن العربة التي تجلس عليها الآن ترتجُّ بعنف محاولة اللحاق بالأحصنة التي تجرها، والمحافظة على القفص الذي تتقافز فيه المرأة وهي تحدق في الظلام من خلفك، فترى ما لن تراه أنت، لتواصل الصراخ:

ـ لقد اقتربوا.. أيها الأحمق أسرررررع!

فيدوِّي صراخها مؤلمًا في أذنيك، قبل أن تسقط على وجهك أول قطرة مطر.. وبعيدًا في السماء يسطع لسان هائل من البرق يعقبه دويُّ رعد لا تسمعه بوضوح، لكنك تشعر به يقترب.. تشعر به وتدرك أنك متجه إلى قلب العاصفة، وأنك يجب أن تستدير مبتعدًا عنها لولا هؤلاء الذي يطاردونك، ولولا أنك عاجز تمامًا عن التحكم في العربة التي تقودها.

وفي النهاية تخيل أنك تقترب من تلك الحافة التي يكفي أن تنحرف معها سنتيمترًا واحدًا عن الطريق، لتجد نفسك تهوِي إلى حيث ينتظرك موت يتثاءب في صبر.

وفي السماء سطع البرق مرَّة أخرى، أعقبه رعد اهتزت له الأرض بقوة.

* * *

لكن جسده هذه المرَّة ضخم.

هذا هو أول شيء لاحظه يوسف، وهذا هو الشيء الذي استمتع به في أعماقه على الرغم من دقة موقفه وخطورته.. إنه ضخم مفتول العضلات، وهو الذي عاش حياته كلها في جسد نحيل واهن، والذي احتل من قبل جسدًا يموت وآخر ضئيلًا.

هذه المرَّة هو يملك جسدًا قويًّا قادرًا على التصرف لو أحسن التحكم به، ولو تجاهل الأسئلة المنطقية كلها ليركز على ما هو أهم منها.. على النجاة.

لهذا اعتدل في جلسته، ولهذا أحكم قبضتيه على اللجام وجذبه بقوة ليخفف من سرعة الأحصنة التى لم تستجب له بسهولة، لتصرخ المرأة مِن ورائه:

ـ ما الذي تفعله أيها الأحمق؟ أسرع.. أسرع!

ـ اخرسي!

صاح بها.. فراقه صوته الجديد.. صوت أجش عميق النبرات أخرسها على الفور، ومنحه بضع لحظات ليقرر فيها خطوته التالية.

إنه يتجه إلى حافة تطل على هاوية، والأمطار التي تهوِي من السماء بغزارة تدريجية تجعل الأرض من أسفله زلقة حقًّا، ولو استمر بسرعته هذه فسينتهي به الأمر محلقًا تجاه الهاوية لينتهي هذا الفصل من لعبة الشيء قبل أن يبدأ.

لهذا جذب اللجام إليه بأقصى قوة منحه إياها جسده الجديد، وقد قرر أن للِّجام وظيفتين: أن تجذبه لتخفف سرعة الأحصنة.. أو أن تستخدمه كسوط لتزيد من سرعتها.. وهو اختار الوظيفة الأولى.

اختارها على الرغم من أن الأحصنة لم تستجب له بسهولة، إذ كانت تندفع بسرعة لا تعني إلا أنها تهرب هي الأخرى من المُطارِدين، لكنه جاهد ليسيطر عليها وليخفف من سرعتها إلى حد مقبول، في اللحظة التي بلغ فيها الحافة التي فقد فيها الطريق استواءه تمامًا لتبدأ العربة من أسفله في الارتجاج بعنف، على نحو أسقط المرأة في قفصها، وإن لم يمنعها من أن تصرخ:

ـ سنسقط في أيديهم بسببك أيها الأحمق!

فأقسم يوسف في سرِّه على أنها لو وصفته بالأحمق ثانية فسيتركها ويترك العربة ليقتلها من يطاردونهما أيًّا ما كانت هوياتهم.

ولكن المرأة لاذت بالصمت وكأنما سمعت قسَمَه، لتظل جالسة في قفصها تقبض على قضبانه بقوة، وترمق الطريق المظلم من خلفهما تنتظر الأسوأ، بينما قرر يوسف أن الحل الأمثل الآن هو أن يتجاوز هذه الحافة.. ليصل إلى مكانٍ آمِن.. يبدأ في استجواب المرأة ليعرف منها ما يريد معرفته.

خطة بسيطة هي الوحيدة المتاحة أمامه الآن، وكل ما عليه الآن هو أن يلتزم بها كما التزمت المرأة بصمتها و.. و..

وانغرس فجأة ذلك السهم المشتعل في العربة الخشبية، فلم يسمع يوسف صفيره وسط العاصفة.. فقط حدَّق فيه ذاهلًا للحظة قبل أن تهمس المرأة بخوف هذه المرَّة:

ـ أخبرتك بأننا سنسقط في أيديهم!

ـ !!!

* * *

ومن خلفهما وعلى بعد عشرات الأمتار كان «مارسيل» يشد قوسه يستعد لإطلاق سهمه المشتعل الثاني.

كان الأمر يستلزم منه مهارة خاصة ليحافظ على اتزانه على صهوة حصانه الذي ينطلق كسهم غير مشتعل في قلب العاصفة، وليحكم التسديد على العربة التي لم يستطع رؤيتها من الظلام والمسافة، لكنه خمَّن موقعها على الحافة وجذب نفسًا عميقًا سيطر به على توتره وغضبه.. وأطلق سهمه الذي انتهى به الأمر بجوار العربة التي يقودها يوسف هذه المرَّة.

وعلى الحصان المجاور له كان «لوران» يعدُّ له السهم المشتعل الثالث من دون أن يتبادل معه حرفًا واحدًا، وإن استبد به الغضب ذاته الذي كان يموج في أعماق «مارسيل».. إنه مثله يبغي الانتقام، ومثله لن تُطفِئ نيرانَ الغضب في روحه إلا دماءُ المرأة في القفص.

لهذا غمس السهم الثالث في الزيت وأشعله بالمشعل الذي ثبته على صهوة حصانه، والذي أوشكت الأمطار المنهمرة على إطفائه، قبل أن يناوله إلى «مارسيل» الذي ألقم قوسه إياه.. جذبه بقوة.. أطلقه لينغرس هذه المرَّة بين ساقي المرأة في القفص، فدوي صراخها وسط العاصفة، ليعلن لهما أنهما على الطريق الصحيح.

وأنهما يقتربان.

أمامهما كان «بارتوس» يتقدمهما وأنفاسه الساخنة تلفح وجهه، وقد تكفلت الأمطار بإخفاء الدموع التي سالت من عينيه بلا توقف والتي لم يكن له عليها سلطان.. إنه مثلهما يبغي الانتقام، لكنه كان يوقن أن انتقامه هذا لن يعيد إليه «مارلا».. لا شيء في هذه الدنيا سيعيدها إليه، ولا أي انتقام قد يحصل عليه سينسيه ابتسامتها التي لن يراها مجددًا، والتي بحث عنها طويلًا في الوجوه من دون جدوى.

«مارلا» التي كانت تنتظره أمام داره حين يعود إليها بعد كل معركة، لتمنحه ابتسامتها الصافية فينسى كل الأهوال التي رآها على مدى أشهر الحرب الطويلة.

«مارلا» التي كانت تتحسس جراحه لتشفى على الفور ولينسى مع لمستها الألم والحزن.. والموت الذي كان يقضي معه وقتًا أطول مما يقضيه معها.

«مارلا» التي كان يهمس في أذنها بكلمات حبه، ليتورد وجهها خجلًا ولتهمس هي في أذنه ليحلق في سماء لا يحلق فيها سواه.

«مارلا» التي رآها آخر مرَّة مذبوحة وقد فقدت شعرها وأجزاء ضخمة من جلدها وكل دمائها، من دون أن تفقد ولو ذرة واحدة من جمالها.

«مارلا» التي لن يراها أبدًا، والتي تركته في هذا العالم القاسي ليواجهه بمفرده كطفل فقد أبويه وهو في أشد الحاجة إليهما، والسبب في كل هذا هو المرأة في القفص.

نعم سيقتلها!

سيقتلها بأبطأ طريقة ممكنة، هي والرجل الذي يقود العربة يحاول

الهرب بها، لكن هذا لن يشفي غليله ولن يعيد إليه ما سيقضي ما تبقى له من عُمر يبحث عنه.

سيقتلها لأنها تستحق، ولأن كل الغضب الذي يشعر به «مارسيل» و«لوران» لا يوازي ذرة مما يشعر هو به.

سيقتلها.. وبعدها..

لن تكون لحياته قيمة أو جدوى.

ومِن حَلق «بارتوس» انطلقت صرخة طويلة ذابت في هدير الرعد الذي ارتجت له السماء والأرض.

* * *

ومع السهم المشتعل الرابع بدأت النيران تنتشر في العربة.

ومعها اندلعت صرخات المرأة قبل أن تتحول إلى ضحكات ماجنة تقطر جنونًا، أصابت يوسف بالرعب أكثر من فكرة الاحتراق حيًّا أو السقوط في الهاوية.. وفي أعماقه أدرك أنه لو احترق أو سقط فسيموت فحسب، لكنه لو بقي مع هذه المرأة فسيكون في انتظاره مصير أسوأ بكثير، لكنه ـ ومع الأسف ـ لا يملك الخيار.

دائمًا ما يضعه الشيء في خيارين قاسيين، لكنه في هذه المرَّة لا يملكهما ـ أو أن وقتهما لم يحن بعد ـ وكل ما عليه فعله الآن هو أن يواصل طريقه، فغزارة الأسهم المشتعلة تؤكد أن مطارديه يقتربون أكثر فأكثر، وأن وقته في هذا العالم وهذا الزمن يتناقص وبسرعة ما لم يجد مخرجًا وبسرعة.. لكن..

أين هو هذا المخرج؟!

الصخور عن يمينه.. والهاوية عن يساره.. ومطاردوه وراءه.. الاتجاه الوحيد المتاح إذن هو الأمام، وهو اتجاه ينحني انحناءات حادة لن تسمح له بزيادة سرعته وهو يجر هذه العربة الثقيلة.. يمكنه بالطبع أن يقفز إلى أحد الأحصنة لينطلق أسرع تاركًا المرأة وراءه، لكن هذا يستلزم منه درجة من الحقارة لا يملكها مع الأسف، ثم إن قصته تتعلق بها بصورة أو بأخرى، وبالتالي فلن يستطيع التخلي عنها.

أسهم مشتعلة جديدة تنغرس في العربة، وضحكات المرأة تدوي مع الرعد.. والأسوأ أن النيران تنتشر في العربة.

لحظات وسيتحول إلى «هليوس» يقود عربة الشمس، ما لم تنقذه الأمطار من الموت احتراقًا، أو لم تتوقف المرأة عن جنونها للحظة لتساعده.. لهذا صرخ فيها:

ـ حاولي إطفاء النيران.

لكن المرأة لم تستجب له بالطبع، فقرر هو ترك الأحصنة تواصل طريقها ولوى جذعه ليحاول انتزاع أحد الأسهم المشتعلة من العربة، مجاهدًا للاحتفاظ باتزانه على العربة، وقد أخذت أصوات مطارديه تقترب، حاملة معها المزيد من الأسهم.

لو استمر الأمر بهذه الطريقة فقد يصيبه أحد الأسهم أو يصيب المرأة، وحينها ستنتهي المطاردة نهاية مؤسفة، إلا إذا أنقذه الشيء مما هو فيه.

إنه أمله الوحيد.

أن يتدخل الشيء بصورة ما لينقذه ويمنحه المزيد من الوقت في هذا العالم الذي لم تبدأ فيه لعبته بعد.. صحيح أن هذا يعني أن الأسوأ قادم، لكنه سيجنبه الموت - مؤقتًا - إلى أن يعرف أكثر.. إلى أن يحصل على جزء من الحقيقة كما تقول قواعد اللعبة.

انتزع السهم أخيرًا وألقى به بعيدًا لتنغرس ثلاثة أسهم جديدة بدلًا منه، فأدرك يوسف سذاجة ما يفعله، وعاد يعتدل في جلسته ليقبض على اللجام وقد قرر أن الحل الوحيد أمامه هو أن ينطلق بأقصى سرعة ممكنة، وليكن ما يكون.

بكثير من الحظ وبمعجزة ما قد يتجاوز الحافة إلى نهايتها، وحينها قد يصل إلى بر الأمان أو قد يجد الفرصة لمواجهة مطارديه، ولو نجا منهم فسيستغل ما تبقى له من وقت في هذا الزمن في استجواب المرأة ليعرف منها كل شيء عنها وعمّا هو فيه.

فقط عليه أن يسيطر على العربة وأن يمنعها من السقوط، وأن يتجاوز هذا المنحدر و...

وجوار أذنه مباشرة حلق سهم مشتعل جديد انغرس هذه المرَّة في ظهر أحد الأحصنة، الذي أطلق صهيلًا أشبه بصرخة ألم حادة، قبل أن يسقط فجأة ليسقط معه رفيقاه، فتوقفت ضحكات المرأة على الفور وصرخت ليصرخ معها يوسف، قبل أن تنقلب بهما العربة فجأة.

وفي اللحظة التالية كانا يحلقان في السماء هابطين إلى الهاوية المظلمة.

٢٤

في صِغَرِه تعرَّض يوسف إلى حادث سيارة لم ينسَه قطُّ.

كان يومًا باردًا من أيام نوفمبر، وكانت عمته هي التي تقود السيارة عائدة به من جنازة والدته، وقد أخذت تردد:

ـ شهر واحد.. يموت أخي، ثم يمر شهر واحد فقط لتموت والدتك.. يا لك من نذير شؤم!

فلم يجب يوسف الطفل حينها، وإن سالت دموعه على وجهه ساخنة ليدفن وجهه في نافذة السيارة.. أما عمته فواصلت:

ـ والآن أصبحتَ من نصيبي.. أين سأضعك؟ ومن أين سأطعمك؟ شؤم شؤم! أنت لا تحمل إلا الشؤم لمن يُبتَلى بك!

تقولها ثم تزيد من سرعة السيارة وكأنما تُفرغ توترها في دواسة البنزين، بينما يوسف يجلس بجوارها صامتًا يفرغ حزنه في دموعٍ أخفاها عنها في نافذته.. في الخارج كانت الشوارع شبه خاوية، وكانت الرياح تسابقهما تنذر بعاصفة آتية، فأغمض يوسف عينيه وتمنى أن تأتي بسرعة لتضربه

صاعقة من السماء ليلحق بوالديه.. سيكون هذا أفضل بكثير من أن يقضي ما تبقى له من عمر مع عمته التي تُردد كأنها تدندن بأغنية:

ـ شؤم شؤم.. أنت شؤم.

وهو كان يعرف أنه سيِّئ الحظ، لكنه لم يكن يعرف أن سوء حظه قابل للعدوى إلا بفضل عمته.

إذن لهذا مات والداه.. لأن سوء حظه أصابهما!

ومِن ورائهما كانت تلك الشاحنة تقترب.

رآها يوسف في مرآة السيارة الجانبية وعرف على الفور ما سيحدث، لكنه لم يجرؤ على التصريح به.. فقط تركها تقترب ليطلق قائدها نفيرًا انتفضت له عمته، ودفعها لأن تزيد من سرعتها أكثر باحثة عن متسعٍ في الطريق لتفسحه له ولتتركه يتجاوزها بشاحنته.

وهنا بدأ قلب يوسف الطفل يخفق في قوة.. إنه سوء حظه وقد بدأ العمل من جديد.. ستنقلب بهما السيارة في أي لحظة.. ستنقلب وستموت عمته مهشمة وسيصاب هو بعاهة مستديمة لو خرج من الحادث حيًّا.. وسيكون هذا بسببه.

وفي المرآة أخذت الشاحنة تقترب أكثر.. نفيرها يتعالى، فأغمض يوسف عينيه بخوف هذه المرَّة وانتظر مصيره.

وكانت هذه هي المرَّة الأولى التي سمع فيها صوت سوء حظه في رأسه، إذ تعالى ليقول:

ـ بالطبع ستنقلب بكما السيارة.. لكنك ستنجو.. ستنجو لسوء حظك.

فبوغت يوسف الطفل بالصوت، وارتسم الذهول على وجهه، وهمَّ بالرد لولا أنه لم يجد الفرصة لذلك.

لم يجد الفرصة لأن سوء حظه لم يكذب عليه قطُّ، ولأن عمته رأت ذلك الصبي يعبر الطريق فجأة، فانحرفت فجأة محاولة تفاديه، لترتطم إطارات سيارتها بجانب الرصيف، ولترتد عنه بقوة دارت لها السيارة حول نفسها، قبل أن تتحول إلى علبة معدنية فارغة ألقاها طفل عابث في الطريق.

ولم ينس يوسف هذا الحادث قطُّ، لكنه لم يذكر أبدًا باقي تفاصيله.. كل ما يذكره هو أنه كان يجلس في السيارة.. انقلبت السماء والأرض.. سمع صراخًا يأتي من بعيد.. ثم أظلمت الدنيا أمامه.

وحين استيقظ كان يرقد في فراش قذر في أحد المستشفيات الحكومية والضمادات تغطيه، وممرضة بدينة تحقنه بشيء ما، فعرف أنه نجا حين تصاعدت آلام جسده.. وحين استعاد قدرته على النطق كان أول ما سأل عنه هو عمته، ليفاجأ بأنها لم تمت.. تهشمت أغلب عظامها، لكنها وبمعجزة ما بقيت على قيد الحياة.

لكنها لم تنجُ فحسب؛ بل تركت المستشفى كذلك، مُصرَّة على أن تكمل علاجها بعيدًا عنه وقد أخذت تردد في ذعر:

ـ شؤم شؤم.. إنه شؤم.

وإلى يومنا هذا لم يلتقِ يوسف بعمته ثانية.

ولم يحاول.

* * *

تذكر يوسف ذلك الحادث في اللحظة التي حلَّق فيها جسده في الهواء.

التفاصيل تشابهت والسماء احتلت مكان الأرض أمام عينيه، ثم فقد شعوره بالجاذبية الأرضية، قبل أن تتذكره هي، ليَهوِي بسرعة لا تصدَّق، فحاول الصراخ من جديد، لكن النهر المظلم في نهاية الهاوية ابتلعه، ليجد يوسف نفسه يغوص أسفل أطنان من ماء مثلج ابتلعه رغمًا عنه تمهيدًا للغرق.

عظيم.. لقد كان يخشى الموت سقوطًا أو احتراقًا أو رميًا بالأسهم، وها هو الآن سيموت غرقًا!

المياه الباردة تجثم على صدره، والظلام يحيط به من كل صوب، وجسده يغوص إلى أعماق النهر بانتظام لن تُجدي معه أي مقاومة، لكنه لن يستسلم بهذه البساطة.. إنه لا يجيد السباحة، لكنه يعرف أن عليه أن يضرب الماء بذراعيه محاولًا الصعود إلى السطح حيث ينتظره الأكسجين ليملأ به صدره.. سمعها من أحد زملائه في المدرسة قديمًا.. أفضل طريقة لتعلم السباحة هي أن تلقي بنفسك في الماء لتحاول البقاء على سطحه، وها هو يوسف الآن يحاول تطبيق نصيحته مضطرًّا، ليكتشف أن قدمه انحشرت بين قضبان القفص الذي كانت العربة تحمله.

حاول تحريرها بقوة لكنها لم تستجب له.. غاص إليها وقبض عليها بيديه محاولًا تمريرها من بين القضبان، لكن محاولته باءت بالفشل، ثم بدأ الظلام من حوله في التعاظم، فأدرك أنه نقص الأكسجين في جسده وقد بدأ يؤتي مفعوله.. تذكر أن جسده هذه المرَّة أقوى من جسده الأصلي بمراحل، فأمسك بالقضبان وأخذ يحاول توسيع المسافة بين القضيبين

اللذين انحشرت قدمه بينهما، لكنهما لم يتزحزحا من مكانهما، ليدرك أنه وقت الاستسلام.

شؤم شؤم.. إنه شؤم.

وهذه المرَّة سيدفع ثمن شؤمه!

لكنَّ يدًا أنثوية قبضت على شعره فجأة لتجذبه بقوة هائلة، لتتحرر قدمه فجأة وليشعر بجسده يصعد بسرعة، فترك نفسه تمامًا لصاحبة اليد إلى أن بلغ السطح، ليشهق بقوة محاولًا إدخال أكبر كمٍّ ممكن من الأكسجين في صدره.

وعلى ضوء القمر رأى منقذته، فكانت المرأة ذات النظرات المجنونة التي كانت داخل القفص، لكنها كانت تبتسم.

وحين تمالك يوسف نفسه أخيرًا قالت هي:

ـ والآن.. لنواصل الهرب.

* * *

وعلى الحافة وقف الرجال الثلاثة يرمقون النهر بِحَيرة.

الثلاثة رأوا العربة وهي تنقلب قبل أن تسقط هاوية إلى النهر، والثلاثة شعروا بأن ما حدث غير كافٍ.. لقد سقطت المرأة بالقفص لكن من يضمن لهم أنها لم تنجُ بصورة أو بأخرى؟ وكيف سيتحقق لهم انتقامهم ما لم يقتلوها بأيديهم؟

لهذا أشار «مارسيل» إلى النهر، وقال:

ـ يجب أن نهبط.

ـ أتظن أنها نجت؟

ـ لن أعرف حتى أرى جثتها وأمزقها بيدي.

ـ هيا بنا إذن.

ثم بدأ الثلاثة رحلة هبوطهم إلى حيث ستستمر المطاردة.

* * *

وحين بلغ يوسف الشاطئ أخيرًا ألقى بجسده الضخم على رماله وأخذ يلهث بعنف.

لكن المرأة ركلته بقوة آمرة:

ـ لا وقت للراحة.. إنهم قادمون.

فاعتدل يوسف وتحامل على نفسه ليقف أمامها مواجهًا نظراتها المجنونة، ليسأل:

ـ قبل أن نتحرك هناك شيء يجب أن أعرفه أولًا.. من أنتِ؟

فتراقصت ابتسامة وحشية على شفتي المرأة إذ أجابت:

ـ بالطبع أنت تعرفني.. أنا مولاتك «إليزابث».. «إليزابث باثوري».

* * *

وبالطبع كان يوسف يعرف «إليزابث باثوري».

يعرفها ويعرف كل شيء عنها مما قرأه عنها قبل أن ينتقل إلى زمنها

ليجد نفسه يقف أمامها على شاطئ النهر يرتجف بردًا وهلعًا، وكيف له ألا يرتجف وهو يقف أمام من سمَّاها التاريخ «كونتيسة الدم»؟

سأعرفك بها سريعًا.. فأمامنا وقت لهذا، ولأن قصتها تستحق أن نحكيها قبل أن نواصل حكاية يوسف.. وأول ما عليك معرفته هو أننا الآن في المجر، وفي عام ١٦١٠ تحديدًا، أي أننا نبعد عن زمن «فلاد» بمائة وأربع وثلاثين سنة، وإن لم نبعد عنه جغرافيًّا كثيرًا.

وقصة «إليزابث باثوري» كما تحكيها كتب التاريخ هي الهول ذاته.

أول ما سنعرفه عنها هو أنها سليلة عائلة «باثوري» التي لم تنجب إلا نبلاءَ وملوكًا حكموا المجر وبولندا وترانسلفانيا وامتلكوا مساحات شاسعة من أراضيها، وأن جدها الأكبر «ستيفان باثوري» كان أحد قادة جيوش «فلاد الوالاشي» شخصيًّا ـ مصادفة؟ ربما! ـ وأن «إليزابث» ذاتها ولِدت هي عام ١٥٦٠ لتنشأ كما يجب للنبلاء أن ينشأوا.. حياة مرفهة في قصر والديها.. تعليم راقٍ أجادت معه أربع لغات بطلاقة مدهشة.. تربية صارمة على العادات والتقاليد الملكية، ثم انتهي بها الأمر بزيجة هي أقرب إلى صفقة سياسية منها إلى كونها قصة حب.

زوجها كان «فيرنس نادساي» سليل عائلة «نادساي» الشهيرة، وقائد جيوش المجر لاحقًا، وهدية زواجها كانت قصر «كيجة» الذي بناه لها خصيصًا لتنتقل للعيش فيه، بينما تركها هو ليواصل دراسته في فيينا، قبل أن تشغله الحرب ضد العثمانيين عنها طويلًا، لتعاني «إليزابث» الشيء الوحيد الذي يعانيه النبلاء في كل زمان ومكان.

الملل.

داء الملوك والأمراء في كل مكان وزمان.. ووحدهم من يعانون الفقر لا يضطرون لمواجهة هذه اللعنة!

لكن «إليزابث» عانتها طويلًا وحاولت التغلب على مللها بالحفلات والزيارات ومتابعة أخبار الحرب الدائرة، من دون أن يفلح هذا كله ولو في التخفيف من حدة مللها الذي انضمت إليه الوحدة، وهي التي كانت لا ترى زوجها إلا أيامًا معدودة تفصل بينها أشهر طويلة بفضل الحرب الدائرة.

ولقد كان «نادساي» يعرف مشكلتها فأراد مساعدتها بأن علمها طريقة الترفيه الوحيدة التي اكتشفها في الحرب.

التعذيب.

الرجل كان يجيد تعذيب أسراه حقًّا، وكانت شهرته في ميدان المعركة تقارب شهرة الموت ذاته، وحين عاد إلى زوجته ووجدها تعاني الملل قرر الترفيه عنها بأن علمها ما كان يعرف باسم «ركلات النجوم». الطريقة سهلة ويمكنك أن تجربها في المنزل ـ وإن كنت لا أنصح بهذا ـ وكل المطلوب منك هو أن تقيِّد خادمة من ذراعيها إلى سقف إحدى الغرف.. تدس لفائف الأوراق المغموسة في الزيت بين أصابع قدميها.. تشعل هذه اللفائف لتبدأ الرقصة!

حين جرَّبت «إليزابث» هذه الطريقة أول مرَّة وحين بدأت الخادمة المسكينة في الصراخ وركل الهواء محاولة إسقاط لفائف الأوراق المشتعلة، أشار إليها «نادساي» قائلًا:

ـ هكذا يبدأ الركل.. ولفرط الألم سترى النجوم.

ولم يكن «نادساي» يعرف ليلتها أن تسليته «البريئة» لزوجته ستكون البداية لكل الأهوال المقبلة.

فـ«إليزابث» التي عادت إلى وحدتها ومللها بعد أن تركها زوجها ليواصل حربه، كررت التجربة مرات ومرات حتى سَئِمتها، وحتى قررت أن تبدأ اختراع طرق «تسلية» أخرى، أشد قسوة وأكثر ابتكارًا.. ولن أشرح لك كل الطرق الجديدة التي ابتكرتها «إليزابث» هنا، لكنني سأكتفي بذكر أن طابورًا من الخادمات دفعن ثمن هذه الابتكارات غاليًا، ومن أجسادهن ومن دمائهن لاحقًا.

في البداية كان التعذيب محاولة لطرد الملل.. ثم تحوَّل إلى هواية.. ثم تحوَّل إلى هوس حقيقي وقصص أقرب إلى الأساطير يرددها الجميع من دون أن يجرؤوا على تصديقها.

ثم بدأت الخادمات في التساقط واحدة تلو الأخرى، لتكتشف «إليزابث» أن مخزونها من الخادمات يوشك على النفاد، وأنها في حاجة إلى المزيد.. هكذا أرسلت طالبةً المزيد منهن، عارضة ما كان يكفي لإغراء آباء الفتيات الصغار، والذين كانوا يبيعون فتياتهم بيعًا إلى قصرها، ليمتلئ قصر «إليزابث» بالخادمات من جديد، ولتبدأ مرحلة جديدة من التعذيب بعد أن اكتشفت أنها ـ على الرغم من كل الشائعات التي ترددت عنها ـ تملك سيطرة مطلقة لن يجرؤ أحد معها على معارضتها أو محاسبتها.

ولأنها كانت تتمتع بالقسوة الكافية، أخذت «إليزابث» في تحويل

هوايتها إلى طريقة لعقاب من يخالف أوامرها، ثم إلى طريقة لشغل وقت فراغها لا أكثر، ومع الوقت بدأت الخادمات في الاختفاء في قصرها، فلم يجرؤ أحد على الاستفسار.

ثم مرَّت السنوات على «إليزابث» لتجد أن الشيخوخة تشق طريقها إلى وجهها وبنجاح.

«إليزابث» التي كانت مفتونة بجمالها، والتي كانت تملأ قصرها بالمرايا لتستمتع بوجهها في كل اتجاه تنظر إليه، وجدت أن الشيب وجد طريقه إلى شعرها، وأن التجاعيد عرفت طريق ملامحها.. ومع الوقت أدركت أن جمالها سيذوي وأنها تتحول ببطء - ولكن بثقة - إلى امرأة عجوز، فقررت أن على أحدهم أن يدفع الثمن، وفورًا.. مَنْ؟ الخادمات بالطبع!

هكذا أصبح تعذيب الخادمات - وأغلبهن من المراهقات - عقابًا لهن على ذنب لم يقترفْنَه.. وهكذا بدأت «إليزابث» اللجوء إلى السحر لتبحث فيه عن طريقة للخلود والحفاظ على جمالها، ليدلها أحدهم على طريقة الحفاظ على شبابها باستخدام دماء العذراوات.

هنا يعجز التاريخ ذاته عن ذكر الأهوال التي حدثت في قصر «إليزابث باثوري»، لكنه يعلن وبصراحة أنها لم تدخر وسعًا للحصول على دماء خادماتها وبأبشع الطرق الممكنة.. الطريقة الوحيدة المثبتة هي أنها كانت تَهوَى تعليق الخادمات فوق حوض استحمامها، لتذبحهن ولتغتسل في دمائهن طلبًا للصحة والنضارة!

ومع الوقت تحوَّل قصرها إلى ما يشبه «مثلث برمودا» الخادمات

العذراوات.. كلهن كن يذهبن إلى قصر «إليزابث».. ثم كان الاختفاء التام هو مصيرهن.

واحدة فقط نجت من المذابح التي كانت «إليزابث» ترتكبها، لتخرج من قصرها ولتملأ الدنيا صراخًا قبل أن يجتمع حولها أهل المدينة ليساعدوها على التماسك لتحكي هي لهم كل ما رأته على يدي الكونتيسة المجنونة.. بالطبع لم يصدقوها في بداية الأمر، لكنهم اقتحموا قصر «إليزابث» ليجدوا جثث كل من اختفين هناك في انتظارهم، وفي أسوأ حال ممكنة.

كل الجثث كانت قد فقدت دماءها.. بعضها كانت تحمل آثار تعذيب تفوق قدرتك على التخيُّل.. وبعض الجثث كانت قد فقدت أجزاء كاملة من لحمها بعد أن التهمتها «إليزابث».. كم جثة عثروا عليها؟ ما يقارب ستمائة جثة!

ليلتها تحولت كل القصص والأساطير التي كانت تتردد إلى حقيقة أقرب إلى الكابوس، وليلتها فرت «إليزابث» من قبضة الأهالي الغاضبين لتلجأ إلى النبلاء الذين قرروا القبض عليها في محاولة منهم لاحتواء الغضب الذي شبَّ في المجر حتى أوشك على التهامها.. وما حدث بعدها كان متوقعًا إلى حدٍّ ما.

محاكمة صورية أُعلن فيها حكم الإعدام على كل مساعدي «إليزابث»، أما هي فحُكم عليها بالسجن في غرفة في أحد قصورها كنوع من العقاب على كل الجرائم التي ارتكبتها.. بالطبع لم يكن سجنها هذا سجنًا بالمعنى المفهوم، لأن الملوك والأمراء لا يُسجنون ولا يُحاكمون ولا تعرف عدالة الأرض لهم طريقًا.

هكذا انتهت قصة «إليزابث» في التاريخ، لكن قصتنا نحن لم تنتهِ بعد.

نحن الآن في الليلة التي ستُنقل فيها «إليزابث» إلى قصرها حيث ستقضي ما تبقى لها من عُمر.. هذا إن بلغته.

وإن نجا يوسف!

* * *

وقد عرف يوسف كل هذا، ولهذا ارتجف.

لقد فهم الآن الموقف كله وأدرك ـ متأخرًا ـ أنه الشيء.. وضعه في أسوأ موقف ممكن كالمعتاد: إنه المسؤول عن حماية الملكة «إليزابث باثوري» ونقلها.

هذا هو دوره في هذا الفصل من لعبة الشيء، والمطلوب منه الآن هو أن ينجو بها من مطارديهما.. مَنْ هم؟ ربما هم من رعاياها وقد أرادوا تطبيق العدالة بأنفسهم، وربما هم أهالي الفتيات اللاتي اغتسلت «إليزابث» في دمائهن ويريدون القصاص، وربما هم من رجال المملكة ويريدون التخلص منها من دون محاكمة أو ضوضاء.. لا يهم.. المهم الآن أنه أصبح طريدًا معها وأنه أمام خيارين كما هي العادة في فصول لعبة الشيء: إما أن يترك «إليزابث باثوري» وينجو بنفسه.. وإما أن يساعدها على الهرب!

لكن السؤال الآن: ما علاقة الشيء بكل هذا؟

وكأنما قرأت هي السؤال في عينيه، فأجابت:

ـ لو قتلوني فسيحصل هو على جسدي.

ـ هو؟!

ـ الشيء.. أنت تعرف ما أقصده.. لقد أخبرني بأنك ستفهم.. لقد نفذت طقوس استدعائه وكنت أظنها ستمنحني الخلود من دون أن أعرف أنها ستمنحه جسدي.. وهو الآن ينتظر أن أهلك ليحصل عليه.. وحينها سيواصل هو وجوده عبري، وستخسر أنت.

ففهم يوسف الموقف كاملًا.. لقد سقطت «إليزابث» ضحية الخدعة ذاتها التي سقط فيها «فلاد».. خدعة الخلود.

الحمقاء فعلت كل شيء لتحيا إلى الأبد، لينتهي بها الأمر تواجه الموت معه إما على يدي الشيء وإما على أيدي مطارديها، ولو تركها للشيء فسيخسر حتمًا.. وحينها سيواصل الشيء وجوده عبر الأزمنة إلى أن يبلغ زمنه ليبدأ الشيء لعبته معه.

لكن لو انتصر عليه في هذا الزمن فمَنْ يدري؟ ربما انتهى الأمر بالشيء أسيرَ هذا الزمن، لينجو هو من مأساته.

والخيار أمامه الآن واضح ومرير ككل مرَّة: إما أن يُنقذ من قتلت المئات، وإما أن يتركها للشيء ليقتل هو الآلاف قبل أن يبلغه.

صحيح أن إغراء قتلها لا يقاوَم، لكنه كان قد اتخذ قراره ليسأل:

ـ كيف سنواصل طريقنا من دون عربة أو أحصنة؟

فأجابته هي بلهجتها الملكية الآمرة:

ـ لن نستطيع بلوغ قصري سيرًا على الأقدام.. لا يوجد أمامك سوى حلٍّ واحد.

وأشارت إلى الظلام الذي خيَّم على الضفة الأخرى من النهر، مردفة:

ـ يجب أن تحصل على أحصنة مطاردينا.. ولتفعَلَها عليك أن تواجههم.

وابتسمت قبل أن تختم عبارتها:

ـ وأن تقتلهم.

وكانت هذه هي بداية أطول ليلة في حياة يوسف على الإطلاق.

٢٥

وفي هذه اللحظة كان «بارتوس» يقف عند ضفة النهر يرمق ما طفا من العربة على سطح النهر بعينين لا تطرفان.

كانت دموعه قد جفَّت وإن لم ينقص غضبه بمقدار ذرة، حين انضم له «مارسيل» و«لوران»، ليتبادل الثلاثة نظرة صامتة سريعة، قبل أن يشير «بارتوس» إلى النهر، ليقول:

ـ لقد نجت.

قالها بيقين لم يحتج لمبرر له، فلم يجادله رفيقاه وقد شعرا بما يشعر به ذاته على الرغم من المشهد أمامهما.

«إليزابث» نجت.

عربتها تستقر الآن في أعماق النهر الذي تتقاذف أمواجه الآن بقاياها، لكنهم كانوا يشعرون بأنها لا تزال هنا.. هنا في عالم الأحياء ترسل نظراتها المجنونة إلى الوجود من حولها، وتُذْكِي نيران الانتقام في أعماقهم بلا توقف.. إنها هنا وهذا لا يعني إلا أن عليهم البحث عنها و..

قتلها.

كان المنطق يقترح عليهم أنه من الأفضل الانتظار حتى الصباح ليبدأوا رحلة البحث عنها.. حينها ستكون العاصفة قد توقفت وسترسل إليهم الشمس ما يلزمهم من الضوء والدفء ما يعينهم على مهمتهم، لكن «بارتوس» تحدى المنطق، معلنًا:

ـ سنعبر النهر.

فلم يلق معارضة، وإن لاح التساؤل في عيني «مارسيل» و«لوران»: كيف سنعبر هذا النهر الهائج في مثل هذه العاصفة؟ فلم ينتظر «بارتوس» إلى أن تتحول نظرتاهما إلى سؤال منطوق، بل اتجه إلى حافة النهر ليحاول أن يخترق الظلام بعينيه إلى الضفة الأخرى في محاولة لتقدير المسافة التي سيقضيها في أعماقه قبل أن يلتفت إليهما ليكرر:

ـ سنعبر النهر.

ومن دون أن ينتظر موافقتهما خطا إلى الماء المثلج ـ والذي لم تكن أحصنتهم لتقوى على الاقتراب منه ـ فتبادل «لوران» و«مارسيل» نظرة أخيرة قبل أن يتبعاه صاغرين.. الرجل يفوقهما عمرًا بسنوات لا بأس بها، ولو كان قادرًا على فعلها فلن يعجزا هما.

وما هي إلا خطوات معدودة حتى كانوا قد فقدوا شعورهم بالأرض من أسفلهم ليصبحوا تحت رحمة الأمواج المتسارعة، لكنهم لم يتوقفوا للحظة.. بل إنهم لم يشعروا ببرودة المياه حتى.. نيران غضبهم كانت كفيلة بتدفئتهم.. ورغبتهم في رؤية «إليزابث» ممزقة بأيديهم منحتهم

طاقة لا حد لها، فواصلوا طريقهم بسرعة لا بأس بها إلى أن بلغوا الضفة الأخرى من النهر، ليقفوا هناك بأجساد باردة وقلوب تلتهب.

وعلى الرغم من غزارة الأمطار فإن عيني «بارتوس» الخبيرتين التقطتا أثرًا على الأرض الطينية على مقربة منهم، فأشار إليه وقال:

ـ لقد نجت.. وأخذت حارسها معها.

وهي مهارة لم يملك «مارسيل» ولا «لوران» القدر الكافي منها، لكنهما كانا يدركان جيدًا أنه حين يتعلق الأمر بتقصي الأثر فلا منازع لـ«بارتوس» في هذا المضمار.. ما دام قال إنها قد نجت وأخذت حارسها معها، فهي إذن قد نجت وأخذت حارسها معها.

وهذا يعني إذن أنهم سيواجهونه معها.

هذه النقطة تحديدًا دفعتهما إلى الابتسام، فالحقيقة الآن واضحة كالشمس.. إنهم ثلاثة رجال أشداء في مواجهة حارس واحد مذعور وامرأة استبد بها الجنون، فمَن الرابح في هذه المواجهة؟ لكن «بارتوس» لمح ابتسامة الثقة على شفتيهما، فصاح منذرًا:

ـ إنها أخطر مما تتخيلان.. هي وحدها كفيلة بنا.

وهذه المرَّة لم يشعر بموافقتهما على قوله، بل قرأ وبوضوح ملامح الاستنكار على وجهيهما، لكنه لم يزد على قوله شيئًا.. إنه لا يحتاج إلى قناعتيهما، لكنه يحتاج إلى حذرهما، فهو رأى بعينيه ما تستطيع «إليزابث» فعله.

رآه في زوجته «مارلا».

رآه ولن ينساه ما تبقَّى له من عُمر أبدًا.

ـ والآن.. إلى أين؟

قالها «لوران» بِحَيرة زادت من استنكاره، فأتته الإجابة من السماء في صورة برق سطع للحظة كانت كافية ليضيء لهم الأطلال القريبة من النهر، فأشار «بارتوس» إليها، وأعلن:

ـ هناك.. سنجدهما هناك.

وهذه المرَّة أيضًا لم يكن «بارتوس» مخطئًا.

* * *

وكانت هذه الأطلال هي أغرب شيء رآه يوسف في حياته.

لا.. لم يرَ يوسف عشرات الأطلال على مدى حياته ليميِّز الغريب منها من الطبيعي، لكنك حين ترى حشرة خضراء تصدر ضوءًا أزرق وتصدر هسيسًا كالأفاعي، لن تحتاج لأن تكون خبيرًا في علم الحشرات لتعلن أنها حشرة غريبة.. بالمنطق ذاته كانت أطلال المدينة التي وجد فيها يوسف نفسه غريبًا.

لم تكن خضراء تشع بضوء أزرق، ولم تكن تصدر هسيسًا، لكنها كانت تبدو كأنها خرجت من باطن الأرض لتوِّها، وقد غطاها الطين وجذور الأشجار التي تدلت من جدرانها، وإن تلوَّت حول نفسها محاولة الانتصاب بأوضاع عجيبة، وقد انتشرت غصونها في ثغرات صنعتها في الجدران كأنها سرطان انتشر في جسد مريض.. وكانت الأغصان ذاتها جافة لا أثر فيها للون الأخضر وقد تغطت هي الأخرى بالطين ذاته الذي كسا الجدران، والذي لم تستطع الأمطار المنهمرة إزالته عنها بعد.. وبين مزيج الصخور والأشجار هذا كانت هناك العشرات من القطع البيضاء

المتناثرة في كل صوب، فلم يحتج يوسف إلى خبرة في علم التشريح ليعرف أنها عظام آدمية، وأنها تعود إلى سكان هذه الأطلال، والذين يبدو أنهم دُفنوا مع مدينتهم في زمن بعيد قبل أن يخرجوا معها من باطن الأرض ليستقبلوه مرحبين طالبين منه الانضمام إليهم.

وبمزيج من الرهبة والامتعاض وقف يوسف يرمق المشهد أمامه وقد امتلأ أنفه بعبق الموت الذي اتخذ من هذه الأطلال مستقرًّا له، قبل أن يدوِّي هزيم الرعد لينتفض رغمًا عنه، ولتضحك «إليزابث» ساخرة قبل أن تقول:

ـ أتخشى الموت؟

فالتفت إليها يوسف معترضًا وإن عجز عن الرد.

بالطبع هو يخشى الموت.. أيُّ عاقل يخشى الموت، وعلى استعداد لفعل أي شيء ممكن لاجتنابه، فما بالك وهو الآن مُقْدِم على أطلال أشبه بمقبرة خرجت من باطن الأرض خصيصًا لتضمه إلى قاطنيها؟! مقبرة بدت كأنها لوحة فانتازية رسمتها فرشاة مجنون.. مقبرة أشارت إليها «إليزابث» ببساطة وكأنها حديقة غنَّاء، لتقول:

ـ سنختبئ هنا.. هم سيلحقون بنا بعد قليل لكنك ستستعد لمواجهتهم.. وستقتلهم.

وكان هذا يختصر الموقف أمامه تمامًا.

سيدخل هذه الأطلال بإرادته الحُرة.. سيختبئ مع هذه الشيطانة فيها.. سينتظر من يطاردونهما حتى يقتربوا بما فيه الكفاية لينقض عليهم ويقتلهم.

أو يقتلوه.

ـ ما الذي تنتظره؟

قالتها «إليزابث» ثم خطت إلى داخل لوحة الموت المتجسدة أمامهما، فتردد يوسف للحظة قبل أن يتبعها صاغرًا من دون أن ينبس ببنت شفة.. نعم.. لقد لخصت له الموقف جيدًا، لكنه في أعماقه أدرك الحقيقة كاملة.

حقيقة أنه لن يخرج من هذه الأطلال حيًّا.

* * *

لكنها كانت أطلال مدينة لا مجرد مقبرة جماعية.

أدرك يوسف هذه التفصيلة حين خطا خطواته الأولى داخلها، ليشعر كأنما ابتلعته تمامًا بمساحتها الشاسعة وجدرانها التي احتلت مجال إبصاره بغصون الأشجار التي اخترقتها لترديها قتيلة متهدمة على الأرض أسفلها.. مدينة يسهل أن تضلَّ فيها طريقك لو كانت في حالتها الطبيعية، فما بالك وهي أنقاض متشابكة تتلوى بينها طرق لا تعرف إلى أين ستقودك وكأنها متاهة لا خروج منها إلى يوم الدين؟! فما بالك لو وجدت نفسك فيها مطاردًا من عاصفة لا ترحم ورجال يعزمون على قتلك لا لشيء إلا لأنك سيِّئ الحظ بما يكفي لتجد نفسك الحارس الشخصي لـ«إليزابث باثوري»؟!

مدينة يبدو أنها ستكون مسرحًا للأحداث الأخيرة في هذه الليلة التي لا تريد أن تنتهي.

وفي عين خياله رأى يوسف المدينة قبل أن تتحول إلى أطلال كئيبة تضربها الأمطار وتنخر في جدرانها جذور الأشجار وأغصانها.. رآها مدينة أسطورية ترقد أسفل شمس دافئة مرحبة، وسكانها يجوبون طرقاتها، وابتسامات بلهاء تتراقص على وجوه الجميع.. رأى المنازل واشتم رائحة

الحساء الشهي تنبعث من نوافذها، ورأى السوق والباعة يقفون فيها يناودن على بضائعهم التي تناثرت بقاياها الآن بجوار عظامهم.. رأى الأطفال يلهون في الطرقات، ورأى الأشجار في أماكنها الطبيعية على جانبي طرقات صخرية شبه ممهدة تسير عليها عربات تجرها الأحصنة حاملة الخير للجميع.. ثم رأى في عين خياله الأرض وهي تبتلع المدينة بمن فيها قبل أن تلفظها أطلالًا باردة يسكنها الظلام والموت.

ـ ما الذي حدث هنا؟

قالها وقد توقف فجأة، فالتفتت إليه «إليزابث» وأجابت:

ـ الموت زار المدينة.

وهي إجابة فلسفية تليق بالموقف حقًّا.. الموت زار المدينة ورحل تاركًا آثاره في كل مكان.. كيف؟ لماذا؟ لن يعرف أبدًا! فقط واصلت هي:

ـ سيصلون في أي لحظة.. يجب أن تستعد.

فتوقف يوسف عن تأملاته وتذكَّر مطارديهما بأسهمهم المشتعلة ورغبتهم الصريحة في قتلهما.. وتذكَّر أن عليه أن يقتلهم أولًا.. تذكَّر فسرت تلك الرعدة في جسده وقد أخذ سؤال منطقي يتصاعد في رأسه مُزيحًا لنفسه مكانًا وسط كل الأسئلة هناك: كيف سيواجههم؟

إنه بلا سلاح، فسيفه الذي كان يتدلى من حزامه حين بلغ هذا الزمن سقط في النهر.. وحتى لو كان معه فهو لن يجيد استخدامه.. بل إنه لا يملك أي مهارات قتالية من الأساس.. فما الذي سيفعله؟

صحيح أن جسده في هذا الزمن ضخم يصلح لتلقي اللكمات

والركلات، لكن من قال إن مطارديهما سيواجهونه بأيدٍ عارية؟ ماذا لو استخدموا سيوفهم؟ ماذا لو أطلقوا عليه أسهمهم ليردوه قتيلًا قبل أن يجد الفرصة حتى ليرى وجه واحد منهم؟ ماذا لو تكالبوا عليه ومزقوه إربًا أمام عيني «إليزابث» التي لن يهتز لها طرف، بل ربما وقفت لتتابع ما سيحدث له باستمتاع مرسلة ضحكاتها المجنونة إلى جدران الأطلال التي ستضمه إلى موتاها؟

إنها محقة.. يجب أن يستعد.

يجب أن يظل حيًّا ليفهم.. ليحاول أن يضع نهاية للشيء في هذا الزمن، أو ليأخذ قطعته من الحقيقة على أسوأ تقدير دافعًا المقابل قطعة من جسده.. والأهم.. يجب أن تنجو «إليزابث»!

مرَّة أخرى القرارات الفورية هي الوحيدة المتاحة، ومرة أخرى وجد يوسف نفسه يسيطر على حيرته وتردده، ليقول:

- سنختبئ إلى أن يصلوا.. بعدها سنحاول تفريقهم ومواجهتهم واحدًا تلو الآخر.. هذا هو الحل الوحيد.

- وكيف ستواجههم من دون سلاح؟

قالتها هي فجال يوسف بعينيه بين الأنقاض باحثًا عن شيء ما يصلح كسلاح.. لا.. لن يستخدم العظام الآدمية فهو لن يطيق ملمسها ولن تنفعه هي في مواجهة سيف في يدَي متمرس.. لا توجد قوائم معدنية، وبقايا الأخشاب المبتلة لن تصلح كسلاح مُؤذٍ.. لكنها تصلح لتلقي الضربات.. لهذا اتجه إلى إحدى الأشجار التي تلوت بين الجدران، واستخدم قوة جسده الجديد لينتزع غصنًا بدا له أنه سيصمد إلى حين، قبل أن يلتفت إلى «إليزابث» ليقول:

ـ سأواجههم بهذا.

فابتسمت هي بسخرية ولم تُجب.. فقط قرأ يوسف في عينيها أنه هالك لا محالة، لكنه تجاهل هذه الحقيقة مؤقتًا وحثَّ الخطى مشيرًا إليها:

ـ هيا بنا.

فتبعته بخطوات حافظت على وقارها كملكة وقد أخذت ترمق المشهد حولها في تأفف من وجدت نفسها في مكان لا يليق بمكانتها.. وأمامها أخذ يوسف يتحرك بسرعة محاولًا استغلال المزية الوحيدة التي يملكها في هذا الموقف.. هذه الأطلال شاسعة حقًّا.. أطلال تصلح للاختباء وللبقاء على قيد الحياة إلى أن تتوقف العاصفة على الأقل.. وربما إلى أن يأتي الصباح، وحينها سيختلف الموقف قليلًا.. حينها ـ وعلى الأقل ـ سيتمكن من الرؤية بوضوح أمامه، ليقرر إلى أي اتجاه سينطلق.

لو تحققت أمنيته فسينجو حتى الصباح، وحينها سيدور حول الأطلال و«إليزابث» معه، إلى أن يخرجا منها ليعودا إلى أحصنة مطارديهما، وحينها سيأخذانها من دون مواجهة مباشرة وسينجو بنفسه وبها من هذا المأزق، لكن..

أتتحقق أمنياته في هذا الزمن؟

سؤال لن تتأخر إجابته كما سترى بنفسك بعد قليل.. فالآن.. وفي هذه اللحظة تحديدًا.. كان «بارتوس» ورفيقاه يدخلون الأطلال شاهرين سيوفهم وقد استعدوا للمواجهة التي لن يطول انتظارها.

* * *

وكان «بارتوس» قد زار هذه الأطلال سابقًا في طريقه إلى إحدى المعارك التي خاضها.

زارها ويألفها ويعرف مداخلها ومخارجها ويعرف أنها تمتلئ بألف مكان ومكان يصلح للاختباء، فالتربص، فالهجوم المفاجئ عليه وعلى من معه.. لهذا توقف والتفت إلى «لوران» و«مارسيل»، وقال:

ـ سنتفرق هنا.

فلم يملك «مارسيل» نفسه هذه المرَّة، ليعترض:

ـ لماذا؟

ـ لأن الأطلال شاسعة كما ترى، ولن نجد الوقت الكافي للبحث فيها معًا قبل أن يحلَّ الصباح، وحينها قد يكونان هربا إلى حيث لن نلحق بهما.

ـ وماذا لو عثر أحدنا عليهما؟

ـ حينها ستبدأ المعركة وسيجذب صوتها الجميع إليها.. لكن.. خذا الحذر وحاولا ألا تُصدرا أي صوت، فهما قد يكونان في انتظارنا وراء أي حجر أو في ظلام أي جُحر.. خطأ واحد ولن تجدا الفرصة لتصحيحه.

قالها «بارتوس» ثم أشار بسيفه إلى جهة، وبذراعه الحرة إلى جهة أخرى، مواصلًا:

ـ ستنطلق يا «مارسيل» في هذا الاتجاه.. وأنت يا «لوران» انطلق في هذا الاتجاه.. وتذكَّرا جيدًا.. إنها فرصتنا الوحيدة للقضاء عليها.. فلو بلغت قصرها فلن نتمكن من الوصول إليها أبدًا.

ومن دون أن ينتظر منهما ردًا خفض ذراعيه وانطلق في اتجاه ثالث بخطوات حذرة تكفلت العاصفة بالتغطية على صوتها، فانتظر «لوران» حتى ابتعد بما فيه الكفاية، ليلتفت إلى «مارسيل» متسائلًا:

ـ أتظن أننا سنعثر عليها؟

فأجابه «مارسيل» بحماس لم يشعر به:

ـ سنعثر عليها وسنقتلها.. لن نخرج من هنا إلا بعد أن نقتلها.

فأمَّن «لوران» على قوله بهزة رأس قبل أن ينطلق كل منهما في اتجاهه بالخطوات الحذرة ذاتها، وإن حافظ «مارسيل» على عدم اقتناعه بقرار «بارتوس» في أعماقه.. لو كانت «إليزابث» خطرة كما يزعم، ولو كان حارسها معها ـ وما زال صالحًا للقتال ـ فالمنطق هنا يعلن أنه من الأفضل أن يواجهوهما مجتمعين.. لو واجههما بمفرده فستتضاءل فرصته في النجاة، وربما تغلبا عليه قبل أن يبلغه «بارتوس» و«لوران»، وحينها سيتحول الموقف إلى اثنين في مواجهة اثنين، وسيهلك هو قبل أن يظفر بانتقامه.

وهو هنا لينتقم.

هو هنا لأنه رأى ما حدث لأخته الصغرى، والذي لم يختلف كثيرًا عمَّا حدث لـ«مارلا» زوجة «بارتوس».. فقط كانت أخته أكثر حظًّا؛ فـ«إليزابث» اكتفت بذبحها وإسالة دمائها في حوض لتغتسل بها.. و.. لن.. لن يسمح لنفسه بتخيل ما حدث بعدها فهو يحتاج إلى تركيزه كاملًا.

يكفيه أنه رأى وجه أخته حين عثروا على جثتها ويكفيه أن يعرف أنها لم تتألم طويلًا.

لكن «إليزابث» ستتألم.

هذا ما وعد به أخته حين وقف أمام قبرها قبل أن ينضم إلى «بارتوس» و«لوران» لينفذوا ما اتفقوا عليه.. لقد أخبرهما «بارتوس» بأن «إليزابث» لن تُعدم؛ فالملوك لا يُعدَمون ولا يدفعون ثمن جرائمهم، لكنهم لن يتركوها تبلغ قصرها الذي ستسجن فيه كملكة.

سيعترضون طريقها وسيحصلون على انتقامهم منها كاملًا، ولهذا هو هنا الآن.

ليعثر عليها وليقتلها بأبطأ الوسائل الممكنة وأكثرها إيلامًا.. ولو أراد حارسها الأحمق أن ينقذها منه فسيقتله هو الآخر من دون ذرة تردد أو شفقة.. سيقتله وبعدها سيذبحها وسيستحم في دمائها تمامًا كما فعلت مع أخته التي روت له يومًا ما يحدث في قصر «إليزابث» فلم يُصدقها.

ويا ليته صدقها!

* * *

أما «لوران» فكان موقفه مختلفًا عن «بارتوس» و«مارسيل»، لكن غضبه لم يقل عن غضبهما إن لم يزد.

«لوران» لم يفقد زوجته أو أخته الصغرى، لكنه كان هناك.. في قصر «إليزابث» يحرسه رغم أنفه، ويشهد الجرائم التي ارتكبت فيه من دون أن يجرؤ على الرفض أو الاعتراض.. ومن الذي كان يجرؤ على الاعتراض؟!

بل إنه كان يعتبر نفسه محظوظًا.. ففي الوقت الذي كان مَن في مثل عمره يقتادون إلى الحرب مع العثمانيين فلا يعودون منها إلا قتلى أو وقد فقدوا بعضًا من أطرافهم، اختاروه هو ليكون حارسًا في قصر

«إليزابث باثوري»، فرقص يومها طربًا وشكر السماء التي اختارته لهذه المهمة قبل أن ينطلق إلى القصر حيث كان يتوقع أن تنتظره أسعد أيامه.

ما كان يظنه حينها أنه سيعمل حارسًا في قصر لا تسكنه إلا ملكة وحيدة تحيط نفسها بمئات الخادمات الجميلات، وعدد قليل من الحراس الرجال.. والمنطق الذكوري هنا يقول: مكان مغلق.. عدد محدود من الرجال وسط مئات الإناث اللاتي لا يخرجن من القصر إلا نادرًا.. فما الذي تتوقع حدوثه، خصوصًا لو كانت لك مخيِّلة «لوران» الذي لم يتجاوز سنوات المراهقة إلا بعام أو عامين؟

لكن الواقع الذي كان ينتظر «لوران» كان هو النقيض التام لما تخيله وتمناه.. وكانت هذه الحقيقة هي أول شيء تعلمه حين بدأ عمله في القصر، ليجد أنه ممنوع منعًا باتًّا من التلفظ بحرف واحد مع أي خادمة تعمل فيه، ومهما كان السبب.. إنها القاعدة الصارمة التي وضعتها «إليزابث»، والتي يلتزم بها الجميع هنا، وإلا فالموت هو جزاء مَن يخالفها.

غير مسموح بالحديث مع الخادمات.. غير مسموح بالنظر إليهن.. غير مسموح بالتعامل المباشر أو التعامل غير المباشر معهن.

وغير مسموح لأحد مهما كان السبب أن يتساءل عن سرِّ اختفائهن واحدة تلو الأخرى!

وكانت هذه النقطة الأخيرة هي أكثر ما أثار انتباهه وفضوله وشغل تفكيره طويلًا.

أين تختفي الخادمات؟

الأمر بدأ مع تلك الشقراء التي بدأت عملها في القصر بعد أن أتى هو إليه

بأيام، والتي كانت تبدو كزهرة عباد شمس تستحق أن توضع في إناء ليتأملها زوار القصر بإعجاب، لكنها كانت ـ على الرغم من جمالها ـ مجرد خادمة أتت لتلبي أوامر «إليزابث» التي توزعها على الجميع بلا توقف.. خادمة رآها «لوران» فأدرك أنها ستكون السبب في طرده من القصر إن لم يعدموه جزاءً له على مخالفته الأمر بعدم الحديث مع الخادمات هنا.. لكنها كانت تستحق.

رآها «لوران» أول مرَّة في حديقة القصر إذ كانت تجمع الأزهار، وقد وقفت بينها تتحداها بجمالها وعبيرها، فاندفعت الدماء الحارة في رأسه وهمَّ بترك موقعه قرب بوابة القصر ليتجه إليها ويسألها عن اسمها، لكن نظرة تحذير من عيني قائد الحرس أجبرته على التراجع.. نظرة هي أقرب إلى التوسل، فقائد الحرس رأى بنفسه ما الذي يحدث لمن يخالفون الأوامر، ولن يتحمَّل رؤيته ثانية.

هكذا لزم «لوران» موقعه في هذه المرَّة، وإن أضمر شيئًا في نفسه.. سيحاول أن يلتقي تلك الشقراء سرًّا وبعيدًا عن أعين الجميع.. سيحاول وسينجح وستكون له ما إن يخرجا من هنا.. لكن ليس الآن.

إنه سيظل هنا.. وتلك الغادية ستظل هنا.. فلِمَ العجلة؟

قراره هذا خفف من حماسه مؤقتًا وإن ظلَّ مكانه يرمقها بانبهار لم تجد هي الفرصة لتشعر به، إذ أطلَّت «إليزابث» يومها من نافذة غرفتها لتراها تقف هناك وسط الأزهار، فتحول انبهار «لوران» إلى توتر لا مبرر له حين رأى تلك النظرة في عيني «إليزابث» إذ أخذت ترمق الخادمة الشقراء في ثبات مخيف.

وفي عيني «إليزابث» رأى «لوران» الغيرة واضحة وضوح الشمس.. نعم.. إنها ملكة هذا القصر لكنها امرأة.. امرأة رأت من هي أجمل منها تقف

وسط الأزهار كأنها جزء من لوحة جميلة لا مكان لـ«إليزابث» فيها.. امرأة جرؤت على استعراض جمالها في قصرها، ويجب عليها أن تدفع الثمن!

يومها تعلقت عينا «لوران» بـ«إليزابث» التي وقفت طويلًا في نافذة غرفتها ترمق خادمتها الشقراء التي لم تشعر بها، قبل أن تغيب «إليزابث» داخل غرفتها كشبح ابتلعه الظلام، وقبل أن يخرج من القصر من أتى ليستدعي الخادمة الشقراء إليها، فأخذ توتر «لوران» في التحول إلى هلع حقيقي وقد تصاعد شعور عجيب في أعماقه بأنه لن يرى هذه الخادمة الشقراء مرَّة أخرى.. لسبب ما شعر بأن هذا ما سيحدث، ولسبب ما شعر برغبة عارمة تجتاحه وتدفعه لأن يأخذها ويهرب بها من القصر، لكنه لم يجرؤ على فعلها قطُّ، بل ظلَّ هناك في موقعه قرب بوابة القصر يلقي نظرة وداعٍ تجاه الشقراء التي ـ وقبل أن تغيب داخل القصر ـ توقفت لتنظر إليه مباشرة.. ولتبتسم.

ابتسامة سريعة خاطفة رآها «لوران» فلم تنقص من خوفه بل زادته.

لقد رأته.. لقد شعرت به.. والآن.. لن يراها هو مجددًا.

وفي اللحظة التي غابت فيها الخادمة الشقراء داخل القصر شعر «لوران» كأنما فقد قطعة من روحه لن تعود إليه مجددًا.

وصحيح أن تلك الخادمة الشقراء كانت من أُوليات من اختفين في قصر «إليزابث» الملعون، إلا أن «لوران» رآها لاحقًا في ليلة لن ينساها أبدًا.

* * *

وفي ذلك التجويف بين الأطلال جلست «إليزابث» وسط مياه الأمطار التي ملأت التجويف، وعلى مقربة منها وقف يوسف يتلفت حوله بتوتر

وقد أدرك أن الشيء لم يختر له هذا الجسد الضخم عبثًا.. إنه أضخم من أن يختبئ.. أضخم من أن يتحرك من دون أن يصدر ضوضاء كافية للفت الأنظار إليه.. وأضخم من أن يحاول الهرب فينجو.

لكنه ضخم بما فيه الكفاية ليواجه فيَقتل.. أو يُقتل.

لكن «إليزابث» في مأمن هنا على الأقل.. هذا ما أخذ يحاول إقناع نفسه به وهو يجلس قربها قابضًا على غصن الشجرة البائس الذي أصبح سلاحه الوحيد في المواجهة المقبلة.. مهما حدث الآن فكل ما عليها هو البقاء في مخبئِها، وربما ستنجو هي مما سيحدث.. سيواجه هو مطارديهما بمفرده.. إما أن يتغلب عليهم وإما أن يمنحها الفرصة للهرب.

حينها ستصبح هي تحت رحمة الشيء، لكنه لن يظل معها ليحميها ما تبقى له من عُمر.. إنها لعبة الشيء أن ينقذها هذه الليلة من مطارديها، أما ما سيحدث لها بعدها فهو لن يشغل باله به الآن.

الآن عليه أن ينظم أفكاره وأن يقرر ما عليه فعله.

لقد خمَّن عدد مطارديه، وقرر أنهم ثلاثة أو أقل.. لكنه سيفترض أنهم ثلاثة أو أكثر ـ تحسبًا للأسوأ ـ وعليه الآن أن يفكر في الطريقة الصحيحة لقتلهم بغصن شجرة، متجاوزًا حقيقة أنهم لا ذنب لهم فيما سيفعله بهم، وهذا إن نجح فيه أصلًا.

إنهم مثله.. في المكان غير المناسب في الوقت غير المناسب.. لهذا هم يريدون قتله ولهذا يريد هو قتلهم.. تمامًا كما حدث مع الدكتورة ليلى، وتمامًا كما حدث مع العجوز في غرفة «فلاد الوالاشي».

لكن الموقف الآن مختلف.

الدكتورة ليلى كانت امرأة مجنونة تقبض على سكين لا تجيد استخدامه، والعجوز في غرفة «فلاد» كان لا حول له ولا قوة، وكان هو المسلح ليلتها بالخنجر الذي أولجه في قلبه.. لكن مطارديه هذه المرَّة يختلفون.

إنهم رجال أشداء يجيدون القتال وإطلاق الأسهم المشتعلة، وهم يمتطون أحصنتهم على حافة هاوية، فله إذن أن يتخيل ما هم قادرون عليه بسيوف في أيديهم في مواجهة مباشرة مع رجل يقبض على غصن شجرة لا يصلح إلا للتلويح به مهددًا! ستكون مواجهة مؤسفة النتائج حقًّا، والقاعدة الأولى التي وضعها عقل يوسف كانت:

يجب أن تواجههم واحدًا تلو الآخر.

هكذا ستزيد فرصُه في النجاة، وإن كانت لن تصل إلى حد الأمان اللازم، لكنها قاعدة تلد سؤالًا منطقيًّا، وهو:

كيف سيتمكن من تفريقهم؟

هنا تكرَّم عليه عقل جسده الجديد بالإجابة لأول مرَّة في هذه الليلة، معلنًا أن الأصوات هي الحل.

لو أصدر عدة أصوات في أماكن متفرقة من الأطلال فسيتشتت انتباههم وسيضطرون إلى التفرق للاتجاه إلى مصدر كل صوت.. كيف سيصدر أصواتًا متفرقة؟ سيُلقي بالحجارة في ثلاثة اتجاهات مختلفة.

خطة بدائية لكنها الوحيدة التي تصلح في هذه الليلة، وكل ما عليه الآن هو العثور على ثلاثة أحجار قابلة للحمل، فالقذف إلى أبعد مكان ممكن عن التجويف الذي تختبئ فيه «إليزابث»، والذي تصاعد منه صوتها برنين عجيب، إذ بدأت فجأة:

ـ لقد كنت وحيدة.. وحيدة أكثر من قدرتك على التخيل.

قالتها فبوغت يوسف بقولها وتجمد في مكانه للحظة، قبل أن ترتسم على شفتيه ابتسامة ساخرة.

إنها تحدثه هو عن الوحدة!

هو الذي لم يعرف دفء العلاقة البشرية في حياته قطُّ، ، وقضى أيامه بين جدران منزله ومكتبه وفي سيارته، فغرفته الحقيرة في الفندق، بعد أن اقتحم الشيء حياته.. لكنها واصلت وقد بدا أنها تحكي لنفسها لا له:

ـ سنوات طويلة وأنا أعاني من دون أن يشعر بي أحد.. كنت أملك كل شيء كملكة، لكني لم أكن أملك شيئًا كامرأة.. كنت أسيرة لحياة لم أخترها، وكانت الأيام تمرُّ عليَّ فأدفع ثمنها من جسدي.. من جمالي الذي أخذ يضلُّ طريقه عن مرآتي يومًا بعد يوم.

هنا ذابت الابتسامة الساخرة عن شفتي يوسف، وبدأ نفاد الصبر في الارتسام على ملامحه.. لقد بدأت الشكوى، والمرأة حين تبدأ الشكوى لا سبيل لإخراسها أبدًا، وهو ليس هنا ليتعاطف معها.. إنه هنا لحمايتها مرغمًا، ولهذا همس:

ـ توقفي وإلا فسيجذبهم صوتك إلينا و...

لكنها تجاهلته مواصلة:

ـ كنت أعرف أن زوجي سَئِمني، وأنه يلوذ بحربه ليظل بعيدًا عني.. كان يواجه الموت كل يوم لمجرد أنه لا يريد البقاء معي.. وكنت أنا أقضي الليالي في انتظاره موقنة أنه لن يأتي.. لن يأتي لأنه هناك..

في حرب لا طائل من ورائها، أو في مخدع عاهرة تمنحه ما لم أعد أملكه.. بكيت كثيرًا حتى فقدت قدرتي على البكاء.. ثم قررت فعل أي شيء لأبقى... لم أكن أريد أن أموت قبل أن أحيا.. أتفهم؟ لم أكن أريد أن أغادر حياةً لم أَحظَ منها بشيء بعد.. وكان الثمن هو دماء كل العاهرات اللاتي عملن في قصري.. إنهن عاهرات.. عاهرات!

صاحت بكلمتها الأخيرة بصوت عالٍ انتفض له يوسف ودفعه لأن يسرع إليها لينحني على حافة التجويف الذي خبأها فيه، وليصيح فيها:

- اخرسي أيتها الحمقاء.. اخرسي!

لكن المرأة حين تبدأ في الشكوى لا تتوقف.

ومن ظلام التجويف تعالى صوتها أكثر وأكثر، إذ واصلت:

- دماء العاهرات لم تمنحني الخلود.. أتعرف لماذا؟ لأنهن عاهرات.. كلهن عاهرات، وكلهن دفعن الثمن.. وفي النهاية لم يعد أمامي إلا أن أجرِّب تلك الطقوس الملعونة.. كنت أظن أنها ستمنحني الخلود.. كنت أظن أنها ستمنحني الفرصة لأحيا.. لكنها بدلًا من هذا منحتني له!

قالتها ثم لاذت بالصمت أخيرًا، فتلفَّت يوسف حوله ليتأكد من أن صوتها لم يجذب مطارديهما إليهما، ثم انتظر للحظات تأكد فيها من أنها اكتفت بهذا القدر.. عظيم.. لقد خرست!

الآن يمكنه أن يعتدل وأن يبحث عن الأحجار التي سيلقيها.. والآن يمكنه أن يستعد للحركة، فالمواجهة اقتربت بما فيه الكفاية ليشعر بها آتية حاملة الموت معها.. والآن يمكنه أن يتفرغ للتفكير في الطريقة التي سيقتل بها ثلاثة رجال بغصن شجرة و.. و..

وفجأة انبعث صوت «إليزابث باثوري» من ظلام مخبئِها إذ صرخت بصوت ارتجفت له جدران الأطلال:

ـ نحن هنااااا.. ما الذي تنتظرونه؟

* * *

وفي لحظة واحدة توقف «بارتوس» و«مارسيل» و«لوران» في أماكنهم وقد بلغهم صوت «إليزابث».

وللحظات رددت جدران الأطلال صدى ندائها قبل أن يخفت ليموت في الظلام، لكنهم كانوا قد حددوا مصدره ليتخذ كل واحد منهم قرارًا مختلفًا، وليشرع في تنفيذه على الفور.

«بارتوس» قرر التوقف مكانه والانتظار، وقد بدا له أن الأمر أشبه بفخ ينتظره ليسقط فيه.. «إليزابث» لن تحاول اجتذابه إلا لو كانت قد أعدت له فخًا، وهو أذكى من أن يسقط فيه.. أذكى إلى الحد الكافي ليظل مكانه ولينتظر الصوت التالي.. والذي سيمنحه تصورًا أفضل لما عليه فعله.

و«مارسيل» كان قراره مختلفًا، لم يتوقف مكانه.. بل قرر الابتعاد عن مصدر الصوت وإلى أقصى حدٍّ ممكن، فانطلق يعدو على الفور وكأن أشباح الأطلال تطارده! لكنه لم يكن خائفًا، فلا صوت «إليزابث» ولا أشباح الدنيا قادرة على إخافته وهو الذي أتى ليقتل من قتلت أخته.. فقط افترض أنها محاولة ساذجة منها لجذبه إلى اتجاهٍ ما، قبل أن تنطلق هي هاربة في اتجاه آخر.. لهذا انطلق يعدو قافزًا فوق أي شيء يعترض طريقه، في اتجاه دائري يحيط بمصدر الصوت، مفترضًا أنها لو حاولت الهرب في اتجاهٍ فسيصل إليها أولًا.

وحده «لوران» الذي سمع الصوت فأسرع إلى مصدره وسيفه يشق الأمطار المنهمرة عليه شقًا.

لم يفترض أنه فخ، ولم يفترض أنها خدعة.. فقط ميَّز صوت «إليزابث» فأسرع إليه وقد أخذ قلبه يتواثب في صدره، وقد أعادت له ذاكرته أحداثًا عاشها في قصرها، حاول نسيانها طويلًا من دون جدوى.

* * *

كانت الخادمة الشقراء هي أول امرأة لاحظ «لوران» اختفاءها في القصر، لكنها لم تكن الوحيدة.

انتظرها طويلًا في حديقة القصر لكنها لم تأتِ قطُّ.. بدأ البحث عنها بعينين صامتتين في جنبات القصر فلم يجدها.. ثم تحولت لهفته وقلقه إلى فضول حقيقي ليبدأ السؤال عنها صراحة، فأخذه قائد الحرس العجوز إلى حيث لا يسمعهما أحد وقال:

ـ «لوران».. توقف عن البحث عن تلك الخادمة وإلا لقيت مصيرها.

ثم تركه يحاول استيعاب ما قاله ليستنتج «لوران» في النهاية أنهم طردوها من القصر وأنها لن تعود إليه أبدًا.. استنتاج لم يقتنع به «لوران» قطُّ، لكنه لاذ به، فهو استنتاج ـ إن صحَّ ـ يعني أنها لا تزال حية، عكس ما أعلنته نبرة الهلع في صوت قائد الحرس، إذ حذره من البحث عنها.

هكذا حاول «لوران» أن ينسى الأمر كله وقد أدرك أن طول التفكير فيه لن يورثه إلا الحزن والاكتئاب، فلم يتذكره ثانية إلا حين اختفت تلك الخادمة النحيلة التي كانت تحمل الطعام إلى غرفة «إليزابث» التي لم تكن تفارقها إلا نادرًا.. وإن كان اختفاء الشقراء قد شغله لأنه تعلق بها، فإن

اختفاء الخادمة النحيلة كان مثار همسات كلٍّ من عملوا في القصر طويلًا، فما حدث يومها هو أن تلك النحيلة حملت الطعام إلى غرفة «إليزابث» ودخلتها لتغيب فيها طويلًا قبل أن تتصاعد صرختها فجأة ترج جدران القصر، ثم.. ثم..

ثم اختفت تلك الخادمة النحيلة تمامًا.

لم تخرج من غرفة «إليزابث»، ولم يرها أحد بعدها، ولم تسأل بقية الخادمات عنها، بل ولم يعد اسمها يذكر، وكأنها لم تكن.

كأنه اتفاق رهيب غير معلن.. قرر كلُّ من في القصر أن الخادمة النحيلة اختفت، وأن هذه هي نهاية قصتها، إلا «لوران» الذي بحث عنها هي الأخرى لفترة قبل أن يصل إلى النتيجة ذاتها التي وصل إليها مع شقرائه.

لقد غادرت القصر.. لماذا؟ إلى أين؟ لن يعرف أبدًا!

بعدها اختفت تلك الخادمة ذات الشعر الطويل، والتي كانت تبدو مذعورة طوال الوقت من دون سبب مفهوم.. ثم اختفت تلك الخادمة التي كانت تحاول الابتسام كلما رأته من دون أن يشعر هو بابتسامتها.. ثم اختفت طفلة إحدى الخادمات، والتي كانت تلهو في ممرات القصر، فلم تجرؤ أمها حتى على السؤال عنها أو ذكر اسمها، وإن لم تتوقف الدموع عن الانهمار من عينيها بعدها.

ثم اختفت تلك البدينة.. وتلك الطويلة.. وتلك الجميلة.. وتلك القصيرة...

ثم لم يعد استنتاج «لوران» الساذج بأنهن كلهن طُردن من القصر يصلح لإخراس الأسئلة التي ألهبت تفكيره طويلًا، فعاد ليسأل عنهن بمزيج من الفضول والخوف هذه المرَّة.. ومرة أخرى أخذه قائد الحرس

العجوز إلي حيث لا يسمعهما أحد ليجيب عن أسئلته بقولٍ لم ينسه «لوران» قطُّ:

ـ مَن يُستنفد الغرض منها لا يَعُدْ لبقائها مبرر.. ولهذا تختفي!

ثم تركه من دون أن يفسِّر له جملته، ولم يكن «لوران» يومها يحتاج إلى تفسير.. إنه لم يكن يومًا ذكيًّا، ولم يكن يملك من الفراسة ما يكفيه ليحصل على عمل أفضل من مجرد حارس لقصر ملكة غريبة الأطوار.. لكن الربط بين اختفاء الخادمات وتلك الأشياء التي كانت تُنقل إلى قبو القصر طيلة الوقت في سرية تامة لم يكن يستلزم ذكاءً مبالغًا فيه.

لهذا ابتلع «لوران» أسئلته وطعن فضوله في مقتل، وقرر أن ينسى الأمر كله إلى أن تنتهي فترة خدمته في هذا القصر المشؤوم، لينضم من دون أن يعرف إلى أعضاء ذلك الاتفاق غير المعلن الذي انضم إليه جميع مَن في قصرها قبله.

الخادمات هنا يختفين، ولا داعي للبحث عنهن، فهو بحث لن يؤدي إلا إلى هلاك الباحث.

لم يكن «لوران» قد تجاوز أعوام مراهقته إلا بقليل، لكنه في هذا القصر بلغ سِنَّي النضوج، فالحكمة، فلم يعد لسانه يتحرك في فمه إلا نادرًا، ومع الأيام اكتسى وجهه بتعبير جامد لرجل يعرف أكثر مما ينبغي له أن يعرف.. ومع الوقت بدأ ينسى شقراءه التي شغلت باله طويلًا حتى أصبح عاجزًا عن تذكر ملامحها أو ابتسامتها الوحيدة التي منحتها له من دون مقابل.

نسيَها إلى أن رآها ثانية في ليلة انقلبت فيها حياته رأسًا على عقب.

* * *

وقبل أن نحكي ما حدث لـ«لوران» في الليلة التي رأى فيها خادمته الشقراء، دعنا نَعُدْ للحظة إلى يوسف الذي وقف ذاهلًا أمام التجويف الذي اختبأت فيه «إليزابث»، يحدِّق في ظلامه من دون أن يراها، عاجزًا عن تصديق ما فعلته لتوِّها.

لقد نادتهم!

في اللحظة التي انحنى فيها على الأرض ليلتقط أول حجر سيقذفه بعيدًا عنهما نادتهم هي لتدمر خطته الواهية قبل أن تمنحه الفرصة لتجربتها حتى.. لكن..

ـ لماذا؟!

ـ لأنني لن أقضي ليلتي هنا.. هيا استعد.

قالتها وقد استعادت نبرة الجنون في صوتها، فاستبد بيوسف غضب جارف ودَّ معه لو هبط إليها ليهشِّم رأسها بغصن الشجرة الذي يقبض عليه، لكنه كان يدرك ـ مع الأسف ـ أنه لن يستطيع فعلها، فأزاح غضبه جانبًا وأخذ يتلفَّت حوله بتوتر لا حد له، محاولًا الاستعداد للهجوم الآتي، مطوحًا غصنه تجاه أي ظل تحرك أمامه.

إنهم قادمون.

لم يستعد لهم، ولم يتوصل بعدُ إلى الطريقة المُثلى للتغلب عليهم، لكنهم قادمون، فلا بد أن صوت تلك المأفونة قد بلغهم، ولا بد أن يتخذ الآن قراره وبسرعة قبل أن يصلوا إليهما.

إنهم قادمون.

وهو لن يتمكن من الهرب، ولن يحاول حتى.. لقد قضى ليلته كاملة يهرب.. يهرب من الشيء، ثم من عصام، ثم من أسهم مشتعلة، ثم من الموت في أعماق النهر.. وهذا يكفي.

إنهم قادمون.

وكل ما على يوسف فعله الآن هو انتظارهم لتبدأ المواجهة.. لا يهم أن ينجو هو، لكن المهم ألا تنتهي هذه الليلة إلا و«إليزابث باثوري» على قيد الحياة.. إنه اختياره في هذا الفصل من لعبة الشيء، والذي لو نجح في تحقيقه فقد ينتهي هذا الكابوس الذي عاش فيه طويلًا.

إنهم قادمون.

وليكن ما يكون!

* * *

وبالفعل كان «لوران» قد اقترب منهما إلى الحد الكافي ليشعر يوسف باقترابه، لكنه في هذه اللحظة كان يتذكر الليلة التي رأى فيها خادمته الشقراء للمرَّة الثانية.. والأخيرة.

كانت ليلة باردة.. وكل الليالي في قصر «إليزابث» كانت باردة حتى في أشهر الصيف.. وكان «لوران» يرقد على فراشه عاجزًا عن النوم وقد أخذت الأسئلة التي يحاول تجاهلها كل يوم في الإنشاد الحزين في رأسه ترجوه أن يحاول الإجابة عنها، لكنه كان قد أغمض عينيه مقررًا تجاهلها إلى أن يغيب في النوم كما يفعل كل ليلة، فمرَّت عليه ساعات طويلة قبل أن يفقد اتصاله بأرض الواقع ليغيب في عالم الأحلام.

وكعادة أحلامه في الفترة الأخيرة رأى «لوران» الخادمات اللاتي اختفين من القصر يخرجن واحدة تلو الأخرى من جدران القصر ليتجمعن هناك في النهاية.. قرب مدخل القبو.. هناك كن يقفن قبل أن يبدأن البكاء الحار، ومن دون أن يصدر منهن أدنى صوت.. وكان «لوران» يجد نفسه في أحلامه يقف قربهن يرمقهن عاجزًا عن فعل أي شيء إلى أن يخنقه شعوره بالعجز هذا ليستيقظ في فجر اليوم التالي يلهث ويتصبَّب عرقًا.

لكنه في هذه الليلة لم يجد الوقت الكافي ليخوض كابوسه حتى النهاية، إذ انتزعه صوت أنثوي خافت تصاعد بجوار فراشه مباشرة من عالم الأحلام، إذ قال:

ـ لماذا لم تبحث عني؟

كان الصوت خافتًا لدرجة قد لا تشعر بها وأنت مستيقظ وفي قمة انتباهك، لكنه كان كفيلًا لينتفض «لوران» مستيقظًا وليعتدل على فراشه محاولًا البحث عن مصدر الصوت الذي تعالى في ظلام غرفته يكرر:

ـ لماذا لم تبحث عني؟

فاحتاج «لوران» إلى لحظات ليتأكد من أنه لا يحلم، وأنه قد سمع صوتًا بالفعل، ثم على ضوء القمر المتسلل من نافذة غرفته رأى صاحبة الصوت، فشهق كرجل اخترق سيفٌ قلبه.

فأمامه كانت الخادمة الشقراء تقف ترمق القمر بنظرة حزينة، لكنها لم تكن كما رآها أول مرَّة على الإطلاق.. بل إنها لم تكن تمتُّ بأي صلة لتلك الغادة التي رآها في حديقة القصر منذ أشهر طالت.

مَن وقفت أمامه في تلك الليلة كانت امرأة فقدت شعرها، وقد بدا أن أحدهم انتزعه من رأسها انتزاعًا، تاركًا خصلات تلونت بلون غامض هو لون الدم لو امتزج بشعر أشقر وجد الشيب المبكر طريقه إليه.. وبين تلك الخصلات النافرة كانت ندوب هائلة الحجم تبدأ من قمة رأسها لتنتهي في وجهها الذي لم يعد يحوي أنفًا ضمن معالمه، ولا شفة سفلى.. حتى أسنانها التي كشفت عنها يوم ابتسمت له لم تعد هنالك، وإن تبقت منها قطع صغيرة تناثرت في جانبي فمها كأنياب وحش أسطوري يستعد للإطباق على فريسته.

وأسفل هذا الرأس المشوَّه كان جسدها قد أوشك على التحول إلى هيكل عظمي يستحيل معه أن تعرف إن كان صاحبه رجلًا أو امرأة، حتى إن «لوران» احتاج إلى دقيقة كاملة ليميِّز أنها لم تكن ترتدي أي شيء يستر عظامها، وإن لم يمنحه هذا الاكتشاف إلا مزيدًا من الرعب، وقد تحولت عيناه إلى دائرتين مكتملتين ذاهلتين في وجهه.

ـ لماذا لم تبحث عني؟

قالتها هي للمرَّة الأخيرة، ثم هوت بجوار فراشه جثة هامدة تحدق عيناها في القمر في السماء بنظرة حزينة.

ولا داعي هنا لأن نضيع المزيد من الوقت في وصف ما شعر به «لوران» ليلتها.. يمكنك أن تضع نفسك مكانه وأن تتخيل ما ستشعر به، ثم يمكنك أن تتفهم لماذا هرب من القصر ليلتها، وقد كاد يفقد عقله، ليختبئ في أبعد مكان ممكن عنه، وليقضي بعدها ليالي طويلة يبكي ويرتجف من دون توقف.

وبعد ثلاثة أشهر كاملة تمالك «لوران» نفسه أخيرًا ليخرج من مخبئه

وليعرف أنهم اكتشفوا حقيقة ما كان يحدث في القصر الملعون، وأنهم سينقلون «إليزابث باثوري» إلى قصر جديد لتُسجن فيه، بعد أن امتلأ قصرها الحالي بجثث كل الخادمات اللاتي اختفين طوال الفترة الماضية.. هنا كان قد قرر أن يترك المدينة كلها وأن يقضي ما تبقى له من عُمر يحاول أن ينسى ما مرَّ به ـ وإن أدرك أنه لن يتمكن من النسيان أبدًا ـ إلى أن التقى بـ«بارتوس» و«مارسيل»، وإلى أن عرف منهما أنهما سيحاولان قتل «إليزابث»، قبل أن تبلغ قصرها الجديد.. حينها كان هو الوحيد الذي قال بعد أن استمع إلى خطة «بارتوس»:

ـ أنا معكما.

وهذا ما حدث بالفعل.

وها هو الآن «لوران» كما تراه، يقفز فوق تلك الكومة من الصخور وسيفه في يده يلمع مع وميض البرق في السماء، وقد أصبح على بُعد خطوات معدودة من يوسف الذي قبض على غصنه بكلتا يديه والأمطار تضربه بلا هوادة، وقد شعر بمن يقترب منه وبسرعة.

في أي لحظة الآن سيبدأ الهجوم وستبدأ المعركة.. إن الصوت يقترب.. إنه قادم من هذا الاتجاه.. من خلف هذا الجدار تحديدًا.. إنه يشعر الآن باقتراب الموت إلى الحد الذي يكاد قلبه معه أن يتوقف طواعية.. إنه.. إنه...

وفي اللحظة التي دوى فيها هزيم الرعد خرج «لوران» من قلب ظلام الأطلال لينقض على يوسف ولتبدأ المعركة.

٢٦

لن يمكنك تخيل عنف قتال لم تخُضْه، ولن يمكنك أن تحارب مجريًّا في أطلال تنتمي إلى القرن السادس عشر بغصن شجرة لكي تخوض التجربة، لكن أرجوك حاول أن تتخيل معي المشهد التالي.

لن يمكنك أن تجد نفسك في جسد ضخم، لا يمُتُّ لك بصلة، تحارب، من أجل البقاء، رجلًا لا يعرفك، لكنه يحاول أن يقتلك من أجل الانتقام، لكن أرجوك.. أرجوك.. حاول فستجد أن الأمر ليس بالصعوبة التي تخيلتها.

المشهد أمامك الآن كالتالي:

يوسف في جسده الضخم أحمر الشعر يستقبل ضربة سيف «لوران» الأولى على غصن الشجرة، لينغرس السيف فيه وقد صرخ الاثنان في اللحظة ذاتها.. أولهما خوفًا والثاني غضبًا.

يسقط يوسف أرضًا من عنف الضربة، لكنه يقف بسرعة في اللحظة التي ينتزع فيها «لوران» سيفه من الغصن، ليحاول غرسه هذه المرَّة في صدر

يوسف الذي يقفز غريزيًّا إلى الوراء، مطوحًا غصنه في وجه «لوران» الذي استقبل الضربة القاسية على جانب رأسه لتتفجر الدماء منه، وليضاعف الألم من غضبه أضعافًا وأضعافًا، قبل أن يتراجع ليستعد لانقضاضه التالي.. الرياح تزأر بين جدران العاصفة مهللة، والأمطار تزداد كثافة فجأة، كأنها تستعد لغسل الدماء التي ستراق على أرض الأطلال، لكن «لوران» الذي كاد ينزلق على أحد الأحجار يسيطر على نفسه بسرعة، وينقض للمرَّة الثالثة على يوسف الذي وجد أنه ـ وإن كان عاجزًا عن القتال ـ يملك جسدًا يصلح له بالفعل.

لقد أصابته ضربة سيف «لوران» الثالثة في ذراعه، لكن الألم الذي تصاعد منها لم يكن بالدرجة التي توقعها، ولو كان قد تلقى ضربة مماثلة على ذراع جسده الأصلي لبُترت.. لكنه الآن لم يشعر إلا ببعض الألم وبسخونة الدماء التي سالت على ذراعه وهو يرفع غصنه الضخم ليَهوِي به على رأس «لوران» الذي انزلق هذه المرَّة، لينجو من ضربة كادت أن تهشم رأسه لو أصابته.

برقٌ يسطع في السماء يعقبه هزيم الرعد، والمعركة مستمرة.

والاثنان الآن يلهثان، وقد وجد كل واحد منهما أن خصمه لم يكن هينًا كما تمنى.. «لوران» وجد أن غريمه أضخم وأخطر من اللازم، ويوسف وجد أن غريمه ـ وإن كان بمفرده ـ قادر على قتله فعلًا لو صدر منه أدنى خطأ.. اثنان لا يعرفان بعضهما بعضًا، لكن لا مجال هنا للتعارف أو تبادل التحيات.. وفي اللحظة التي انقض فيها «لوران» للمرَّة الرابعة كان سؤالان متماثلان يسطعان في عقل كل واحد منهما: *أين اختفت «إليزابث»؟ أين باقي مُطارديهما؟*

لكن سؤال «لوران» لم يمنعه من إصابة يوسف في ذراعه التي تقبض على الغصن مرَّة أخرى، وسؤال يوسف لم يمنعه من الصراخ ألمًا هذه المرَّة، وهو يحاول التمسك بسلاحه الوحيد لهذه الليلة، قبل أن يُلقي بجسده الضخم تجاه «لوران» في انقضاض لم يتوقعه هذا الأخير، ليرتطم به يوسف وليسقط الاثنان أرضًا أسفل جدار متهدِّم اعترض على إزعاجه بأن ألقى عليهما بحجارته.

البرق يسطع في السماء يعقبه هزيم الرعد، والمعركة مستمرة.

تحرَّك يوسف في اللحظة التي كادت فيها أحجار الجدار الهاوية عليهما أن تصيبه، وانسل «لوران» من أسفله مستغلًّا خفته، ثم انقض «لوران» للمرَّة الخامسة وقد أدرك أنه لن يستطيع طعن جسد يوسف في مقتل، لكنه يستطيع أن يصيبه بما يكفي من الجروح لينهكه، فاخترق سيفه فخذ جسد يوسف هذه المرَّة، وصرخ يوسف الذي لم يتوقع هذه الضربة وهو يَهوِي بغصن الشجرة على ذراع «لوران»، ليتصاعد صوت تهشيم عظام امتزج بصوت تحطم الغصن.

هنا سقط «لوران» يتلوى ألمًا عاجزًا عن تحريك ذراعه، وبجواره انهار يوسف على ركبته وقد أخذت الدماء تتفجر من جروح ذراعه وفخذه بلا توقف، وقد فقد الاثنان سلاحيهما.. لكن المعركة لم تتوقف عند هذا الحد.

البرق يسطع في السماء يعقبه هزيم الرعد، والاثنان يتحاملان على نفسيهما ليقفا وليواصلا المعركة!

فقط هذه المرَّة أصبح الاثنان على درجة متساوية من الخوف، وقد

شعر «لوران» بأن نهاية المواجهة قد لا تكون لصالحه كما يتمنى، بينما أدرك يوسف أنها فرصته للتخلص منه قبل أن يبلغهما من هما معه.

فقط هذه المرَّة انقض الاثنان بعضهما على بعض وقد جمعت بينهما الرغبة في البقاء على قيد الحياة، لتبدأ اللكمات، فالركلات، فالصرخات التي حملت الألم والغضب والرغبة في الخلاص.

ولدقائق لم تطل استقبلت جدران الأطلال دماءهما المتناثرة في نهم، قبل أن ينهار «لوران» أخيرًا وقد فقد قدرته على التنفس بعد الضربة التي سددها يوسف في منتصف صدره، فلم يُضِع يوسف الفرصة.. انحنى على أضخم حجر وجده ورفعه بكلتا يديه وهو يصرخ عازمًا على أن يَهوِي به على رأس «لوران» الذي أغمض عينيه منتظرًا الموت، لولا أن قفز «مارسيل» فجأة على يوسف ليسقطه أرضًا بالحجر الذي يحمله.

البرق يسطع في السماء يعقبه هزيم الرعد، والمعركة تشتد ضراوة.

يوسف كان سيقتل «لوران» لأنه «مضطر» ـ وهي ليست أول مرَّة يجد نفسه فيها في مثل هذا الموقف ـ لكن «مارسيل» الذي هبَّ واقفًا بسرعة شاهرًا سيفه كان يريد قتله بغضب تضاعف حين رأى ما أصاب رفيقه «لوران» الذي زحف جانبًا وهو يعض على شفته محاولًا كتم صرخة ألم أرسلتها له ذراعه المهشمة.. ويوسف أيضًا وقف بسرعة، لكنه أدرك على الفور أنه لن ينجو من غريمه الثاني الذي يفوق «لوران» حجمًا ومهارة، وقد تحولت كفة المعركة هذه المرَّة إلى رجل مصاب بلا سلاح أمام رجل بسيف يجيد استخدامه بمهارة.

انقض «مارسيل» صارخًا بغضب فألقى يوسف بجسده إلى الوراء

ليسقط، ولتئن جروحه، لكنه هب بسرعة ليتفادى سيف «مارسيل» الذي انغرس في الأرض في الموضع الذي كان رأسه يحتله منذ لحظة.. هبَّ وهو يقبض على حفنة من الطين ألقاها في وجه «مارسيل» الذي استقبلها بابتسامة ساخرة، وهو ينقض من جديد بسيفه، فلم يستطع يوسف التحرك بالسرعة اللازمة مع ضخامة جسده، ليشعر بالمعدن البارد يمزق لحم صدره ناثرًا دماءه في وجه «مارسيل».

وهذه المرَّة انهار يوسف على الأرض ألمًا وقد أخذ يلهث بعنف وجراحه ترسل لهيبًا قاسيًا إلى رأسه، لم يلبث أن تحوَّل لدوار اهتزت معه الموجودات من حوله، لكن «مارسيل» اقترب منه ببطء وبوجه غطاه الطين والدم وهو يرفع سيفه مستعدًّا لتسديده للمرَّة الأخيرة.

وهذه المرَّة لم يحاول يوسف أن يقاوم.

قتاله مع «لوران» أنهكه.. جراحه منحته ما يكفيه من الألم لهذه الليلة.. والدماء التي فقدها تركت مكانها ضعفًا اجتاح كيانه كله، فظل هناك على الأرض يحدق في ذعر في سيف «مارسيل» الذي سيُطير عنقه في اللحظة التالية و.. و..

وفجأة شهق «مارسيل» غير مُصدق حين اخترق سيف «لوران» ظهره ليخرج من صدره!

شهق وتحولت نظرة الذهول في وجهه إلى ألم، فحزن من سيموت قبل أن يحقق هدفه في هذه الدنيا، ودار حول نفسه نصف دورة قبل أن يسقط أرضًا جثة هامدة، لتظهر «إليزابث» من ورائه تبتسم في ظفر، ابتسامة رآها يوسف فانتفض قلبه في صدره رعبًا.. ابتسامة لم تَبدُ له آدمية على الإطلاق.

لكنه.. ولأنه لم يكن يملك من ترف الوقت ما يكفيه لتأمل وتحليل ابتسامتها.. قرر استغلال الفرصة ليدفع بما تبقى من جسده من طاقة، وليقف ملتفتًا إلى غريمه الأول «لوران» مستعدًّا لمواجهته و..

ولكنه لم يكن هناك!

مخلفًا دماءه على جدران الأطلال هرب «لوران»، ليترك يوسف يقف يرتجف أسفل الأمطار التي لم يعد يشعر بها لفرط الدماء التي تسيل من جسده، وبجواره وقفت «إليزابث» ترمق جثة «مارسيل» في رضا قبل أن تتجه إليها لتنتزع السيف من ظهره ولتمد به يدها إلى يوسف، قائلة:

ـ هيا بنا.

فاحتاج يوسف إلى لحظات طالت قبل أن يتمالك نفسه ليأخذه منها.

البرق يسطع في السماء يعقبه هزيم الرعد، وأطول ليلة في حياة يوسف لم تنتهِ بعد!

* * *

وبعدْوٍ هو أقرب إلى الزحف انطلق يوسف وسط الأطلال مع ملكته التي فقدت عقلها وإن استعادت وحشيتها مع رؤية الدماء.

كانت قد أخذت خنجر «مارسيل» من ملابسه قبل أن تتركه لتحقق نوعًا من التعادل في المواجهة المقبلة التي قد تحدث في أي لحظة.. امرأة مجنونة مسلحة ومصاب.. ضد مصاب آخر ومقاتل اسمه «بارتوس» يريد الانتقام لحبيبته «مارلا».

«بارتوس» الذي لم يكن مخطئًا حين أخبر «مارسيل» و«لوران» بأن

صوت المعركة سيجذبهما إليها، وهذا ما حدث له بالفعل، لكنه حين بلغ جثة «مارسيل» أخيرًا أدرك أنه تأخر.. المرأة وحارسها هربا، و«لوران» نجا، لكنه يرقد الآن مصابًا خائفًا في مكان ما في هذه الأطلال، وهو لا يملك وقتًا ليبحث عنه.

إنه هنا من أجل «إليزابث باثوري».

ومن أجل «مارلا».

بعينيه الخبيرتين.. وفي الآثار التي تبقَّت أمامه رأى المعركة وكيف انتهت، وخمَّن الاتجاه الصحيح الذي انطلق فيه يوسف و«إليزابث»، فانطلق خلفهما بأقصى سرعته هذه المرَّة، وقد أدرك أنه لو تأخر هذه المرَّة فلن يلحق بهما أبدًا.

صحيح أنه لم يعد شابًّا يقوى على قضاء ليلته في العدو، لكنه كان يعرف أن يوسف مصاب، وأنه فقد من الدماء ما يكفي ليخفف من سرعته، ولجعله شبه عاجز عن مواجهته، لكن «إليزابث» بمفردها خطرة.. ولقد أخذت خنجر «مارسيل» معها كما رأى بنفسه.. هذا يعني أن المواجهة المباشرة لن تكون أفضل الحلول أمامه.. وهذا يعني أن عليه أن يعثر على حل بديل وأن يضعه موضع التنفيذ فورًا.

لهذا توقف عن العدْو في اتجاه يوسف و«إليزابث»، ولهذا انطلق إلى تلك الكومة العالية من الأطلال ليبدأ تسلقها بسرعة، لينتهي به الأمر على قمتها يلهث، لكنه سيطر على أنفاسه بسرعة، وأخذ يجوب بعينيه ظلام الأطلال بحثًا عن فريستيه، وقد منحه موقعه الجديد مشهدًا بانوراميًّا للأطلال من حوله.

لقد انطلقا في هذا الاتجاه.. لن يمكنهما المواصلة في هذا الطريق لأنه مسدود.. سيضطران إلى الدوران حول هذا المنزل المتهدم، وفي هذه الحالة سيصلان إلى... ها هما!

على مسافة ليست قريبة رآهما «بارتوس» يخرجان من وراء ذلك المبنى المتهدم، ورأى أنهما يحاولان العودة إلى النهر، فاستنتج خطوتهما التالية في لحظة.. إنهما يريدان أخذ أحصنتهم.. سيقتلان واحدًا وسيأخذان الآخرَيْن، وحينها لن يعود هو حتى إلى قريته إلا بعد أن تمر أيام ستقضيها «إليزابث» في قصرها الجديد.. هذا هو ما سيحدث.. إلا إذا...

وعلى الرغم من غضبه وإرهاقه استحضر «بارتوس» هدوء الدنيا في أعماقه واستلَّ قوسه وألقمه سهمًا ليصوبه تجاههما.

ستكون أمامه فرصة واحدة الآن.. سيصيب أحدهما وسيدفع هذا الثاني للهرب، لهذا عليه ألا يخطئ وأن يصيبها هي.

إصابة لن تقتلها ولكن ستعجزها عن الهرب، فهو يريد أن يقتلها بيديه وبأبطأ وسيلة ممكنة.

إنها فرصته الوحيدة في هذه الليلة، وكل ما عليه الآن هو أن يفعلها.. ألا يخطئ في إصابة هدفه وأن يُسقط «إليزابث».

لهذا ملأ صدره بالهواء البارد، ثم همس:

ـ من أجل «مارلا»!

وأطلق سهمه.

* * *

ولنعد للحظات إلى «لوران»، وأعدك بأننا لن نقضي معه سوى لحظات، لكنها ضرورية.

لقد رأيناه آخر مرَّة على الأرض حين كان يوسف يهمُّ بأن يَهوِي بحجره على رأسه، قبل أن ينقض عليه «مارسيل» لينقذه.. وصحيح أنه نجا في اللحظة الأخيرة كما يقولون، لكنها كانت أول مرَّة يقترب فيها «لوران» من الموت إلى هذا الحد.

أول مرَّة يدرك فيها أنه لا يزال شابًّا وأنه لم يكتفِ بما قضاه على وجه البسيطة، وأول مرَّة يدرك فيها أنه يريد الحياة أكثر من أي شيء آخر.. أكثر من انتقامه حتى!

لهذا ـ وحين فتح عينيه ليجد أن حارس «إليزابث» منهمكًا تمامًا في قتاله مع «مارسيل» ـ كانت غريزة البقاء قد تملكته تمامًا، لتدفعه للزحف هربًا إلى حيث سينجو بنفسه، فاستجاب لها على الفور، ومن دون لحظة تردد.. فقط حين ابتعد لمسافة كافية تسلل شعور بالذنب إلى نفسه لتخليه عن «مارسيل»، لكنه تغلب عليه بالألم المتصاعد من ذراعه المهشمة، وقرر أنه حتى لو كان أراد أن يظل معه ليساعده فلن يستطيع بإصابته هذه.. ليس من دون سيفه وبذراع مهشمة وبكل الدماء التي فقدها.

نعم.. يجب أن يهرب لأنه لا يملك إلا الهرب.. وحين تصاعدت شهقة «مارسيل» الأخيرة في الأطلال من حوله أيقن أن قراره هذا ـ وإن كان يمتزج بقدر لا بأس به من الخسة ـ هو القرار الصحيح.

فقط احتاج إلى مزيد من الوقت ليتذكر أن ذراعه هي التي تهشمت لا ساقه، ليتحامل على نفسه، ليقف وليبدأ العدو مبتعدًا بأقصى سرعة

ممكنة، ومع كل خطوة كان يعدوها كانت رغبته في البقاء تقل تدريجيًّا لصالح شعوره بالذنب، قبل أن يتوقف أخيرًا يلهث ليعترف لنفسه بحقيقة أنه تخلى عن «مارسيل» وعن خادمته الشقراء وعن وعده لـ«بارتوس».. لماذا؟

ـ *لأنك لست رجلًا يا عزيزي.. الرجال لا يهربون من الموت.*

تصاعد الصوت العابث في رأسه فجأة فانتفض ذاهلًا قبل أن يتلفت حوله باحثًا عن مصدره.. لكن الصوت تصاعد مرَّة أخرى داخل رأسه ليواصل وبالنبرة العابثة ذاتها:

ـ *«مارسيل» أتى لينقذك.. وأنت تخليت عنه.. لهذا قتلته «إليزابث».. قتلته بسيفك يا «لوران».*

فاحتاج «لوران» إلى وقت أطول هذه المرَّة قبل أن يتيقن من أن الصوت يتصاعد من رأسه هو، ليتوقف عن التلفت حوله وليقف مكانه ذاهلًا عاجزًا عن الاستيعاب.. تُرى.. أهذا هو صوت تأنيب ضميره؟ لو كان هو.. فلماذا تلك النبرة العابثة؟

لكن الصوت تصاعد في رأسه مجددًا، ليقول:

ـ *إنهما سيهربان.. «بارتوس» العجوز لن يتمكن من إيقافهما.. وأنت لن تخرج من هنا حيًّا.. إلا إذا...*

قالها الصوت فلم يحتج «لوران» إلى مزيد من التفسير ليفهم ما يعنيه.. لقد أخطأ وأمامه فرصة لتصحيح خطَئِه.. لكن.. كيف؟

هنا شعر بقوة خفية تدير رأسه إلى جهة محددة من الأطلال، لتمنحه الإجابة.. انطلق في هذا الاتجاه.

وهنا تردد للحظة قبل أن يتغلب شعوره بالذنب على رغبته في البقاء حيًّا، لينطلق في ذلك الاتجاه وبأقصى سرعة استطاعها مع آلام جسده وذراعه المهشمة.. فليكن الصوت العابث هو صوت ضميره أو فليكن صوت أشباح هذه الأطلال.. لا يهم.. المهم أنه محق، وأنه يجب أن يمنع «إليزابث» من الهرب.

والأهم.. ألا يكون قد تأخر أكثر من اللازم.

* * *

والآن يمكنك استنتاج ما حدث.

الآن يمكنك أن ترى كل شيء وهو يحدث في اللحظة ذاتها.. يوسف يجاهد ليواكب سرعة «إليزابث» التي أخذت تعدو لتنجو بحياتها التي لا تستحقها.. «لوران» يعدو متجهًا إليهما وذراعه المهشمة تتأرجح بجواره ليزيد الألم من سرعته.. و«بارتوس» على تلك القمة العالية يسدد سهمه ليُطلقه.

الآن يمكنك أن ترى كيف توقفت «إليزابث» فجأة وكأنما شعرت بما سيحدث ليتوقف معها يوسف متعجبًا.. كيف تجاوز «لوران» ذلك الجدار ليقفز عليهما في اللحظة التي اكتشف فيها أنه يهاجمهما بذراع واحدة ومن دون سلاح، لكنه لم يعد يملك وقتًا للتراجع أو التفكير.

وكيف شقَّ سهم «بارتوس» الهواء بصفير متصل لينتهي به الأمر في ظهر «لوران» الذي لو كان تأخر لحظة واحدة لأصاب «إليزابث» في عنقها.

الآن يمكنك أن تتخيل نظرة الذهول على وجه يوسف والألم على

وجه «لوران» وتلك الابتسامة الظافرة على وجه «إليزابث»، ثم بعدها يمكنك أن تتخيل كيف دوت صرخة «بارتوس» في ظلام الأطلال تحمل من الغضب والعجز والقهر ما يكفي لأجيال قادمة.

صرخة رجل خسر وفي لحظة واحدة كل شيء، ولم تعد أمامه الفرصة لتعويض خسارته.

صرخة بدت كهزيم ألف رعد، تعالت فترددت فتلاشت في الظلام، ليَهوِي «لوران» بعدها جثة هامدة أمام يوسف الذاهل و«إليزابث» التي ألقت بنظرة امتعاض سريعة على الجثة، قبل أن تقول:

ـ هيا بنا.

ثم انطلقت تواصل طريقها إلى النهر، فتبعها يوسف بمجرد أن استعاد سيطرته على جسده الجديد.

وعلى الرغم من كل شيء كان الشعور الوحيد الذي اجتاح يوسف لحظتها هو أنه نجا.

وهو شعور سيضحك حين يتذكره لاحقًا!

* * *

ولم يكن عبور النهر سهلًا كما لك أن تتوقع.

كانت العاصفة قد فقدت أكثر حماسها مع انتهاء المطاردة والمواجهات التي دارت في الأطلال الليلة، لكن مياه النهر حافظت على برودتها وعلى تسارع أمواجها مهددة من سيحاول عبورها بتمزيقه إربًا، وأمامها توقف يوسف و«إليزابث» وقد أخذ يلهث هو بينما وقفت هي ثابتة بجواره تبحث

بعينيها عن أفضل نقطة لعبور النهر.. وجدتها فأشارت نحوها وقالت مستعيدة لهجتها الآمرة:

ـ من هناك.

لكن يوسف اعترض قائلًا:

ـ لن يمكنني عبور النهر في هذه الحال.

ـ بل ستعبره.. أنت لم تحصل على قطعتك من الحقيقة بعد.

قالتها وألقت بجسدها في النهر من دون أن تمنح يوسف الذي بوغت بقولها فرصة للرد.. لم يحصل على قطعته من الحقيقة بعد!

إنها تعرف قواعد لعبة الشيء كاملة!

في كل مرَّة سأمنحك قطعة.. وسآخذ منك قطعة.

لكن.. أهي التي ستمنحها له هذه المرَّة؟ سيعرف على الضفة الأخرى من النهر.

لهذا تبعها إلى مياه النهر المظلمة التي استقبلته وقد تذكرت أنه نجا من الغرق منها مرَّة، لتزيد من برودتها ومن عنف أمواجها كأنها تبغي النجاح فيما فشلت فيه سابقًا، لكن قدم يوسف لم تكن بين قضبان هذه المرَّة، ولم يكن هو يحاول عبور النهر لينجو من مطاردة لا أمل فيها.. لقد أدَّى دوره كاملًا في هذه الليلة وأنقذ «إليزابث»، والآن من حقه أن يحصل على قطعته من الحقيقة، وإن كان هذا يدفع بسؤال جديد في رأسه يستحق إجابة فورية: لقد أنقذ «إليزابث».. لن يقتلها مطاردوها، فاثنان منهم انضمَّا لموتى الأطلال، والثالث لن يلحق بهما أبدًا.. أنقذها ولن يظفر الشيء بجسدها،

وهذا يعني أنه نجح في هذا الفصل من اللعبة، وبالتالي.. هل سيجد الشيء في انتظاره حين يعود إلى زمنه؟

المفترض أن تكون الإجابة: لا.

لقد أحسن الاختيار في هذا الزمن، ولقد واجه الموت بكل صوره ونجا، وأنقذ «إليزابث باثوري» من موت محقق.. المفترض الآن أن تواصل هي طريقها إلى قصرها الذي ستقضي فيه ما تبقى لها من حياة، وأن يعود هو إلى زمنه ليجد أن قصة الشيء قد توقفت عند هذا الحد.

أن يجده وقد فشل في الحصول على جسد «إليزابث» ليظل معلقًا في زمنها، وليترك زمن يوسف بكل من فيه، وفي هذه الحالة سيعود يوسف ليجد أن الشيء لا يطارده، وأن مجدي لم يقتل ابنه، وأن سوسن لم تختفِ، وأن ليلى تعيش حياة طبيعية مع زوجها وطفليها بدلًا من أن ترقد جثثهم في قبو فيلّتها.

سيعود كل شيء إلى طبيعته، وسيستعيد هو عمله في مجلة «المجلة»، وسيقضي أيامه فيها ـ لأن سوء حظه لن يفارقه ـ وستنتهي قصة الشيء في حياته.. وإلى الأبد.. هذا هو المفترض، لكن..

لماذا يشعر بأن هذا لن يحدث؟

لماذا يشعر كأن هناك نقطة أخيرة غابت عن تفكيره طويلًا وها هي الآن تتقافز في رأسه محاولة الإعلان عن نفسها؟

ولماذا أخبرته «إليزابث» بأنه سيحصل على قطعته من الحقيقة وكأنها تؤكد له أن كل ما سينتهي هذه الليلة هو هذا الفصل من لعبة الشيء، تمهيدًا لعودته لمواجهة باقي الفصول؟

أسئلة حملها يوسف معه في رحلته في ظلام النهر إلى أن اجتازه أخيرًا ليخرج إلى حيث وقفت «إليزابث» وأحصنة مطارديه، لتمنحه هي إجابات عن بعضٍ منها.. لهذا.. وحين وقف أمامها يرتجف من البرد والألم.. ابتسمت «إليزابث» لتقول:

ـ والآن.. يجب عليَّ أن أشكرك.

لكن يوسف، الذي لم يكن ينتظر امتنانها، تساءل على الفور:

ـ ما الذي كنت تقصدينه بحصولي على قطعتي من الحقيقة و...

ولكنه لم يكمل سؤاله هذا.

فبسرعة لا تمُتُّ للبشر بصلة انقضَّت «إليزابث» عليه لتغرس خنجر «مارسيل» في جَنْبِه، قبل أن تتراجع مبتسمة وقد توهجت عيناها بقوة وبالصورة ذاتها التي رآها يوسف في عيني الطفل إذ زاره الشيء أول مرَّة.. يوسف الذي لم يجد الفرصة حتى ليشعر بالألم أو بالمعدن البارد الذي اخترق جسده.. فقط فقد شعوره بنصفه السفلي وقد تراخت ساقاه فجأة فهوى أرضًا ووجهه يحمل أقسى نظرة ذهول من الممكن أن تراها على وجه رجل، أمام «إليزابث» التي أطلقت ضحكة عالية ماجنة، قبل أن يخرج من فمها صوت الشيء بنبرته العابثة ليمنح يوسف قطعته من الحقيقة:

ـ *أيها الأحمق.. لقد كنت تنقذني طوال الليل.*

فلم يُجب يوسف، ولم يجد في جسده من طاقة الحياة ما يكفيه للنطق.

فقط حاول تحريك يده لإيقاف نزيف جرحه الجديد، لكنه لم يستطع

فتركه يفرغ ما تبقى في جسده الضخم من دماء، وأخذ يحدق ذاهلًا في «إليزابث» ـ التي هي ليست «إليزابث» ـ والتي واصلت بالصوت الرهيب ذاته:

ـ *«إليزابث» انتحرت يوم أن اقتحموا قصرها ليقبضوا عليها.. انتحرت وتركت لي جسدها.. تمامًا كما كنت أريد.*

الآن تَسْطَعُ الحقيقة كاملة في رأس يوسف المحتضر، والآن تتضح الصورة كاملة.

لقد خدعه الشيء!

لم ينقله إلى هذا الزمن ليمنحه الفرصة للقضاء عليه.. بل لينقذه!

ـ *كنت أعرف أنهم سيحاولون قتلها وكنت أكره أن أخسر جسدها وأنا لم أفعل به شيئًا بعد.. لكنك أنقذتني يا عزيزي.. كان أمامك الخياران ولقد اخترت.. والآن...*

ولم تكمل هي ـ والتي ليست هي ـ بل اتجهت لتضغط بقدمها على مقبض خنجر «مارسيل» المغروس في جسد يوسف الجديد، لتغرسه فيه أكثر فأكثر، فلم يقوَ يوسف على الصراخ حتى.

وفي السماء سطع البرق للمرَّة الأخيرة في هذه الليلة، لكن يوسف لم يسمع هزيم الرعد بعده.. لقد فقد من الحياة ما يحتاج إليه لتعمل حاسة السمع في جسده.. وها هو الآن ظلام الموت يحيط به من كل صوب، وبسرعة، لكنه ترك له بصيصًا رأى فيه الشيء في جسد «إليزابث» وهو يتجه إلى أحد الأحصنة ليمتطيه بمهارة قبل أن يلتفت ليلقي نظرة أخيرة عليه بعينين توهجتا بقوة، قبل أن ينطلق مبتعدًا بحصانه ليبتلعه ظلام تلك الليلة التي أوشكت على الانتهاء أخيرًا.

وأحاط الظلام بيوسف أكثر وأكثر.. لكنه رأى الحصانين المتبقيين يَهوِيان فجأة على الأرض، وكأنما فقدا رغبتيهما في الحياة فجأة، فأدرك يوسف ـ وعلى الرغم من احتضاره ـ أن دورهما في هذه الليلة قد انتهى، ولم يعد هناك مبرر لبقائهما.

تمامًا كما انتهى دوره ولم يعد هناك مبرر لبقائه.

الظلام يحيط به أكثر فأكثر، وعقل جسده المحتضر لم يعد يقوى على الاحتفاظ بالمزيد من الأفكار أو الأسئلة.. فقط كان آخر شيء سمعه يوسف في هذا الزمن هو صوت «مارسيل»، الذي انبعث قربه يقول بمرارة من خسر كل شيء:

ـ أنت السبب!

ثم تلاشى كل شيء في لحظة.

٢٧

وفي اللحظة التالية وجد يوسف نفسه قد عاد إلى زمنه، ووجد ألمًا حادًّا يخترق جنبه، فأدرك على الفور أنه فقد كليته اليمنى.

إنها الثمن الذي دفعه مقابل قطعة الحقيقة التي حصل عليها في هذا الفصل من لعبة الشيء، لكنها ليست مشكلته الآن.

الآن.. وبعد لحظات احتاج إليها يوسف ليسترجع إدراكه كاملًا بكل ما يحدث له، وجد أنه يرقد على المقعد الخلفي لسيارته قرب الفندق الذي يقف الآن عصام على سطحه يصرخ غاضبًا، لكنه لم يكن بمفرده هذه المرَّة.

سوسن كانت معه!

سوسن التي اختفت طويلًا حتى فقد الأمل في العثور عليها تجثم الآن فوق صدره وقد ارتسم على وجهها غضب امتزج بالمرارة والحزن واليأس والجنون الذي رآه سابقًا في وجه الدكتورة ليلى.. وكانت تبكي!

كانت الدموع تسيل حارة على وجنتيها، وكانت تقبض على سكين انغرس نصله في لحم عنقه لتسيل دماؤه ساخنة في خيط تلوَّى في طريقه إلى صدره، وكانت تهمس من وسط دموعها:

ـ سامحني.. لكن.. لكن يجب أن أقتلك!

«يعبر تامر إبراهيم بسلاسة ذلك الحاجز الفاصل بين التشويق والرعب، ليبرهن على أنه لا يوجد حاجز أصلًا، وأن هرولة الوقت ذاتها قد تكون مرعبة أكثر من قبو يعج بالتوابيت. في الوقت ذاته هو قادر تمامًا على ارتياد عوالم رعب لا أجرؤ على ارتيادها» - د. أحمد خالد توفيق

كان يوسف وحيدًا، لكن وحدته هذه لن تدوم طويلًا.

يعمل يوسف في قسم الحوادث بمجلة «المجلة»، وذات يوم يكلِّفه مدير التحرير بإجراء حوار صحفي مع أستاذ جامعي حُكِم عليه بالإعدام لقتله ابنه. وبدلًا من أن يحصل يوسف على إجابات عن أسئلته، يجد نفسه قد سقط في لعبة لا تحمل له إلا الأسرار والمفاجآت والأهوال التي تفوق أسوأ كوابيسه!

لعبة قواعدها لا ترحم، لعبة لا يستطيع الخروج منها. فيحارب بلا أمل وبلا هوادة، لا بحثًا عن الحقيقة، بل لينجو بحياته.

كان يوسف خليل وحيدًا لكن...

لكنه سيفتقد وحدته هذه قريبًا!

- رواية تحبس الأنفاس




978-99921-95-75-8
90100
9 789992 195758





دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING
مؤسسة قطر
Qatar Foundation

تصميم الغلاف: أحمد مراد